

مفهوم مصرية

تأليف

المستشار/ محمد مرشدى بركات



تصميم الغلاف: شريف رضا

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

.الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع
E-mail: maaref@idsc.net.eg هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩
www. gate.dar-elmaaref.com

إهداء

إلى روح والدَيَّ وشقيقَيَّ الأستاذ محمود والدكتورة رقية
تغمدهم الله بواسع رحمته..
وإلى كل من: اللواء إقدام على عبد الواحد وافى، والدكتور
عادل وهبة اللذين لا يرد فضلهما علينا إلا الله سبحانه
وتعالى؛ فقد أحاطونا بكريم الرعاية وفائق العناية.

المستشار

محمد مرشدى بركات

مقدمة الكتاب

هموم مصرية ، أو هموم وطنية - سيان ، فهما فى معنى واحد يلتقيان .
والكاتب يجب أن يشمر عن ساعديه ليكشف هموم وطنه ويسلط ضوء
قلمه عليها ، وهذا يعنى حضور الوطن فى ذهن الكاتب وذاكرته ، فالوطن
يمثل له ولغيره نبع الخير والعطاء . إذا استقر فى سويداء قلبه بالحب ،
والانتماء . وإذا أملت لائمة بالوطن بالكدر والأضرار فيظل بالنسبة له
الشمس والقمر والضياء . والأمل والرجاء ، إذا ناداه الوطن لبي النداء يهرع
إليه باحثاً له عن دواء يعالج به أوصابه ، بقلمه حتى يجد له الدواء .
فالوطن هو القمة العليا ، وهو الكبرياء يظل شاخصاً ببصره وبصيرته
له فوق القمة السماء .

والإبداع هو غمس اليراع ، فى هموم الوطن ، ورسالة الكاتب -
بقلمه - هى كمبضع الجراح الماهر يستأصل بها شأفة الهم الوطنى قبل
أن يستفحل الداء ، ويعز الدواء .

والكاتب لم يخلق لكى يمسك فى يده ، بقلمه يهش به على وجوه
القارئ ، ولكن ليرفع به الظلم عن المعذبين ويكفكف به دموع المظلومين ،
بحدة نظره ، ونفاذ بصيرته .

وهاهوذا «شكسبير Shakespeare» ، وقد استن قلمه العبقري ليعبر عن
روح الشعب الإنجليزي بل شعوب العالم قاطبة ، وجاء من بعده «تشارلز
ديكنز Charles Dickens» ، «وجراهام جرين Graham Greene» ،
وكذلك «مارك توين Mark Twain» ليعبروا عن الروح الأمريكية ،

و«إميل زولا Emile Zola» و«هوجو Hugo» عن الروح الفرنسية ،
و«تشيكوف Chekhov» ، و«جوركي Gorky» ، و«تولوستوى Tolstoy»
عن الروح الروسية.

أما فى مصر فكان «العقاد» و«طه حسين» و«نجيب محفوظ» ، و«توفيق
الحكيم» ولطفى السيد وسلامة موسى ، وغيرهم من العمالقة الذين جعلوا
أقلامهم رماحاً وسيوفاً شرعوا فى وجه ما انتاب وطنهم من ملومات ،
وحل عليها من نائبات.. فنجد فى كتاباتهم وإبداعاتهم - جميعاً -
التعبير العميق عن روح شعبهم ، ومعبرين بها عن هموم وطنهم.
وكم من نقيضة اعتورت الوطن لم تبرح مكنها إلا بفكر الكاتب
الأديب اللبيب يسبر غور مشكلات وطنه وما اعتوره من علل. وصدق
الشاعر حين قال :

ليست بلادى ببقاً وخريطةً لكن بلادى حيث أستطيع أن أكتبُ
وأصاب من قال عن بلاده :

لو تطلب البحر فى عينيك أسكبه أو تطلب الشمس فى كفيك أرميها
ومن هنا يعكف الكاتب دائماً على البحث عن مشكلات وطنه
وهوموه.

والبحث كما ورد فى «المعجم الوسيط» هو :

بذل الجهد فى موضوع ما ، وجمع المسائل التى تتصل به.

بيد أننا نرى له تعريفاً موجزاً آخر فنراه أنه :

جمع الشتات وتأصيل الرأى.

لا جرمَ - إذن - إن أمعنت نظرى ، وأنعمت فكرى فيما ألم بمصر من

(هموم) اعتورتها، وأرقتها، وكادت أن تشوه حضارتها وتنال من مجدها الغابر التليد التي زين التاريخ بها نفسه في أنصح صفحاته.
وكم هو عدد المؤرخين الذين استهوتهم مصر منذ عهددها العهد بدءاً من أبى التاريخ «هيروودت» وانتهاء «بأبى عمر الكندى»، و«الحسن ابن زولاق». ورجل الحرب والقلم «عز الملك المسيحى»، و«القلقشندى» و«الحافظ العسقلانى»، و«شمس الدين السخاوى». و«ابن إياس»، و«المقريزى»، و«ابن تغرى بردى»، وغيرهم ممن ذخرت بتواليهم المكتبات الشرقية والغربية.

ناهيك عن الدراسات المسهبة التى نهض عليها علماء الحملة الفرنسية، فسجلت يراعاتهم، وتبارت أقلامهم فى الكتابة عنها. والإشادة بها فى مجلدات تربو على العشرين مجلداً.

أليست هى مصر التى كانت مسرى الأنبياء بدءاً من «إدريس»، وأبو الأنبياء «إبراهيم»، و«يوسف الصديق»، وكليم الله «موسى»، وروح الله «المسيح عيسى بن مريم» عليهم جميعاً السلام؟

أحب مصر أهلوها وبنوها، وهام بها زائروها، وتملك سحرها قلوب المقيمين فيها والوافدين عليها، وكل من مكث على أرضها، أو ترعرع بين أرجائها، أو شرب من ماء نيلها، أو تغذى من خيراتها، أو اختلط بشعبها. فالجميع لا يود مفارقتها، أو الترحال عن أرضها، فمصر درة الأوطان. إذا تسلسل الكرى إلى من هواها: والكل يهواها. فهو نائم يقظان! متمثلاً بقول «قيس بن ذريح»:

وإنى لأهوى النوم من غير نَفْسَةٍ لعل لقاء فى المنام يكون!
عاش المصريون على ثراها، أعزاء ما لمست جباههم تُربها إلا مُصلينا.

وما مستهم المحن أو أحاطت بهم الإحن - وما أكثرها فى تاريخ مصر -
إلا كانوا ذاكرينا، فمن شاء فى ظل السعادة ضجعةً، فهنا فى مصر تُشاد
صروحها وتقام، وإن رام نسيان (الهموم) فهنا هنا تنسى الهموم وتذهب
الآلام. فالنيل والبحر الخضم يحوطه، والباسقات على الطريق قيام.
يقول «جوستاف فلوبيير Gustave Flaubert» عن القاهرة عاصمتها:
«حقاً إن الشرق يبدأ من القاهرة».

ويعبر «على الجارم» مخاطباً إياها:

«سحرت عيون الخافقين كأنما بأرضك سحرا للفراعين مودع»
وكما يقول:

لكل جسم شرايين يعيش بها ومصر للشرق والإسلام شريان
مالى فتنت بلحظك الفتاك وسلوت كل مليحة إلاك؟

يُحكى عن الخديوى «سعيد» الذى تولى حكم مصر بعد موت أخيه
«عباس باشا» فى ١٦ يوليو ١٨٥٤م، والذى استقبله شعب مصر
بالترحاب بعد أن لاقى الوليات إبان فترة حكم «عباس» حتى إن أحد
المصريين قد صور احتفاء المصريين به قد قال:

«إن الزيت الذى أوقدناه احتفالاً بجلوس سعيد على العرش ندفع
ثمنه (دموعاً) منذ أربع سنوات!»!

وقد تمكنت مصر من عقل «سعيد» ومن سويدهاء قلبه فقال - وهو
التركى الصميم:

«أتمنى أن أعرف أى عرق فى جسدى يضخ الدماء التركية فيه حتى
أقطعه وأجعله ينزف دمًا وأتخلص منه للأبد!»!

ومن وحي نشأتى، فى قريتى «منية المرشد» التى استولى هيامى بها على مجامع فكرى، وما علمه لى والدى - رحمه الله، وجعل الجنة مثواه - من أن حب الوطن من الإيمان، شببت عن الطوق على حب مصر، فلم أجرؤ على مغادرتها أو الترحال عنها يوم أن رشحت للسفر إلى (السودان) الشقيق، إثر انتخابى أميناً للجنة الثقافية بكلية الحقوق جامعة القاهرة، والذى كان يشرف عليها أستاذنا المرحوم الدكتور «عبد المنعم فرج الصده».. وعزفت عما أزمعت، مع دهشة الجميع عن رغبتى فى عدم الرحيل من مصر إليها، و لمدة من الزمن موقوتة تنتهى بانتهاء ميقاتها.

وجاء اليوم الذى قر العزم منى على السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن لُبيت طلبتى إلى الهجرة إليها.. فهجرت هذه الفكرة حتى إنها لم يكن لها عندى.. من بعدها قيام.

وعندما شددت الترحال إلى دولة قطر الشقيقة للانتظام فى منظومتها القضائية لم ألبث غير بعيد، وطلبت العودة إلى مصر مع أنها كانت بالنسبة لى وطنًا ثانيًا كنت أراها «لؤلؤة الخليج»، وما أحاطنى به قاضيها الجليل «عبد الله مبارك» من رعاية وعناية، ومع ما تكبده من مال، فى سبيل الاحتفاء بى. فلقد جاش بخاطرى ما عبر به أستاذنا «العقاد» عن المال قائلاً:

لا تحسدن غنيًا فى تنعمه قد يكثر المال مقرونًا به الكدر
وعندما ارتسمت الدهشة على وجه زميلى المفضل من رغبتى فى الأوبة إلى مصر قال لى:
(... إنك ليس لديك جلد...).

فأجبتة :

(بل الجلد هو الذى دفعنى إلى الرغبة فى العودة إلى مصر لأنى لم أجلد على البعد عنها!).

كنت أنظر فى قطر، فى كل شارع وميدان، وأهفو إلى مصر بالتحنان. والذى لا مُشاحة فيه أن الانتماء للوطن هو الوطنية ذاتها، واليوم وأنا أرنو إلى مصر، فأراها وقد أحاطت بها الهموم من كل جانب، إحاطة السوار بالمعصم، فقد هبطت عليها الأوصاب والأوضار، ومنها على سبيل المثال، ما ذكرناه فى الصفحات المقبلة من هذا الكتاب عن.. (المشكلة الثقافية) التى تعانى منها مصر. وكادت أن تكون وصمة على عقول الشباب لتدنى مستواهم فى اللغة العربية، لغة البلاد القومية بعد أن زاحمتها اللهجة العامية فضلاً عن اللغات الأجنبية التى نافست اللغة الأم وزحزحتها عن طريق تقدمها، وذكرتنا بأبدة العلامة «ابن خلدون» فى قوله :
«إن غلبة اللغة بغلبة أهلها، وإن منزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم».

فاللغة تعمل أبداً على الحفاظ على (الهوية) التى هى ذات دلالات لغوية وفلسفية واجتماعية وثقافية.

ولفظ (الهوية) كما ورد فى كتاب «جوب جوزيف» والموسوم بذات لفظها ، وترجمه إلى اللغة العربية الدكتور المغربى «عبد النور خرافى» مشتق من أصل لاتينى sameness، يعنى «الشئ نفسه».

كما يتضمن مفهوم (الهوية) الإحساس بالانتماء القوى، وكذلك الدين. فبناء الهوية هو فى واقع الأمر بناء (للماهية).

أما بعد، ومن خلال انتمائى لمصر، وكذلك هم جل المصريين،

سطرت سطور هذا الكتاب فأنت إذا أصلحت يومك ، صلح غدك .
فعسى أن يرحل عن مصر (شتاء السخط) كما عبر الروائي الأمريكي
الأشهر (جون شتاينبيك John Steinbeck) . بإصلاح شأنها والنهوض
على هبتها من رقدتها .
جاء في ذخائر العرب :

(كانت يدي ، كانت بها قوتي . فاخترت الدهر يدي من ، يدي) ! .
لا تياسوا أن تصلحوا من أمر مصر . وأن تمسحوا عن جبينها ما ران
عليها من هموم .

قيل لـ «نابليون بونابارت» يوماً : إن جبال الألب الشاهقة تمنعكم من التقدم .
فقال : يجب أن تزول من الأرض .
وكان نابليون يرد بثلاث على ثلاث .
من قال : لا أقدر . قال له حاول .
من قال : لا أعرف . قال له تعلم .
ومن قال : مستحيل . قال له جرب .
وقيمة الوطن أغلى في النهى ثمناً من أن تباع بدينار وقنطار .
فهل نترك مصر هكذا تعصف بها الهموم ؟
وهل نتركها تباع وتشتري ؟
ولرب مغلوب هوى ، ثم ارتقى ! .
ولرب ضائقة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج .
والله موفق .. والله المستعان .

المستشار

محمد مرشدي بركات

مشكلة الشباب

فى قاموس اللغة أن التعب هو نقيض الراحة.
يقول أبو تمام:

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها تُنالُ إلا على جسر من التعب

أضحت مشكلة الشباب فى بلادنا بؤرة المشكلات التى تؤرق مصر،
وخلد الشباب إلى الراحة بعد أن استبد بهم اليأس من عثورهم على
ما يُؤجج فيهم من آمال، ويوصلهم إلى ما يصبون إليه من منال.

فمشكلة الشباب فى بلادنا من كبريات المسائل التى أضحت
حديث الناس من جميع الأجناس، وفازت باهتمام مفكرينا وأدبائنا فى
الاجتماعات والندوات. فراح كل منهم يقدم ماعنده من آراء ومقترحات
ويطرحها على بساط البحث؛ لعل فيها ما ينفع أو يفيد.

فالأب يقول إن الأم هى السبب، وعليها وحدها يرجع ما أصيب
به الشباب من تخنث وميوعة. وترد الأم بأن الأب هو العمود الفقري
للأسرة؛ فإذا كان قويا فالذى لا مرية فيه - أن أبناءه سينشأون أشداء
أقوياء، لا علة فيهم..

وعالم النفس يقول إنه الضغط يولد الكبت، ويولد معه التهور والطيش
والانزلاق. ومستوى المعيشة وما اكتنفها من تغير، وما صاحبها من تبدل
أدى إلى عدم استقرار، وولد فى نفوس الشباب القلق وخلق لهم الأرق.
ولسان أحدهم يردد: أن أرضهم وبلادهم لن يترك من خيرها البسطاء
فقد أمست لهم كجثة الأشقياء.

ورجل الاجتماع يسند الأمر إلى عدم الإحساس بالمسئولية والإسراف في المطالبة، فالشاب يطلب الكثير ولا يعطى إلا القليل؛ فيقف منفصلاً عن المجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه.

أما رجل السياسة فيعزو المشكلة إلى المرحلة الانتقالية التى تمر بها البلاد، ويمر بها العالم كله، وكل انتقال مصحوب باضطراب. فالمجتمع يمر بعمليتين فى آن واحد، عملية هدم للقديم، وعملية بناء الجديد، وبين هذا وذاك يقف فريق يتناول المشكلة تناول الوعاظ ورجال الدين، فالشباب عندهم سيئة من السيئات، ونكبة من النكبات، لا سبيل لعلاجها إلا بالزجر الصادم والعقاب الصارم.

ولكى نكون واقعيين؛ ينبغى لنا أن نسأل: «ما هو عدد الشباب الذى نعدّه منحرفاً منسوباً إلى عدد الشباب فى الوطن كله؟».

ويجىء الجواب: شردمة ضئيلة فى كل أقليم من الأقاليم وماعدا ذلك فشاب يعد من حيث مقياس الشباب فى العالم مفخرة لوطنه وبلاده منه العامل الكادح، والفلاح المكافح، والطالب النابه، ومنهم من يطوف شمالاً أو جنوباً، شرقاً أو غرباً. منقياً عن العلم. باحثاً عن الحقيقة. ساعياً وراء الرزق. ومنهم من يعول أسرته أو يتعهد إخوته وهو لا يزال - بعد - طرى العود غض الإهاب.

ولكنهم - مع ذلك - مع استبداد اليأس بهم يرون أن إقامتهم فى وطنهم أرض النخيل والأشجار والطيور والأزهار. الأرض الطيبة التى كرمها الله فى كتبه التى نزلها، فى التوراة والإنجيل، وأنزلها الله فى كتابه الكريم، يرون مقامهم فيها كما كان يقول المتنبى:

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود؟!!

وكما قال الشاعر محمد البحيرى على لسان شاب يخاطب مصر
بحسبان أنها أمه :

تاه فى قلبك قلب الأم
وغاب عنى بر الأبناء
وكأنا فى وسط اليم
نبحث أين الميناء؟
وكل منا يقول:
بل غيرى هو المسئول
لم لا تنسى يا أمى؟
ذنوب الماضى وما كان
تتجنبن ذكر اسمى
وكأنى حقاً شيطان
نبت الشوك بقلبى
لكن جفءك هو البستان

أما تلك الشردمة المريضة من الشباب ، فإذا كان صحيحاً أن مثلها
قد تكرر وجوده فى العصور الماضية ووردت الإشارة إليه فى «تواريخ
العرب، وتواريخ اليونان والرومان والفرس والهنود والصينيين» ، وتكرر
وجوده أيضاً ولو بصورة أكبر وأعم فى حاضر أوربا وأمريكا. إذا كان هذا
صحيحاً. فهذا لا يجعلنا نغض الطرف عن هؤلاء هاتفين: شبابنا بخير
فلنرفع الأيدى عنهم فهم من أعظم شباب العالم! فهنا يكمن الخطر ومن
هنا تكون الطامة الكبرى.

ومن الخطأ والخطل معاً أن نقول ذلك. أما السخف الذى لا سند له
من الواقع فهو أن يشتم البعض فيقول إن الشباب مظلوم، وإنه ضحية

المجتمع ، فالعيب ليس عيبه ، والمسئولية ليست مسئوليته . فالمجتمع هو الجاني ، وهو الأحق باللامه والعقاب؟! .

ولنترك أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد يتساءل معنا ، ويرد على هذا السخف المثبت في بعض الأذهان . ويقول في جريدة أخبار اليوم عام ١٩٥٩م من مقال له عن الشباب :

« ما هو هذا المجتمع؟ .. وما هي هذه الجناية؟ ».

« إن أولئك الدجاجلة ليتحدثون عنه كما كان شعراء الأُمس يتحدثون عن الدهر المسئول عن كل شيء ، وليس في حديثهم طائل على جميع الفروض والاحتمالات ، لأنه لن يسقط المسئولية الفردية عن أحد ليس بالطفل وليس بالمعتوه ».

ويستطرد قائلاً :

« أنت مسئول وتزداد المسئولية عليك كلما ازدادت أسباب الحذر . والانتباه ، ويجب علينا جميعاً أن نذكر ذلك ولا ننساه . ومن نسيه فهو المسئول مهما يكن من شأن المجتمع الذي يعيش فيه .. ».

نعم من الحمق أن نتهم المجتمع وتحدث عنه كما يتحدث أولئك الدجاجلة! ، ونعم من الجهالة أن ننظر إلى أمر هؤلاء من زاوية واحدة دون أخرى . ولكن من الحمق والجهالة معاً أن نترك تلك الفئة الضالة المريضة تجمع على هواها ، وتعيث في الأرض فساداً . فتتغل في جسد بقية الشباب كما يتغل الدود في الأرض الصالحة فيفسدها ، بل علينا أن نمنع تفكيرنا ونتعقب المشكلة من أساسها ، ولن يطول بنا الوقت لتتعرف على بدايتها وعلى منتهاها ونكتشفه في « المنزل » الذي هو عندنا المسئول عن نكسة بعض الشباب وانحلالهم . فإننا إلى الآن لم نحصل على ما يمكن أن يكون مرادفاً في معناه لكلمة الـ (Home) وهو البيت

النموذجى الذى يقوم على الدين ومكارم الأخلاق، وبتعبيره الإنجليزى الدقيق إلا فى حالات قل أن يوجد منها الكثير.

فالأسرة النموذجية ليست تلك التى يجمعها جدران بيت واحد وبين هذه الجدران تراق حرمة الأسرة كما تراق الدماء!

وهى ليست تلك التى تتكون من الأب والأم والأبناء الذين يجمعهم طعام واحد وشراب واحد، ويفرقهم اختلاف جوهري فى الآراء والأهداف، وتقارب العقول، فلا النظرة تكفيه، ولا الاجتماع الواحد يرضيه. ولا ينجلى له خطر هذا الانقسام والانفصال إلا بعد فوات الأوان. وهى ليست تلك التى تتفق فى الأفراح، وتنفصل فى الأتراح.

وهى ليست تلك التى لا يحدب كبيرها فيها على صغيرها، ولا يوقر صغيرها كبيرها. ولا تراعى فى قواعدها مبادئ الخلق القويم المستقيم، وقوانين الآداب فالخارجيين عن هذه الآداب يعيشون فى فرح فارح، فغابت عنهم المسئولية. وانزعت فيهم الأنانية.. فهم يموتون سروراً وتموت أسرهم بهم غمًا.. وعلى حد القول القائل إن من فرح النفس ما يقتل.

فالأسرة النموذجية هى التى تمثل «الروح الدافع الغلاب» الذى يسيطر على كل فرد من أفرادها. كما عبر أستاذ من ثقات التربية هو «مايك إيغر».

فهل الأسرة عندنا كذلك؟

لا! ونقولها عن ثقة واطمئنان لما نقول. فالأسرة فى مجتمعنا غالباً بما تكون أسرة فى الكلمة ولكنها ليست كذلك فى المعنى أو المغزى. فلا رابط روحى يربطها. ولا هدف أساسى يحركها، ولا أمل مشترك

يدفعها إلى المضى قدماً فى طريق الحياة. فإلى جانب التقاليد العتيقة، والآراء المقيتة التى توارثتها الأسرة جيلاً بعد جيل تعيش موجة التحرر بطوفانها وسيلها العرم فتتأرجح الأسرة بين القديم والجديد، فهى هنا أشبه ببركان ثائر إذا ثار فلكي يهدأ وإذا هدأ فلكي يثور من جديد!

وبين خضم من الآراء والنحل، تولد حياة قلقة تعتور هذا الشباب الحائر الذى لا يجد من يقدم له زاد النصح والإرشاد، فيعانى كل منهم تناقضا خطيراً بين المجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه وبين أنفسهم وذواتهم وما تعانیه، ويصاب معظمهم (بالبارانويا Paranoia) وهو مصطلح استخدمه أبقراط لوصف المرض العقلى، واستخدمه فوجل سنة ١٧٩٤م للدلالة على اضطرابات العمليات الذهنية. وقد عرف «إميل كريبلين» البارانويا بأنها ذهان يتميز بوجود هذيان و مشاعر الاضطهاد التى تصيب من ينشأ بعيداً عن تقاليد الأسر الكريمة.

ناهيك عن (الشيزوفرينيا Schizophrenia) التى تعتمل فى عقولهم فتصبح بمثابة ضربة لازب لا شفاء منها.

الأسرة - إذن - هى حجر الزاوية فى مشكلة الشباب.. الأسرة التى تعنى بالجسد أكثر مما تعنى بالروح، وتهتم بالعلم دون اهتمامها بالثقافة، وتأخذ بالشكل أكثر مما تعتنق الجوهر. وعلم النفس له حقيقة هامة تقول: «إن كل ما يتصف به المرء مكتسب أغلبه، وليس موروثاً».

فلو طبقنا هذه الحقيقة العلمية على الأسرة فى بلادنا أو الأسرة عامة لخرجنا بحقيقة أخرى جد مهمة وهى أن الأبناء يكتسبون جل صفاتهم من بيئتهم التى يعيشون فيها؛ وبالتالي فلو وجه الشباب المريض من الأصل بواسطة أبويه الوجهة السليمة، وتعلم معنى المسئولية لعرف طريق الصواب، وما كان له أن يضل أو يغوى.

ولم يكن الروائي الفرنسي «أندريه موروا André Maurois» مخطئاً حين خط بقلمه العبارة التالية فى كتابه «فن الحياة Art de vivre»: «إن الشيء الحقيقى الذى تخلقه المرأة هو طفلها!».
 وصدق حجة الإسلام الغزالى حين وصف الطفل بأنه:
 «جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة.. وهو قابل لكل ما ينقش عليه».

فلا بد لنا أن نسأل: ما هو العلاج؟!
 ونجيب: العلاج يكمن فى الأصل ذاته قبل أن يكون كائناً فى الفرع.. العلاج فى معالجة الآباء والأمهات وإعدادهم إعداداً تربوياً علمياً يمكنهم من أداء رسالتهم المقدسة بوعى وحسن إدراك لفنون التربية السليمة التى يسعد بها الفرد والمجتمع، والتى تزود النشء والشباب بما يمهدهم للنجاح فى الأمور الدنيوية والآخروية وتحقق قول الله عز وجل:
 ﴿وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبِغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾. [سورة القصص - الآية: ٧٧]

العلاج فى معالجة الآباء والأمهات الذين يزرعون فى أبنائهم روح التواكل. ويثبتون فى عقولهم دروساً فجة لاتعمل عملها أكثر من تكوين شباب لا يفقه ولا يابه إلا لذاته فقط.

العلاج فى معالجة الآباء والأمهات الذين لا يؤمنون بالتطور، فلا يصارحون أبناءهم، ولا يجاذبونهم أطراف الحديث إلا فيما يمس هامش الحياة، أما الحياة نفسها فلا شأن لهم بها ولا بسبر غورها أو الوقوف على خباياها وأسرارها، ومن هنا يقف الشباب حائراً مشدوفاً وكأن قييداً قد أطبق عليه فلا يدرى من أمره شيئاً. مثله مثل ذلك الذى

راح يناوئ العواصف، ويصارع الأمواج، وهو لا يعلم من أمر السباحة شيئاً. فما هي إلا دقائق معدودات ويكون اليم قد ابتلعه. وجذبه إلى غور مظلم سحيق فلا قدرة له على مغالبة عباب الماء.

العلاج في معالجة الآباء والأمهات الذين يغرسون في قلوب أبنائهم الخوف، ويذهبون من نفوسهم الحق، ويسلبون منهم الإرادة والقدرة على مجابهة الصعاب.

وما هو ذا شاب رفع راية الظلم في وجه أمه يشكو ما ألم به جراء انفصالها عنه، يقول على لسان الشاعر:

كفى الملام وعللينى فالشك أودى باليقين
وتناهيت كبدى الشجون فمن مجيرى من شجونى؟
وأمضى الداء العيياء فمن يغيثى؟ ومن يعينى؟

العلاج في معالجة الآباء والأمهات الذى لا يحفظون وشائج الأرحام. فلا يعرفون كرامة الأسرة ولا يعترفون بقدسيتهما.. فيتشرب الشباب منذ نعومة الظفر بسموم الفرقة وآفة الاستهتار!

العلاج في معالجة الآباء والأمهات الذين يكفرون بالمبادئ، ويتنكرون للمثل، ويتنصلون من المسؤولية ويتركون أولادهم عرضة للطيش والانحراف عن جادة الصواب. وهنا تصدق الكلمة التي جاءت على لسان الفيلسوف «برجسون».

«ما الفرد إلا جزء من والديه..»

ورب سائل يقول: «والمجتمع.. أليس له هو الآخر من نصيب؟!». ونرد: «ولكنه نصيب متبوع، ليس إلى الحد الذى يتصوره البعض ويحيطه بهالة من التهويل والتهليل..، وليس إلى الحد الذى ننحى فيه باللائمة عليه في كل ما يمس الشباب أو يصدر عنه. فالأسرة كما ألعنا هي

حجر الزاوية وقطب الرحي ، ولا يجب أن ننسى أن المجتمع كما يصيب يصاب ، وكما يكون الأفراد من ضحاياه ، فهو أيضاً يكون ضحية الأفراد . نصيب المجتمع في هذا كنصيب الجندي المعين للحراسة يظل طوال الليل يقظاً ساهراً يجافى النوم عينيه ويتقلب على جنبه يمنع عن النائمين الشر ويدفع عنهم الأذى حتى إذا استيقظوا وتنبهوا مضى هو لشأنه مرتاح الضمير بعد أن تفتحت الجفون ، وذهبت الغفلة عن العيون . وهكذا المجتمع من واجبه أن يظل ساهراً على حراسة الشباب في فترة تكونه البيولوجي والروحي يكبح جماحه ، ويُقوِّم شططه ويبعده عن المغريات والمفسدات من أمثال الأفلام الهزيلة ، والكتب المبتذلة الرخيصة ، من شاكلة «الأدب المكشوف» وغيره .

هنا دور المجتمع ، وهنا أيضاً يكمن العلاج ..

فمن واجب المجتمع أن يتدخل ويحمي الشباب من تلك الترهات الغثة حتى تمر تلك الفترة التي يمر بها كل شاب .. فترة ما بين الطفولة والرجولة .. على خير .. نقول هذا والخط البياني لعدد الكتب إياها قد وصل إلى مليون نسخة في مدينة القاهرة وحدها؟! .

بعد ذلك لنا أن نترك الشباب ونحن مطمئنين واثقين بأنه يجد السعي إلى الطريق السليم المستقيم .

ولله در «علي بن أبي طالب» حيث وضع دستوراً حكيماً للتربية في كلمته الصائبة : «علم ابنك سبع ، واضربه سبع ، وصاحبه سبع . ثم اترك له بعد ذلك الحبل على الغارب!» .

العلاج أيضاً .. في أيدي الشباب ..

فعليه أن يسبر غور نفسه ، وأن يكتشف مواهبه الكامنة ، ويعمل على

توجيهها الوجهة السليمة التي تزكيه وتفيد وطنه بنتاج من عقل وشعاع من روح، ويحاول مع هذا أن يعوض ما قد تكون الطبيعة سلبته إياه، فكل إنسان منا يوجد فيه حرف ناقص يستطيع أن يكمله بشيء من الصبر والمثابرة والتصميم.. وكان (هنزل) يقول:

«ليس يعنيني أن ينأى مسيرى، أو تعترضني فى الطريق الصعاب، فأنا سيد قدرى ومصيرى، وفى الأفق الأمل المستطاب».

على الشباب أن يكون مسئولاً دائماً أمام نفسه، وأن لا يلقي بالتبعة على غيره، لأن ذلك يصمه بالضعف والكلال.

على الشباب أن يثق بقدرته، وأن يتسلح دائماً بالحماسة فهى روح الحياة، وترياقها. فالحماسة تولد الإرادة. والإرادة سلاح النجاح فى دنياه فى بدايته وفى منتهاه.

على الشباب أن يؤمن بعمله، وأن يهبه قلبه، وهذا مثل نسوقه للشباب على أن الإنسان الذى يهب قلبه لعلمه قلماً جانبه التوفيق..، فقد سألوا مرة الكاتب الإنجليزي الكبير «سومرست موم William Somerset Maugham»، عن سبب تحوله من دراسة الطب إلى الكتابة فأجاب:

«لقد كنت طالب طب فاشلاً، لأننى لم أمنح الطب قلبى».

وهكذا يضرب الرجل بعبارته مثلاً رائعاً للشباب، فهو لم يلق تبعة فشله فى دراسته على غيره، بل ألقاها على عاتقه، وعزاها إلى شخصه.. وما أن منح لعمله الجديد قلبه حتى صار كاتباً طبقت شهرته الآفاق.

على الشباب أن يعرف أن العمل وحده هو مقياس الرجولة، وألا يصعر خده للناس، فالإنسان إنسان بعمله وسعيه، فلا يصح أن يقول «أنا ابن من؟». بل عليه أن يقول: أنا من؟. قبل أن يكون بأصله ونسبه.

وما أصدق مفكرنا الكبير الأستاذ العقاد. إذ يقول:
«ليس هناك مخلوق على الأرض يستطيع أن يرفع أو يُنقص من شأنى
غير فنى.. فالفن هو الذى يكرم النفس أو يمهئها فى كل زمان ومكان
تحل فيه».

على الشباب أن يتخلص من آفة الغرور الباطل، وألا يستخف بخصمه
المقاتل. وخصم الشباب المقاتل هنا هو الحياة. فالحياة خصم عنيد
للإنسان ولاسيما الإنسان الضعيف الذى سرعان ما يستسلم للحوادث
ويخضع للملمات ونوائب الدهر، فتدوسه الأقدام، وتلقى به فى دياجير
النسيان. ولا بد أن يعلم أن يوماً لك، ويوماً عليك، وخير الأيام ما بذله
الإنسان فى سبيل الأنام.

فالناس بالناس ما دام الحياة بهم
والعسر واليسر أوقات وساعات
وأفضل الناس فى الورى رجل
قضى على يديه للناس حاجات
قد مات قوم ما ماتت مكارمهم
وعاش قومٌ وهم فى الناس أموات

وأخيراً وهو مسك الختام، فعلى الشباب أن يقرأ ويقرأ، وألا يجعل
بينه وبين القراءة هوة سحيقة فيلج فى الجهل، ويضحى بعقله كالحيوان
الأعجم الذى يفكر بأنياه وليس بعقله.

فالقراءة علم، ورابط يربط ما بين الفرد والمجتمع الإنسانى الذى يعيش
فيه وبين ظهرائيه، فهى نور تضىء له الظلمات، وتعينه عليه النائبات.
وتزيل من قلوبهم (الأكنة) فلا يمسون كما قال الله تعالى فى كتابه الكريم:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [سورة الكهف - الآية: ٥٧]

مما يبعدهم عن (الأمر المريح) فيصدعون دائماً للحق وبيتعدون عن الباطل بالقراءة الرشيدة المتنوعة التي تغذى عقولهم. وتدفعهم إلى الانسلاخ عن الجهل مصداقاً لقول الله:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ﴾ [سورة ق - الآية: ٥]

وكم من حق ضاع بسبب غياب القراءة وانغلاق العقل.

وقال مصعب بن الزبير لابنه «تعلم العلم فإن يكن لك مال كان لك جمالاً، وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً».

وكتب ابن المقفع يقول: «ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب الذي هو لقاح عقولنا».

وقال عبد الملك بن مروان لبيته:

«يا بني تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطا سدتم. وإن

كنتم سوقة عشتم».

ويقول «الزرنوجي» أحد أئمة المسلمين:

«كفى بلذة العلم والفقه والفهم داعياً وباعثاً للعاقل على تحصيل العلم».

وأوصانا الله بالعلم وحث - جل شأنه - على ذلك في كتابه الكريم.. فقال:

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر - الآية: ٩]

وقد قال الرسول - عليه الصلاة والسلام -:

«العلماء ورثة الأنبياء».

وإنما ذكرنا هذا للشباب للتدليل على قيمة القراءة وأثرها في خلق

الإنسان وتكوينه. فعلى الشباب أن يدرك ذلك، ويعمل على أن ينهل

دائماً من مناهل العلم والمعرفة.

على الشباب أن يطلب رياضة البدن، كما يطلب رياضة العقل
فكلاهما يكمل الآخر ولا غنى للشباب عن أحدهما أو كليهما. وقد قال
عمر - رضي الله عنه -:

«علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل».

وقال الحجاج لمربي ولده:

«علم ولدى السباحة قبل الكتابة فإنهم قد يصيبون من يكتب عنهم،

ولكنهم لا يصيبون من يسبح عنهم».

على الشباب أن يؤمن دائماً بربه. وأن يعرف أن قيمة الدين خالدة،

وأن ضرورته في حياته واجبة. وأن يعمل لدنياه كأن يعيش أبداً، ويعمل

لآخرته كأنه يموت غداً.

تلك هي مشكلة الشباب، وهذا هو علاجها الذي يكفل لنا شباباً لهم

شأنهم في موازين الخلق، وفي موازين الرجال!.

وما أجمل هذه الأبيات التي قرأناها ويقول فيها الشاعر:

والمرء لا تشقيه إلا نفسه	حاشى الحياة بأنها تشقيه
ما أجهل الإنسان يضى بعضه	بعضاً ويشكو كل ما يرضيه
ويظن أن عدوه فى غيره	وعدوه يمسى ويضحى فيه



مشكلة أطفال الشوارع

فى إحصائية للمنظمة العالمية للأطفال «اليونيسيف»: ذكرت أن عدد أطفال الشوارع - فى مصر - قد بلغ المليون والثلاث مليون طفل؟! .
قمين بنا - إذن - أن نبدأ بحثنا بالتعريف عن.. ما هو الطفل؟!
الطفل ورد فى: القانون المعنون باسمه وهو كما جاء فى المادة الأولى من القانون رقم (٤٩) لسنة (١٩٤٣م) (الخاص بالتسول): من وجد متسولاً فى: الطريق العام أو المحال العامة.
أما فى: القانون رقم (١٢) لسنة (١٩٦٦م) فهو: كل من لم يتجاوز سن الثانية عشر سنة ميلادية كاملة.

وقد حدد هذا القانون الجهة المنوط بها حماية الطفولة كما بينت المادة (٩٧) من عجز هذه المادة.. وهى اللجنة العامة لحماية الطفولة:
وقد أوجب المشرع على هذه اللجنة رصد جميع حالات تعرض الطفل للخطر والعمل على إزالة أسبابها كما أوضحت المادة (٩٩) من القانون المذكور: وأوصى القانون بوجود أن تقضى: محكمة الطفل باتخاذ التدابير اللازمة والعاملة لوضع الطفل الذى سقط فى بئر الجريمة على انتشاره ووضعه فى إحدى مؤسسات الاستقبال.. وكذلك تسليم الطفل إلى أبويه: وقد قصد الشارع إلى اتخاذ هذا التدبير من محكمة الطفل قاصداً حفظ الطفل ومراقبته وتقويمه:

وأردف القانون قائلاً لا تسرى: أحكام التشرد على الطفل الذى لم يبلغ ١٨ سنة إلا عند انقطاع سبل الاتصال بوالديه أو بالحياة العامة..

ولا يحكم على الطفل الذى لم يتجاوز سنه خمس عشرة سنة إذا ارتكب جريمة بأية عقوبة أو تدبير منصوص عليه فى قانون آخر.

والسؤال الذى يثور: من هم أطفال الشوارع؟!

وقصارى القول: إنهم هؤلاء الذين أناخ الدهر عليهم بكله.. فقفز بهم إلى التشرذم والتسكع فى جنبات الشوارع وأروقتها.

وإذا كانت «الأنام فرائس الأيام».. فهم فرائس الدهر بأيامه ولياليه: يعيشون بين ظهرائيه ولا صوت لهم «voiceless» - بتعبير علم النفس - يعيشون على الكفاف من العيش بدون مأوى: ولا سكن يؤويهم يكون لهم - دارًا ومتاعًا، ومستقرًا ومُقامًا.. تصافح وجوههم فى كل مكان، ومن كان فى كل مكان فلا مكان له، تنهش أجسادهم الهزيلة الأمراض، ويتربص بهم الموت فى كل لحظة. وإذا كانت الأرحام تدفع والأرض تبتلع؛ فإنك ترى الواحد منهم وظهره كظهر الدابة، وعنقه كعنق المغلول بعد أن تسلط عليه سيف الفقر المسلول، يبرز قرص الشمس عليه ويأفل، وغاية ما يؤمله: قرصًا من الخبز، ويا بؤسًا له إن هو سأل؛ لعله يعثر على من يدغده بكسرة خبز أو إدام! ويا ليتته الدرهم أو الدينار ليققات به! صفته الليالى حتى ذبل الجسم منه، اكفهر وجهه فقد أضناه الفقر وأشقاه، وبدا ذلك جليًا على محياه، فأهله قد غابوا وكانهم قد ماتوا، فلم يعد ثمة ما ينير له حياته فى حلقة الليل البهيم.

لقد عاداهم الزمان؛ فأمسوا عرضة للاستهجان، وكأن هؤلاء المساكين قد اختاروا لأنفسهم هذا المصير المؤلم الحزين، ففى أحشاء كل منهم يتكون جنين جديد من الهم والغم الأليم:

عندما تراهم «تبصر خشبًا مسندة» ضربت عليهم «الذلة والمسكنة» وكان عميد الأدب العربى: الدكتور طه حسين - قد وصفهم فى كتابه

«المعذبون فى الأرض». وكذلك هم كما دبجت براعة الكاتب العالم: «فيكتور هوجو» فى رائعته «البؤساء» «les misérables»: لقد اتخذ من بطل روايته أو قصته (جان فالجان) سببياً لتصوير بؤسهم وتعاستهم وها هو ذا (فالجان) لم يكن يملك شرو نقيراً: فتعزفت نفسه أن يتسول ويمد يده إلى الناس، فتناول ومدها إلى رغيف أو بضعة أرغفة يسد بها رمقه ورمق من يعوله بعد أن تصوروا جوعاً، فما كان من الشرطة إلا أن تعقبته، وصار الحال مع الشرطة على هذا المنوال متعقبة إياه، جادة فى البحث عنه إلى أن عثرت عليه وقذفت به فى غيابة الجب، بعد أن تبدل حاله من الفقر المدقع إلى واسع الغنى. وأضحى محسناً كبيراً.. ولكن هيهات هيهات! فإن الجريمة تتبع الإنسان وتظل هكذا تتبعه كظله فى كل مكان وفى كل زمان، وها هو ذا رجل الشرطة (جافين) وضع القيد الحديد فى معصم (جان فالجان) الذى كان - وبعد اقراره لجريمة سرقة أرغفة العيش - قد فر هارباً وتذر بعباءة رجل آخر حتى يختفى عن الأنظار، واستبدل اسم (فالجان) بـ (مادلين)، وتعرف على شخصيته الحقيقية مع التنكر الذى كان يظهر به فيقبض عليه ويجره إلى ظلام السجن، وبعد عقود طويلة مرت على سقوطه فى بئر الجريمة. لسان حال هؤلاء التعساء هو ما عبر به «ابن دانيال» فى شعره متحدثاً بما جادت به قريحته:

أمسيت أفقر من يروح ويغتندى ما فى يدي من فاقتي إلا يدي
فى منزلى لم يبق غيرى قاعداً فإذا رقدت رقدت غير ممدد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة ومخدة كانت لأم المهتدى

وها هوذا - الشاعر الغد «معروف الرصافي» يرسم صورة ناطقة لإحدى
فتيات الشوارع فيقول:

لقيتها ليعتنى ما كنت ألقاها
تمشى وقد أثقل الإملاق ممشاها
أثوابها رثّة والرجل حافية
والدمع تذرفه فى الخدّ عيناها
بكت من الفقر فاحمرّت مدامعها
واصفرّ كالورس من جوع محياها
مات الذى كان يحميها ويسعدها
فالدهر من بعده بالفقر أشقاها
تمشى بأظمارها والبرد يلسعها
كأنه عقرب شالت زباناها
ما بالها وهى طول الليل باكية
والأم ساهرة تبكى لمبكاها

وان أنسى. لا أنسى أنني بينما كنت قافلاً من عملى القضائى ذات
يوم قريب، وقد بدأ الليل يرخى سدوله على وجه مدينة القاهرة. وفى
إحدى إشارات المرور توقفت وأبصرت عن كثب طفلاً صغيراً أشعثاً
أغبراً - من أطفال الشوارع - «ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله
لأبره»، لما يزل فى بواكير عمره، يشير بكلتا يديه إلى السيارات الواقفة
طالباً منهم الإحسان، لم يعره أحد اهتمامه، وبعد أن سمحت لنا إشارة
المرور بالتحرك: أدت محرك سيارتى، وإذا بالطفل وقد وصل إلى بابها

متشبهًا به ، طالبًا منى ما طلبه من الآخرين ، توقفت بالسيارة وترجلت احترامًا له ، بينما كانت أرتال السيارات تلاحقنى بأصواتها الزاعقة ؛ كى أجد الخطى بالتحرك ، لم آبه لها وسألته : ماذا تريد؟ أجابنى : أريد أن آكل لحمًا ، فلقد مات أبى وتزوجت أمى وتركتنى فى العراء ، أجبته إلى طلبته والدموع تتفرق فى عينى .

هكذا استبد الفقر بأطفال الشوارع .. فالفقر هو آفة الآفات والفقر - كما جاء فى (لسان العرب) - هو الذى نزع فترة من ظهره فانقطع صلبه من شدة فقره .

وإذا كان الفقر ظاهرة مركبة كما يذهب علماء النفس فهو يجمع بين أبعاده ما هو موضوعى (كالدخل والمهنة والوضع الطبقي) ، وما هو ذا : (كأسلوب الحياة ونمط الإنفاق والاستهلاك ودرجة الوعي والثقافة) .. كما أنه ليس هو الذى يعجز عن إشباع حاجة الفرد «البيولوجية» : كما يرى رجال الاقتصاد .. بل هو يعنى كذلك عجز البناء الاجتماعى للدولة عن توفير مستلزمات الفرد المادية والمعنوية . مما يدفع الإنسان إلى الحضيض ، وهكذا يندفع أطفال الشوارع .. إلى الشوارع؟! .

وقد ضرب الفقر - كما ألعنا - بأطنابه عليهم من فقر مادي إلى فقر أدبى ناهيك عن الفقر فى الشعور والفقر فى الإحساس وكذلك الفقر فى الضمير .

ولو يمتت الدولة نظرها إليهم ما بقى طفل واحد منهم فى الشارع الذى تلقفهم وفتح ذراعيه لهم ، ولو انتشلتهم الدولة من وهدتهم ما فقدت هذه الشريحة الهامة من شرائح المجتمع المدنى .

وهاكم حديث الأرقام : أولاً : أشار تقرير الهيئة العامة لحماية الطفل أن أعداد أطفال الشوارع فى تزايد مستمر؛ الأمر الذى يشكل خطرًا داهمًا

على المجتمع المصري؛ فقد وصل تعدادهم في عام ١٩٩٩م إلى حوالي ٢ مليون طفل مما يهدد الأمن القومي.

تفيد إحصائية الإدارة العامة للدفاع الاجتماعي إلى زيادة حجم الجناح المتصلة بجناح أطفال الشوارع، ففي السرقات (٦٥٪) والتشرد (١٦.٥٪) والتسول ١٣٪ والعنف ٥.٣٪ والجروح ٢.٩٪.

كما بين التقرير الصادر من (مركز الأرض) لحقوق الإنسان تعرض أطفال الشوارع للجرائم القسرية التلغ نسبة ٣٠٦٩ جريمة، وتم هناك عرض ٢٧٥ طفلاً ذكراً منهم ١٢٥ أنثى واغتصبت ٢٣٠ من فتيات الشوارع.. وتم استخدام الآخرين والأخريات في عمليات إجرامية:

(راجع الدكتور مدحت أبو النصر - مشكلة أطفال الشوارع في القاهرة والإسكندرية - مشكلة أطفال بلا مأوى - عام ٢٠٠٨م).

وقد أورد التقرير الذى ناقشه مجلس الشورى المصرى أن أطفال الشوارع الذكور ٨٨٪ والإناث ١٣٪ وتتراوح أعمار الفئة الأولى بين ١٣ و ١٩ عاماً والفئة الثانية بين ٣ سنوات وحتى ١٨ عاماً، وأن نحو ٥١٪ منهم طالت فترة تواجده فى الشوارع لأكثر من عامين، حتى أصيبوا بمختلف الأمراض، وأرجع رئيس لجنة القوى البشرية هذه الظاهرة إلى ارتفاع نسبة الأمية وزيادة الفقر ناهيك عن الجهل والتفكك الأسرى لانتشار العشوائيات والمخدرات والبطالة والتسرب من التعليم وغياب التكافل الاجتماعى والوازع الدينى:

وتحت عنوان الخلايا النائمة تبدأ مخطط حريق القاهرة الثانى «باستخدام أطفال الشوارع بعد تدريبهم فى أحد فنادق العاصمة» ذكرت مجلة أكتوبر» بتاريخ ٢٨ / ١٢ / ٢٠١٢: إن طيور الظلام قد اجتمعت على

هدف واحد: هو إسقاط الدولة المصرية، التى تقف حجر عثرة أمام طموحاتهم الإقليمية والدولية ببيت الفوضى وعدم الاستقرار فى قلوب المصريين الذين أبهروا العالم أجمع بثورتهم، بتجنيدهم لأطفال الشوارع لناهضة هذه الثورة. قد أضحى أطفال الشوارع آنذاك كوقود لإشعال الفتنة: بتحويلهم «إلى أداة للتخريب وتصفية الحسابات» لأن من جندهم يعلم علم اليقين أن القانون يحظر حبس الأحداث، وقد كان جل من قبض عليه فى تلك الأحداث هم أطفال الشوارع «جريدة أخبار اليوم المصرية» ٢٣/٩/٢٠١٢م العدد ٣٥٤٢.

وقد دلت إحصاءات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية إلى تصاعد الخط البياني للجريمة بالنسبة إلى أطفال الشوارع فقد ارتفعت نسبة جنح الأحداث من ٧١,١٪ سنة ١٩٧٠م إلى ٩٠,٦٪ سنة ١٩٧٩م.

* * *

وكيفية الإفادة من طاقة هاتيك الملايين المهترئة.. نرى:
أولاً: إنعام النظر وإمعان الفكر فى حقوق الأسرة التى هى قوام المجتمع.
فحقوق الأسرة تتميز عن غيرها بأنها حقوق غيرية أو وظيفية لحمتها وسداها تحقيق مصلحة الأسرة، وأى اهتمام لا يروم ذلك فتعتبر وصمة فى جبين الأمة؛ ومن ثم يجب الاهتمام بالأسرة فهى عماد الوطن من خلال ما ألم بها من تفكك، واعتورها من تشتت: إما بالطلاق.. أو الهجرة.. أو وفاة أحد الوالدين.

ومن ثم يجب على الدولة أن تحارب مشكلة الطلاق عمت وطمت: وأن تحذر الكافة من مغبتها، وسوء المصير الذى ينتظر الأبناء: فيخيم عليهم ليل طويل بطيء الكواكب.

ولله در أمير الشعراء فى قولته :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من هم الحياة وخلفاه ذليلاً
إن اليتيم هو الذى تلقى له أمًا تخلت أو أبًا مشغولاً

وذلك يكون عن طريق التلفاز.. أو منابر المساجد أو أنهار الصحف
وغيرها من الوسائل الناجحة التى تراها الدولة.

* * *

ثانياً: الاهتمام بالتعليم:

فالتعليم لا مندوحة عنه : فهو كالماء والهواء.. أبدة «طه حسين»
التى وقرت فى الأذهان منذ زمن بعيد، فالفقر المدقع وقف حائلاً دون
انتظام أولئك الأطفال إلى المدارس والمعاهد العلمية، مع أن الدستور قد
نص على «وجوب انخراط الأطفال وهم فى بواكير حياتهم فى سلك
التعليم الإلزامى وبالمجان كما أفصحت المادة العاشرة منه بقولها: تكفل
الدولة حماية الأمومة والطفولة وترعى النشء وتوفر لهم الأسباب لتنمية
ملكاتهم فلا يخفى على كل ذى عينين ما يؤديه التعليم فى تشكيل
عقلية الشباب، فهو كما يقول المفكر الإسلامى «محمد إقبال»: الحامض
الذى يذيب شخصية الكائن الحى ثم يكونها كما يشاء.. وهذا الحامض
هو أشد قوة وتأثيراً من أية مادة كيميائية؛ فهو الذى يستطيع أن يحول
جبلاً شامخاً إلى كومة تراب، ويقول «أرازموس» - أحد خبراء التعليم
فى الغرب - : «سلمنى إدارة التعليم ردحاً من الدهر أتعهد لك بأن
أقلب وجه العالم بأسره»: فلقد بات من المؤكد أن التعليم أكثر عمقاً
من تأثير البيت والأبوين؛ فهو بالنسبة لأية أمة قضية الوجود والعدم.

ومكانة العلم فى الإسلام مكانة سامقة غير مسبوقه، وهى بالنسبة لأطفال الشوارع الذين حرموا من نعمة التعليم قضية حياة أو موت.. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام - الآية: ٣٥] وقوله: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة البقرة - الآية: ٦٧] وقوله: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة هود - الآية: ٤٦]، وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

وقد تعدى عدد أطفال الشوارع المليون ونصف مليون وكأنهم دولة داخل الدولة وهم بالفعل كذلك؟!!

* * *

ثالثاً: بناء المساكن:

فطفل الشارع إما أن له مسكناً متواضعاً يقبع بين جدرانها، اكتظ بمن فيه وما يحويه فيهرب منه نتيجة هذا العامل الاجتماعى مع غيره من العوامل، وإما أنه لا مأوى له فيتخذ من الشارع - فوق الأفاريز، وتحت جدران الكبارى - ملاذاً له، ومن ثم؛ فعلى كاهل الدولة يقع عبء توفير المسكن المناسب له وبالشكل الذى تراه، فمشكلة الإيواء هى أم المشكلات وأس العضلات.

ومن الملاحظ أن أطفال الشوارع يتككبون فى المناطق العشوائية المنتشرة فى جميع أنحاء مصر، ولاسيما فى القاهرة والإسكندرية، وأن الأوان أن يعمل المسئولون على طمسها وإزالتها، ورفع هذه الوصمة من على وجه مصر، ويا حبذا لو أنهم جمعوا أطفال الشوارع من هاتيك المناطق العشوائية القميئة والعمل على تسكينهم فى مناطق جديدة تليق بوجه مصر الحضارى وباليات كان ذلك فى منطقة شبه جزيرة سيناء المقترحة إلى التعمير يعمل فيها هؤلاء الأطفال على تنميتها وتعميرها.

ولقد فطن العالم المتحضر إلى أهمية الطفل . إلى الحد الذى حدا بالجمعية العامة للأمم المتحدة عندما أعلنت حقوق الطفل فى العشرين من ديسمبر ١٩٥٩م إلى النص على :

«إن البشرية مدينة للطفل بأفضل ما لديها».

عندما تم إعلان حقوق الطفل ١٩٦٤م . فقد ورد فيه : «حق الطفل فى الرعاية الكاملة ، والرعاية بالطفل تبدأ قبل أن يولد».

وعندما قررت الأمم المتحدة أن تجعل من عام ١٩٧٩م عامًا دوليًا للطفل قال «هنرى لابواس» المدير التنفيذى لمنظمة الطفولة الدولية : «إن فكرة عام الطفل لو أنها أفلحت فى تحريك المشروعات والخطط التى رسمت لتحسين حال الجيل الجديد - إنها ستكون قد حققت أهدافها إذا انتشر الوعى بأن مشكلات الطفل ليست خطيرة وملحة فحسب ، بل إنه من الضرورى أن نكرس خلاصة أفكارنا وكل جهدنا لتتوفر على حلها حلًا شاملًا ، والدولة المحظوظة هى التى ستملك فعلاً : الإرادة الجادة ، والعمل الجاد . لحل كل مشكلات الطفل فيها . ليتنا نشرح للكبار المبادئ العشر لإعلان العالم لحقوق الطفل ؛ فإن رعاية الطفل تبدأ بالكبار وتنتهى بالكبار أيضًا ؛ تبدأ بالكبار باتجاه الرعاية إلى أمه قبل أن يولد : الرعاية الصحية . والرعاية الثقافية أيضًا ، وتنتهى بالكبار أى بترشيد دور المربين من آباء ومدرسين وكتاب وإعلاميين : فليس كل شىء بصالح للتقديم للطفل .

رابعًا: دور التأهيل المهنى:

من اللازم الدفع بأطفال الشوارع نحو التأهيل المهنى ؛ لتقويم

اتجاهاتهم وتصحيح مسار سلوكهم وعلاج المعوج منهم . وقد يكون من المأمول أن يكون من بينهم المبدعين ، فلا عائق يعوق المرء من الانخراط في الحياة السوية إلا غياب التعليم ، وقد سار على هذا النهج بعض الدول الإسلامية مثل أندونيسيا ؛ إذ جمعت شعث أطفال الشوارع من أرجاء البلاد وألحقتهم بمدارس إسلامية داخلية معروفة محلياً باسم (بيسانترن).

* * *

خامساً: رسالة القوات المسلحة:

أدت القوات المسلحة المصرية رسالتها على خير وجه في ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م وذلك بالحفاظ على سلامة الوطن وسلامة أراضيه . ويمكنها أن تؤدي دورها من خلال إمكاناتها المتنوعة ، وهو دور جد هام في إصلاح هؤلاء الأطفال ، وذلك بجمعهم وتعليمهم مختلف أنواع الحرف حتى يشبوا وهم على بينة من إشارات المستقبل الذي يود كل منهم أن يسير فيه ، فمن ليس له حاضر فلن يكون له مستقبل: فعندما سأل سائل الفيلسوف «إيمرسون» لماذا نتحدث كثيراً عن المستقبل؟ فأجابهم: «لأننى سوف أقضى بقية حياتى فيه» ، ومن ثم فيجب إلحاق أطفال الشوارع بمعسكرات خاصة تقام لهم من قبل جيش بلادهم؛ يتعلمون فيها فنون العمل المختلفة التي تؤهلهم فى الانخراط فى سلك الحياة القويمه المستقيمة ليشبوا رجالاً نافعين بعد تخرجهم؛ فهذه المعسكرات هى التى يطلق عليها فى بعض البلاد مصانع الرجال.

* * *

سادساً: العلاج النفسى (Psychotherapy):

وهو من أنجح الوسائل لتقويم أطفال الشوارع نفسياً، وهو الطريقة المثلى التى يلجأ إليها الأطباء النفسانيون لعلاج الانحطاط العقلى والمرضى النفسى الذى كثيراً ما يعتور أطفال الشوارع، فلا ننسى أن طفل الشارع قد ترعرع فى بناء اجتماعى خاص به فخضع للمؤثرات الاجتماعية التى أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم، بعيداً تعاماً عن الطرائق الخاصة بالسلوكيات البيئية السليمة.

فطفل الشوارع يعيش وهو يكظم غيظه ويصبر نفسه على مكروهاها، ويصبر أهله على البأساء والضراء، وينظر العدل - كما عبر عميد الأدب العربى: «كما أنه يرى اليأس يصحبه إذا سعى فى الأرض وإذا راح إلى داره هو ومن يسكن معه فى تلك الدار، هذا إذا أتيح له ولأسرته دار يأوون إليها، ويصحب هذا اليأس العلل والذل والهوان والكد الذى يضىنى ولا يفنى والذى يسوء وينوء».

* * *

سابعاً: إنشاء دور خاصة بهم لتلقى شكاواهم:

ينهض عليها أساتذة متخصصون - ولا بأس أن يكون من بينهم بعض رجال القانون - لتلقى هاتيك الشكاوى إذا ما ظلموا - وهم بالفعل كثيراً ما يظلمون فيتعرض الواحد منهم للإيذاء من بعض رجال الضبط أو غيرهم من ذوى القلوب الفظة - وذلك لتلقى ما يعرض عليهم من شكائياتهم والعمل الجدى على حلها، وكذلك من هؤلاء الذين يجندونهم للأعمال غير المشروعة، مثل اقتراف الجريمة وما يتفرع منها من أنشطة مجرمة

بقانون العقوبات، مثل السرقة أو تسهيل بيع المواد المخدرة وما شابه ذلك.. كما حدث إبان ثورة يناير ٢٠١١م من تكاتف هؤلاء الأطفال مع السوق والدعوات الذين أوقدوا النيران في المجمع العلمي المصري وغيره من المنشآت الوطنية، فما كان من الشرطة إلا أن طبقت على البعض منهم زرافات ووحدا، وقد أكدت ذلك منظمة «هيومان رايتس ووتش» المعنية بالدفاع عن حقوق الإنسان في العالم في تقرير صدر منها منذ سنوات قلائل ذكرت فيه أن الحكومة المصرية تجرى حملات قبض جماعية على أطفال مازالوا في بواكير حياتهم كل جريمتهم أنهم بحاجة إلى الرعاية والحماية؛ فيستشعر هؤلاء الأطفال الإهانة والازدراء من المجتمع.. مع أنهم في حاجة إلى المساعدة وحسن الثواب وليس العقاب.. وقد أورد هذا التقرير في صلبه أن حوالي ٢٠٠٠ طفل قد تعرضوا لمثل هذا.

* * *

ثامناً: الرعاية الصحية:

وجوب إشراف زمرة من الأطباء المتخصصين للعناية بهم في دورهم وأماكن تجمعهم، وقد دلت الإحصاءات الرسمية على إصابة الكثير منهم بالأمراض المختلفة، حيث أفاد تقرير صادر من مكتب الأمم المتحدة المعنى بالجريمة والمخدرات وكذلك برنامج الغذاء العالمي أن حوالي: ٦٦٪ ممن شملهم الاستطلاع من أولاد الشوارع يتناولون - وبصفة دائمة - عقاقير خطيرة؛ الأمر الذي أصابه بمرض الرئة الانسدادي المزمن (Chronic pulmonary Disease, copo)، والذي يحول دون تدفق الهواء إلى الرئتين، ناهيك عن الجرب والتيفود والملاريا والأنيميا جراء عدم توافر الغذاء الصحي لهم.

ولا تحسبن أن هذه مسألة عارضة ، فكثيراً ما فتكت الأمراض بالجيوش الجرارة.. وقد حدثنا التاريخ أن جيشاً عرماً اضطر قائده أن يقفل عائداً إلى بلاده كسير الرأس بعد أن سقط منه حوالى نصف مليون جندى نتيجة إصابتهم بالأمراض.

كما أن نقص التغذية كان سبباً - فى إصابة الجيوش الصليبية التى زحفت صوب الأراضى المقدسة وكانت تضم سبعة آلاف من الفرسان مات منهم خمسة آلاف بسبب إصابتهم بمرض «الأسقربوط» لنقص الغذاء؟! وهامى ذى جريدة «الوفد المصرية» تشير - العدد ٧٩٩٥ - تحت عنوان «فقراء وأجرهم على الله» «أن بعض الآباء يبيعون أولادهم.. وينتحررون بسبب الحرمان بسبب أن الصحة فى الإنعاش» كما أشار هذا التحقيق إلى أن مليوناً ونصف المليون من صغار السن الذين يتبعون قطاع الطفولة والأمومة بنسبة تجاوزت ٥٠٪ من التعداد السكانى يعملون فى السخرة نظراً لغياب التعليم أو تسربهم منه ؛ مما يعرضهم لأسوأ أشكال العمل . بالإضافة إلى تعرضهم للعنف البدنى والجنسى والنفسى داخل المدرسة والمنزل والشارع ولم يتعد أحدهم سن العاشرة، وبلغ عددهم مليون طفل ٢١٪ منهم إناث مقابل ٧٩٪ منهم ذكوراً؛ مما يستوجب مناهضة هذه الظاهرة - ظاهرة أطفال الشوارع - وقد طالب بذلك المجلس القومى للطفولة والأمومة.

ولقد نشرت جريدة «الأهرام المصرية» فى الصفحة الأولى منها أن «٤٢٪ من المصريين محرومون من الخدمات الأساسية» العدد ٤٥٩٥٩ بتاريخ ٥ / ١٠ / ٢٠١٢ م - فما بالك بأطفال الشوارع الذين حرموا من كل شىء.

كما نشرت ذات الجريدة بتاريخ ٢٠ نوفمبر ٢٠١٢م فى صفحتها الأولى عن بيان لجهاز الإحصاء أن ٤٣ ٪ من الأطفال يعملون فى ظروف قاسية وأردفت قائلة :

«بمناسبة اليوم العالمى لحقوق الطفل أكد فيه أن إجمالى عدد الأطفال المصريين أقل من ١٨ عاما يبلغ نحو ٢٩.٤ مليون طفل - منهم ١٥ مليوناً من الذكور و ١٤,٤ مليون طفلة من الإناث، وأن إجمالى عدد الأطفال العاملين ١,٦ مليون طفل بنسبة ٩,٣٪ من إجمالى أطفال الجمهورية. كما أشار البيان إلى أن ٤٣٪ من الأطفال العاملين يتعرضون للآتربة والأدخنة حيث ظروف العمل السيئة. وأوضح رئيس جهاز الإحصاء أن ٢١٪ من إجمالى الأطفال العاملين يتعرضون لإصابات سطحية وجروح مفتوحة، و ٥٧٪ يتعرضون لإصابات عمل متنوعة أخرى، وأضاف أن نسبة الأطفال الفقراء أقل من ١٨ سنة فى مصر تبلغ ٢٦,٤٪ من إجمالى أطفال الجمهورية منهم ١١,٨٪ محرومون من الغذاء و ٤,٩٪ محرومون من التعليم. كما أكد أن معدل الالتحاق بالتعليم للأطفال العاملين يبلغ ٦٥,٦٪ مقابل ٨٨,٦٪ للأطفال غير العاملين، كما أكد أن ٦٤٪ من الأطفال العاملين يعملون بالنشاط الزراعى ونسبة الأطفال العاملين فى النشاط الصناعى حوالى ١٨٪ وفى النشاط الخدمى ١٨٪، ومن ناحية أخرى أكد بيان جهاز الإحصاء انخفاض معدل وفيات الأطفال بنسبة ١,٧٪» :

* * *

تاسعاً: العطف والاحتواء بالحنان:

صرح سفير النوايا الحسنة لشبكة الأخبار العالمية - فيما ارتآه من

حل لقضية أطفال الشوارع - بأن هؤلاء الأطفال يفتقدون «الحب» الذى هو مفتاح علاجهم، سواء أكان ذلك فى البيت أم فى الشارع.

وهذا الذى ذهب إليه هو محجة الصواب. تقول القديسة «تريزا»: «لو كان الشيطان يحب ما كان شريراً».. وكان القديس «فنان دى بول Vincencet de Paul» الذى ضربت شهرته الآفاق فى الإحسان - يعالج المرضى من الأطفال بالعطف عليهم وبذل الحنان لهم؛ حتى إنه قد قيل عنه: إنه من العبت أن نبحت عن مكان للبغض فى قلب هذا القديس. إذن، لو قامت الدولة بتأهيل أطفال الشوارع وعلمتهم معنى الحب لأحبوا جميع الناس. ولعرفوا عن طريقه معنى (الله). ولننظر إلى ما قاله الشاعر «إيليا أبو ماضي»:

خوفونى من جهنم ولظاها أى شىء جهنم ولظاها؟
أنا بالحب قد وصلت إلى نفسى وبالحب قد عرفت الله

عاشراً: تخصيص يوم لأطفال الشوارع:

فأطفال الشوارع هم مسئولية الوطن. وهذا ما دفع جمعية التضامن معهم إلى تحديد يوم ٢٨ فبراير من كل عام للتضامن مع أطفال الشوارع تحت عنوان «أطفال الشوارع - مسئولية مجتمع» فليكن هذا اليوم يوماً قومياً لتضامن الأمة عن بكرة أبيها للاحتفال بيوم هؤلاء الأطفال، وليقدم كل ما يستطيع أن يقدمه لهم، من عطاءات الخير، حتى يعلمون أن وطنهم لا يغض الطرف عنهم، ولا يألو سيلاً لمد يد العون إليهم.

من وصايا السيد المسيح عليه السلام: اسألوا تعطوا: اطلبوا تجدوا: واقرعوا يفتح لكم.. فمن منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً، ومن منكم يسأله سمكة فيعطيه حية. أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً؟!:

الحادى عشر: التربية الدينية:

فمن خلال «المنظور الدينى»: يتعلم أطفال الشوارع ديمومة المعلومة الدينية فى الذاكرة، يسترجعونها للاستفادة منها مستقبلاً. فالثقافة الدينية هى خير ثقافة ينهل منها أطفال الشوارع مناهل العلم. وصدق حجة الإسلام «الغزالي» حين قال: «إن الطفل جوهره نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما ينقش عليه». والعلم هو وحده الذى يجب أن ينقش عليه فلا حياة بدون العلم. يقول أحد الحكماء فى هذا الخصوص: «تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم وإن كنتم وسطاً سدتم. وإن كنت سوقة عشتم»، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالقراءة. ولعل من المفيد أن نذكر فى هذا الصدد أن أحد الأدباء قد صور عملاق الفكر المصرى الأستاذ عباس محمود العقاد - بعد أن سعدت روحه إلى بارئها - وهو داخل الجنة: فطفق يبحث بين أرجائها عن كتاب يقرأه، حتى إذا لم يعثر على ضالته خرج من الجنة مغضباً وهو يقول: ما فائدة الجنة إذا لم يكن فيها كتاب يُقرأ». ودور الإعلام هنا لا يقل عن دور المؤسسات التربوية. بل يقع عليه ما يسمى (بالتربية المستديمة أو المستمرة) التى وصفتها اللجنة الدولية لتعليم الكبار باليونسكو عام ١٩٦٥م بأنها: (تلك النظرة إلى عملية التربية ككل باعتبارها مستديمة طوال حياة الفرد - منذ نعومة أظفاره إلى أن يضحى فى عالم الرجال).

يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم [فى سورة الزمر: الآية ٩]:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

فلا أفصح من الدين فى معناه.. ولا أبين من فحواه.

الثانى عشر: استخراج شهادات ميلاد لهم:

وأخيراً - وليس آخرًا - يجب العمل حثيثاً على استخراج شهادات ميلاد لمن لا شهادة ميلاد له من أولاد الشوارع وإجراء تحليل الـ DNA لأن الكثير منهم لا شهادات تنطق بميلادهم لإنكار الأب أبوته لهم، أو لعدم قيام أحد من آبائهم أو أمهاتهم باستخراج شهادات ميلاد لهم مما يعرضهم للضياع؛ حيث إن البطاقة الشخصية هى المثبتة لهوية الإنسان مهما كان، ولا غنى عنها البتة.

والذى لا مرأى فيه - أن التنشئة الاجتماعية تقوم بوظيفة إنتاج شعور بهوية الفرد وهوية الجماعة، ناهيك عن تخليق بنية دافعة داخل الفرد وظيفتها قبول الفرد داخل المجتمع الذى يجب أن ينصهر فيه.. فالذى لا شك فيه - أيضاً - أن هؤلاء الأطفال الذين غلبوا على أمرهم وشاء القدر أن يشبوا عن الطوق وهم فى منأى عن هويتهم سواء الخاصة أو العامة مما يعرضهم لمرض الاغتراب «Homesickness Alienation»: وهى مشكلة فجرها سنة ١٩٥٦م كتاب «كولن ويلسون Colin Wilson».. اللامنتمى «The outsider» فالأمرى غريب فى وطنه.. والفقير المطحون غريب فى وطنه لأن الفقر فى المال فقر فى كل شىء، كما عبر الأديب الكبير الأستاذ «إبراهيم عبد القادر المازنى».

وبهذا الاغتراب كأن حكماً مرتباً ومتعجلاً Hasty Judgment قد صدر فى حق هؤلاء الأطفال - باغترابهم وشعورهم بالغربة عن وطنهم - مما دفعهم إلى الانحراف عن معيار «العلاقات الإنسانية الرفيعة» مما جعلهم يتأرجحون بين اللامبالاة Indifference - من خلال رفضهم لمجتمعهم - : إلى العداوة النشطة Active Hostility :

فقد أضحي طفل الشارع متوحداً مع قرنائه من أطفال: فأصبح متوحداً بالجماعة Group Identification ويقرر الدكتور معتز سيد عبد الله فى كتابه القيم «الاتجاهات التعصبية» أن هذا التوحد إنما يعود إلى توفر مكونين أساسيين: الأول معرفى: ويقصد به الوعى Awareness والثانى تقويى: ويقصد به ارتباط هذا الوعى ببعض التوجهات القيمية Value Connotation، والثالث يتكون من خلال التوظيف الانفعالى Emotional Investment لكل من الوعى «المكون الأول» والتقويم المكون الثانى.

من أين يأتى الوعى إذن «لهؤلاء الأطفال»؟ وكيف يتأتى أن تصلهم التوجهات القيمية وهم فى حداثة سنهم وانعدام تعليمهم؟! من ثم فقيام الدولة باستخراج البطاقات الشخصية لأطفال الشوارع ينقذهم تماماً من تشتت الهوية «Identity diffusion».

* * *

وأخيراً - وليس آخراً - فالذى لا مشاحة فيه - أن ظاهرة أولاد الشوارع ظاهرة عالمية نبتت وأينعت فى جل دول العالم: منها إنجلترا وأمريكا اللاتينية وإيرلندا والسودان واليمن وزمبابوى وموريتانيا، بل فى أكبر دول العالم.. الولايات المتحدة الأمريكية. فهى تعبر قارات أفريقيا وآسيا وأوروبا والأمريكتين: كما ذكر «اتحاد جمعيات أطفال الشوارع Consortium for street children» - فى إحصائيته عن أطفال الشوارع. Street Children Statistic.. بيد أنها فى مصر قد نما شرها وذكا عودها فأصبحت ظاهرتهم - بشراً سوياً.

ومن العجب العجاب أنه - ولذراية المجتمعات المختلفة بهم - فقد أطلقت عليهم المسميات المتدنية؛ حتى تفصلهم هاتيك المجتمعات عن

الانتماء إليهم: فهم في اليمن «الأخدام» وهم في موريتانيا «الأمودات» وهم في السودان «الشماسة» وهم في مصر «المعذبون في الأرض.. البؤساء».

يسجل لنا التاريخ من خلال هذه «الظاهرة العالمية» - كما أسلفنا القول - أن فرنسا قد عانت منها بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، فقد أضحى يعيش على أديمها الملايين الذين ولدوا سفاحًا وأثقلوا كاهل الدولة التي أطلقت عليهم اسم (جندرما) تمييزاً لهم عن بقية مواطنيها.. أما فنزويلا فكانت الدولة - هناك - تطلق الرصاص عليهم.

فهل نريد - نحن كذلك - أن نطلق الرصاص على أولاد الشوارع في مصر؟!

لقد أخنى الزمن على أطفال شوارع مصر بعد أن لاقوا من صنوف العذاب ألواناً وعركوا الأيام وعركتهم وخاضوا غمارها فغمرتهم فأصبح كل لسان منهم يجأر حزيناً: هل رأيت الدمع من عيني جرى؟ هل رأيت القلب موصول الأنين؟.. يتضرعون إلى مولاهم بعد أن غرقوا إلى الأذقان في بحر من الأحزان فتضرمت قلوبهم كلها ناراً تتلظى..

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [سورة النساء - الآية: ٧٥]

صدق الله العظيم.



مشكلة العشوائيات.. واقع الملايين المر...!؟

قد مات ناس.. وهم فى القوم أحياء!.

مقولة فاه بها حكيم تمثل تمامًا أصحاب العشوائيات، فقد أمسوا

جميعًا وهم الأحياء الميتون!

وهذه العشوائيات لم تكن مصر تعرفها فى غابر الزمان.. أو بالأحرى فى عقودها قيل الأخيرة فلم تكن إلا مدينة من أجمل وأنظف بلاد الدنيا كان عدد سكانها لا يزيد عن عشرة ملايين نسمة.. ومع الزيادة المضطردة فى عدد سكانها.. مع قلة المساكن أو ندرتها وارتفاع ثمنها سواء أكان بالتأجير أو بالتملك انتشرت العشوائيات وانتشرت فى ربوع الوطن المصرى برمته.

والذى لا شك فيه أن المجتمع المصرى قد قسا على قاطنى العشوائيات قسوة جد بالغة.. والقسوة بنت الجفوة، ومن ثم انعزل قاطنى العشوائيات وقد تفوقوا داخل مجتمع خاص بهم أمسى فى بشاعته وترديه إلى أسفل سافلين أشبه بما أسماه الكاتب الأمريكى «باكارد» فى كتابه «The naked pelican».. المجتمع العارى، واعتنق أهل العشوائيات مقولة الكاتب «أندريه مالرو»:

«بدأت أفقد إيمانى فى أنه يوجد ما يسمى بالنهضة».

والذى لا لجاج فيه أن العشوائيات أضحت كالزلازل الذى هو وليد الاختلال فالخلل الذى ضرب المناطق العشوائية يمثل ذلك الزلزال الذى يضرب بقسوة قشرة الكرة الأرضية جارفًا كل شيء أمامه؛ مما يشكل

خطرًا ماحقًا وآثارًا مدمرة؛ فهاهى ذى البؤر الإجرامية تولد وتنمو فى هذه العشوائيات بما تحمله فى طياتها من فساد وإفساد عم وطم على مصر المحروسة نفسها وأمسست تتهدد الأمن العام بخطر داهم وواضح وقائم «Clear and present danger».

* * *

فلقد ضاق سكان العشوائيات بحياتهم ذرعًا عيونهم دموع وقلوبهم ولوع، وبدا شبابها للعيان كشباب عذاب.. رهينة اغتراب مما ألقى على كواهل الدولة أن تجلو شجون هؤلاء المطحونين فى مناطق ما أنزل الله بها من سلطان.

فى الصورة التى صدرت مجلة أكتوبر الغراء بها غلافها حول العشوائيات بتاريخ ١٤/١٠/٢٠١٢م ما يكفى الباحث مؤنة البحث فى هذا الموضوع؛ ففى هذه الصورة الناطقة تظهر سيدة بلغت من العمر أزدله تقبع بين عشش متهالكة شرب عليها الدهر وأكل وهى رافعة كفيها إلى السماء وكأنها تستمطر اللعنات على من أوصلها إلى هذا الحال، ولسانها يكاد ينطق قائلاً: «أنقذنى يارب البلاد.. ويا خالق العباد.. مما أنا فيه، ومما أعانيه»!

* * *

وفى الصفحة الخامسة والخمسين من مجلتنا الغراء نقتطف هذه الإحصاءات التى ذكرها محرروها - بجهد يحسب لهم - «تمثل المناطق العشوائية خطراً كبيراً على مستقبل مصر؛ إذ إنها تعد بيئة خصبة للإجرام والانحراف بكافة أشكاله.. وقد عانى سكان هذه المناطق من

إهمال الحكومات المتعاقبة مما أدى إلى وصول عدد المناطق العشوائية في مصر إلى ١٢٢١ منطقة في ٢٤ محافظة، ويقطن بهذه العشوائيات نحو ١٥ مليون نسمة، وتمثل نسبة ١٨٪ من سكان مصر، و ٤٠٪ من سكان المناطق الحضرية، وتفاقت المشكلة على نحو غير مسبوق فبلغت نحو ٧٧٪ في بني مزار بالمنيا، و ٢٥٪ في محافظة أسيوط، و ٣٦٢ منطقة بالدلتا».

* * *

وإذا كانت هذه العشوائيات - طبقاً لما قال به المؤرخون - قد نجمت مع بداية قيام الثورة الصناعية في أوروبا فقد نمت في مصر منذ عقود طويلة فشاها بها وجه مصر.. شوهها قبح هذه العشوائيات التي تراكمت عليها كما تتراكم الثلوج على الأرض في فصل الشتاء القارس البرودة. فقد تقاعست الحكومات المختلفة عن إزالتها بعد أن فشلت في تدبير المساكن لقاطنيها؛ مما دفع بالعديد من البشر للسكنى فيها بعد أن شذوا الرحال إليها، إذ عجزت تلك الحكومات عن تدبير المساكن الصالحة لإيوائهم فأضحت بيوتهم تبنى بدون ترخيص، وأمست أراضيها تقرى الكافة بالهجرة إليها والقبوع فيها؛ فنمت بها البؤر الإجرامية مما جعلها تضحي زلزالاً يتهدد الوطن برمته.

وإذا كان الزلزال ينشأ من الاختلال، فقد تحولت هذه العشوائيات إلى مراكز اجتماعية قلقة وبراكين مدمرة تقذف بحممها على المجتمع المصري برمته بين الحين والحين.

الأدهى والأمر أن قاطنى هذه العشوائيات استوطنوا هذه المناطق الخربة، وتحولت بالتالى (إلى مفرخ خطير) لكل أنواع الموبقات.

بلغ تعداد هذه العشوائيات فى القاهرة وحدها إحدى عشر ومائة منطقة عشوائية من بينها ٢٤ منطقة غير آمنة تمثل خطورة على حياة القاطنين بها، وذات العدد يوجد بالإسكندرية - وهلم جرا - فى القليوبية.. بل وفى جميع أرجاء محافظات مصر المحروسة.

إذ بلغ عدد سكانها - وعلى الوجه المبين بتحقيق مجلة "أكتوبر" الغراء - ١٥ مليون نسمة بنسبة تمثل ١٨٪، و ٤٠٪ من سكان المناطق الحضرية، وتفاقت المشكلة على نحو غير مسبوق فى العالم كله، فبلغت نحو ٧٧٪ فى بنى مزار بالمنيا، و ٢٥٪ فى محافظة أسيوط، ٣٦٢ بمنطقة الدلتا.

* * *

ونجم ذلك بسبب زيادة معدلات الهجرة من المدينة ومن ريف مصر إلى تلك المناطق العشوائية، فقد كانت هذه الهجرة الداخلية من مدن مصر وقراها إلى هاتيك المناطق سبباً فى تراكم هذه العشوائيات التى أمسى مستوى الإسكان فيها دون المستوى الآدمى وهو الخطر الحقيقى.

* * *

وتكمن مشكلة هذه المناطق العشوائية فى تلك التى غاب عنها الأمن وتغيب الأمان مثل الدويقة وعزبة الهجانة فى القاهرة التى يحيط بها حزام من المناطق العشوائية يبلغ عددها ٨٠ منطقة يسكن فيها - كما ذكرت مجلة أكتوبر - حوالى ٣,١٢ مليون نسمة مما يربو على خمس عدد سكان عشوائيات مصر، فالقاهرة الكبرى وحدها تستحوذ على ٥٣,٢٪ من سكان العشوائيات ويمثلون ٣,٨٨٪ من عدد السكان. هذا إلى غيرها من العشوائيات المنتشرة فى شمال القاهرة الكبرى مثل شبرا الخيمة

وعين شمس ودار السلام والبساتين وحلوان ومنتشأة ناصر والفسطاط
واسطبل عنتر وحكر أبو دومة.

* * *

وقد تضاعفت مساحة العشوائيات بالقاهرة الكبرى ١٨ مرة منذ عام
١٩٥٠م من ٦.٦ كم إلى ١٩.٥ كم عام ٢٠٠٦م.

* * *

وتجىء مدينة الثغر - الإسكندرية - التي تحولت إلى حال مزر من
الفوضى، بتراكم العشوائيات.. هذه المدينة التي كانت الأنظار تنظر
إليها بعين الرضا والإعجاب.. وهاهوذا «إدوارد لين» الرحالة الإنجليزي
الذي أبحر إليها. منذ ما يزيد على قرن من الزمان، يتحدث عنها فيما
دونه من مذكرات، ذاكراً إياها «بأنها المدينة التي تجمع بين الجمال،
والإجلال» فهي - ولاشك - كانت ذات زمن بعيد قريب «عروس البحر
الأبيض المتوسط»، وكذلك ذكر غيره من الرحالة الذين شدوا رحالهم إلى
هذه المدينة التاريخية ذات الجمال الرائق الفائق.

* * *

فتنطق الإحصاءات الرسمية أنها تضم ٣٤ منطقة عشوائية. والواقع
يقول إنها تزيد على الخمسين منطقة، تنتشر في طول المدينة وعرضها،
من شرق الإسكندرية وحتى غربها وأشهر عشوائياتها (الطوبجية وشارع
الرحمة وكوم الملح ونجع العرب وعزب خورشيد والمساكن الصينية، وعزبة
العرب. وعزبة محسن والدخيلة... الجبلية وغيرها. والإسكندرية نموذج
صارخ للمدن التي تنقسم إلى شمال وجنوب، شمال غنى وراقٍ ومتطور،

وجنوب فقير ومتدهور فى كل شىء، ينطق بالفقر والجهل والمرض. هذا الثالث المدمر الذى كان سبباً رئيساً فى تخلف مصر بأكملها. وأضيف إلى هذا الثلاثى الشهير اعتراف البلطجة والعنف واقتراف الجريمة فى هذه المناطق العشوائية التى لا تمت بأدنى صلة إلى الآدمية. ناهيك عن أنها تحولت بموضعها الحالى إلى بؤر تفريخ، كل ما لا يعنى إلى الإنسانية بصلة.

* * *

ولقد جال محررو أكتوبر وصالوا، بين أرجاء العشوائيات الضاربة الأطناب على هذه المدينة التاريخية.

أين جالوا؟.. وأين صالوا؟.. بين الثعابين السامة.. والفئران الناقلة لمرض الطاعون ذلك المرض الذى كاد أن يفتك بشعب مصر ذات يوم.. ناهيك عن الحيوانات الضالة والحشرات التى تنهش فى أجساد سكان هذه العشوائيات التى يقيم فيها أهالى الغلبونى وكوم الملح، وذلك بالرغم من أثرية هذه المنطقة التى تحوى بين جنباتها (الجبانة الجماعية).. الأقدم من نوعها فى العالم إذ يمتد عمرها إلى ما قبل الجبانة الجماعية فى إيطاليا.. فلا مياه صالحة للشرب.. ولا وجود للصرف الصحى.. ولا شوارع مرصوفة ومع ذلك يلهو فيها الأطفال؟!.. أين يلهون؟! بين تلال القمامة. وبماذا يتلهون؟! يتلهون باللعب بعظام الحيوانات النافقة؟! وأضف إلى هاتين المنطقتين منطقة حى غرب الإسكندرية التى تنحصر بين خط السكة الحديد فى الشمال وبحيرة مريوط فى الجنوب، بيوتها خليط بين البيوت والعشش. المدرسة الوحيدة الموجودة بها هى غارقة طوال الوقت فى مياه الصرف الصحى والمياه الجوفية.

* * *

أما منطقة ظلمبات المكس والتي يطلق عليها فينيسيا المكس.. فيغشى عليها من العرق مما يشكل خطرًا على أهلها، وحدا ذلك سكانها إلى أن يلتمسوا نقلهم إلى منطقة أخرى.

أما الدخيلة الجبلية فتحولت إلى محاجر، ثم بدأ الزحف السكاني إليها - بشكل عشوائي - من المهاجرين من المحافظات الريفية. ومن المؤلف أن ترى العين الطابق الأرضي بها يوازي الطابق الثالث في منزل مقابل لهم.. وكذلك الأمر في منطقة المحاجر والمساكن الصينية التي تمتد من منطقة الهانوفيل بالعجمى إلى الكيلو ٢٦ بالساحل الشمالى ويطلق عليها الأهلون دويقة الإسكندرية وخاصة منطقة المساكن الصينية، والتي بنيت أعلى الهضبة الموجودة بها مما يهدد بانهارها، وينسحب هذا على مناطق فرعية هي خورشيد البحرية، وعزبة النخل، وزغلول، وعزبة الرحمة، وعزبة الخليفة، والزوايدة.

* * *

ولقد شهد شاهد من أهلها - أهل الثغر - أن بعض هذه المناطق تحتوى على حالات مأساوية بكل المقاييس فقد رأى - بأمر عينه - أسرة من ثمانية أفراد تعيش فى حجرة واحدة وبدون دورة مياه، كما رأى - فى إحدى العزب الملاصقة لمنطقة سموحة الراقية - الناس تقف فى طابور للدخول إلى دورة مياه عمومية، وعشوائيات ليس بها حتى صنوبر مياه عمومي للشرب. كما أبصر أشخاصًا ينامون فوق بلاعات الصرف الصحى.

* * *

وتأتى القليوبية - ثالثة الأثافي: إذ يوجد بها ٦٣ منطقة عشوائية

موزعة على جميع مدن المحافظة، وحاولت الحكومة تحسين بعض المناطق منذ عام ١٩٩٤م إلا إنها لم تتحسن؟!

* * *

إن المناطق العشوائية قبله موقوتة؛ فقاطني هذه المناطق يشعرون بالغبن والظلم سواء من الناحية الاجتماعية أو الثقافية أو الاقتصادية، لذا يجب أن تكون مشكلة العشوائيات هي الأولوية الأولى؛ لأن وجود مواطنين يعيشون في مناطق المقابر هو وصمة عار لكل مصرى ينغار على وطنه، ومن ثم يجب أن يتم التنسيق بين الدولة والمجتمع المدني لحل المشكلة؛ لأننا نعيش على سدس مساحة مصر ولا نستغل المساحات الشاسعة لحل مشكلة العشوائيات وبناء مجتمعات عمرانية جديدة تكون بمثابة نقطة تحول في هذه الأزمة السرطانية التي استفحلت حتى بلغت الذرا.

* * *

وقد أكدت دراسة المركز المصرى لحقوق السكن أن هناك حاجة لتوفير ٥ ملايين وحدة سكنية لاستيعاب الزيادة السكانية المتوقعة في مصر حتى عام ٢٠٢٠م، وتقدر التكلفة الإجمالية لهذه الوحدات بحوالى ١٧ مليار جنيه، وأشارت الدراسة إلى أن الدولة غير قادرة على تحقيق هذا؛ مما يؤدي إلى زيادة انتشار سكن العشوائيات، وهى السبيل الوحيد أمام محدودى الدخل.

* * *

ونرى - مع من يرى - أن هذه المشكلة (مشكلة العشوائيات) التى تفاقم خطرها حتى أمسى خطرًا داهمًا لا حل لها إلا بما هو آت:

● وجوب تضافر الجهود للقضاء على مشاكل العشوائيات من خلال مشاركة مؤسسات المجتمع المدني، وخاصة الشباب لتحديد جداول زمنية للمخطط الشامل لتطوير القاهرة على المدى البعيد.

ويرى الثقات أنه يجب التعامل مع هذه المشكلة عبر محاور أربعة:

● **المحور الأول:** هو التعامل مع مناطق الخطورة الداهمة التي تهدد حياة المواطنين من خلال التنسيق مع وزارة الإسكان لتوفير مساكن جديدة، وتقوم المحافظة بإعادة تسكين المواطنين في وحدات سكنية كاملة المرافق والخدمات.

● **والمحور الثاني:** فهو التعامل مع العشوائيات شبه الآمنة التي تنقصها المرافق والخدمات، حيث تعمل المحافظة على تطوير شبكات المرافق.

● **والمحور الثالث:** إعادة تأهيل المواطنين بالمناطق العشوائية، وإيجاد فرص عمل مناسبة لهم.

● **أما المحور الرابع:** هو محاولة إغلاق باب الهجرة من المحافظات الأخرى إلى القاهرة. نظرا لأن غالبية المواطنين القاطنين في العشوائيات قد وفدوا من محافظات أخرى.

وقد برزت على سطح فرنسا مشكلة الهجرة كما هو الحال في العشوائيات السابقة في منطقتي الألزاس واللورين ونجحت فرنسا في صد الباب في وجوه النازحين منهما أو إليهما بضمهما إلى فرنسا بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها.

ويرى البعض وجوب إنشاء مراكز عمرانية إنتاجية في مجالات الزراعة الحديثة والصناعات الصغيرة والمتوسطة والحرف اليدوية في

مواقع أخرى خارج الوادى والدلتا لاستقطاب الأجيال الشابة. وتنفيذ برامج تدريب وتأهيل القاعدة البشرية فى المناطق المهمشة والمحرومة للعمل فى مشروعات التنمية فى المجتمع الجديد، وإحداث الهجرة العكسية فى اتجاه مواقع التنمية المستهدفة، وإطلاق مبادرة لمجابهة عشوائيات العمران من خلال التطرق إلى أعماق المشكلة. فلا يجب الاكتفاء بتوفير السكن والمرافق للمواطنين.. بل العمل على تجفيف منابع المشكلة.

* * *

ومن نافلة القول أن نتساءل: أين دور رجال الأعمال والأغنياء فى المساهمة فى تطوير العشوائيات؟.. أولئك الذين أثروا بسبب أو بدون سبب؟! إن الله سبحانه وتعالى قد حرم الظلم على نفسه. فالإنسان المظلوم حين يخلد إلى فراشه ويخلو إلى نفسه يشعر بجرح غائر فى صدره ينزف أسى ولوعة يئن من وطأة الظلم وأقول شمس الحق، فالحق قديم قدم البشرية ذاتها، ألم يقل سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): «إن الحق قديم والحق هو العدل» ومن ثم يجب تطبيق مبدأ العدل على جميع مواطنى الدولة بلا استثناء.. ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ كما قال الله تعالى.

* * *

واقرار العدل ينبغي أن يسود فى كل شىء وفى جميع مناحى الحياة. ومن العدل أن يشارك هؤلاء الأثرياء المصريين الذين تكومت ثرواتهم بالبلايين وليس الملايين.. التى كدسوها فى الداخل والخارج، وركدوا عليها حتى تبيض لهم ملايين أخرى؟!.. أليس من العدل أن يشارك هؤلاء فى إزالة هذه العشوائيات وبناء مساكن أخرى عليها؟!!

إننى أدعوهم إلى أن يستفتوا قلوبهم وأن يخاطبوا ضمائرهم. هل يرضون بمثل هاتيك العشوائيات على ثرى بلادهم؟! قال عليه الصلاة والسلام: [استفت قلبك. البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك].

لقد هام هؤلاء القوم بالمال حباً جما وعضوا عليه بنواجذهم، مع حرص بالغ وشره فى جمعه دون أن يساعدوا وطنهم وأبناء جلدتهم فى حل مشكلاتهم، ومن ثم نرى أن تفرض عليهم الدولة ضريبة تجبرهم على مد يد العون لخمسة عشر مليوناً من البشر الذين يعيشون عيشة ضنكاً متقوقعين داخل هاتيك العشوائيات، الموت فيها أحب إليهم من الحياة، فالذى لا يأتى بالقرآن يأتى بالسلطان. فالمال مال الله، ومن ثم؛ فيجب أن ينفقوا مما آتاهم الله. ألم يقل الله تعالى فى كتابه الكريم: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ﴾ [سورة النور: الآية ٣٣].

* * *

ومن العجب العجاب أن قاطنى هذه العشوائيات يرفضون النزوح منها مع ما يتربص بهم من موت زؤام. فقد اتخذوا هاتيك العشوائيات أوكاراً ينطلقون منها لاقتراف أنواع الجرائم المتباينة بعيداً عن عيون رجال الأمن، ومن المأمول أن تعمل الدولة جاهدة على ترحيلهم من هذه الأماكن المأبونة حتى ولو بالقوة الجبرية - عند الاقتضاء - حفاظاً على حياتهم وأرواحهم، وترحيلهم إلى أماكن أخرى تقيمها الدولة لهم.

* * *

وفى هذا الصدد يقول «جول سيمون» العضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى كتابه القيم «الواجب» - الذى ترجم من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية وكأنه يتكلم عن قاطنى العشوائيات :

«لو أن رجلاً تخطى إفريز الجسر، وألقى بنفسه فى الماء، وفى الوقت نفسه أقبل رجل آخر لإنقاذه لكان من النادر جدًا أن يرفض الحياة التى يأتية بها منقذه، فمجاورته للموت ترده أشد حُبًا للحياة، فيتغير أمامه كل شىء حين يعتقد أنه فقد كل شىء»، وهكذا يفعل أصحاب العشوائيات الذين ينتظر الكثير منهم ما عنون به القاضى التنوخى «فى كتابه الموسوم باسم «الفرج بعد الشدة.. فالليل يدبر والنهار يسفر وهم على حالهم المكفهر المربد الوجه لهم دائمًا.

* * *

يقول «لويس مفورد» فى كتابه الرائع : «المدينة على مر العصور أو المدينة فى التاريخ» city in history : إن مثل ما يحدث فى العشوائيات فى مصر وغيرها من مدن العالم لهو دليل على انهيار المدينة ومواتها. ومن هنا أصبح من الحتمى على الدولة إحساسها بالعدل، والإحساس بالعدل - كما اعتقد فيلسوف القرن السابع عشر «توماس هوبز» - هو الذى يميز البشر أن تزيل هذه العشوائيات، وكسر طوق العزلة التى يعيشها أبناء هذه المناطق التى أمست خرابًا يبابًا، وأن تفتح الأبواب المغلقة أمامهم ليكون فى مكنتهم أن يتنفسوا الصعداء.

فلقد ظهرت أجيال جديدة من قاطنى العشوائيات منبئة الصلة علميًا وثقافيًا وحضاريًا.. بل ووطنية - عن الوطن الأم الذى لم يرنو إليهم بنظرة حذب أو عطف أو حنان.. حتى وصل الأمر بهم إلى السقوط فى بئر الحرمان.

فلا يجب أن يقسم أبناء مصر كما عبر فيلسوف المرة «أبو العلاء المعري» إلى صاهل «الحصان».. وشاحج «الحمار» يحيون جميعاً في كنف أمهم مصر.

* * *

مما يذكر بمداد الفخر أن الخديوى إسماعيل قرر أن يجعل من مدينة القاهرة قطعة من أوروبا ولم تفتقر همته طوال فترة حكمه (١٨٦٣م - ١٨٧٩م) عن تنفيذ ما حلم به واشترأبت عنقه إليه، فاجتهد حثيثاً على إنشاء دار الأوبرا وشق الشوارع الفسيحة وحلت الأحياء الجديدة محل الخرابات والمستنقعات وعمل على إضاءة مدينة القاهرة التى سبقت العالم العربى فى هذا الخصوص. وعلى توصيل مياه الشرب النظيفة إلى المنازل، وتشبيد الأبنية العلمية والثقافية، ومد الجسور التى عبرت النيل. وجنباً إلى جنب تحديث التعليم ناهيك عن تحديث المدينة؛ مما جعل القاهرة مجلى من مجالى العمارة والتخطيط الباريسى الأخاذ.

فكانت مدرسة السنية هى المدرسة الأولى لتعليم البنات، وكان التعليم آنذاك يسير جنب إلى جنب تحديث المدينة والنهوض بها.

وعمل «على مبارك» - فى ذات الفترة - على تخطيط المدينة على أجمل وجه بتوجيه من الخديوى إسماعيل ودون ذلك فى كتابه «الخطط التوفيقية».

ألا نستطيع أن نسير على منهج هذا الخديوى الأريب اللبيب وزميله العلامة «على مبارك» وأن نمحو هذه العشوائيات التى أضحت - كما أسلفنا القول - مراكز قلقة للزلازل الاجتماعية والبراكين التى تقذف بحممها بين الحين والحين.. وكأنها «بركان فيزوف». إنقاذاً لشعب العشوائيات الذى فاق تعداده الخمسة عشر مليوناً من البشر يسكنون القبور.. فى ظلام يبعدهم تماماً عن مراكز النور.

وإذا كان صحيحًا - كما كان الأستاذ «العقاد» يرى - أن الحشرات هي مسودة الإنسان فهاهوذا مجتمع النمل يمثل مسودة سكان العشوائيات، فعلماء الحشرات قد أثبتوا أن النملة إذا ما أقدمت على نقل قطعة تراب إلى قبة العش - بالمصادفة - فلا تلبث زميلاتها أن يفعلن فعلها. ومثل هذا يحدث في العشوائيات. فكل فرد فيها يفعل ما يفعله الآخرون في طريقة معيشتة ونمط تفكيره وتشبته بالأرض التي نما عليها.. حتى ولو بعد أن أتى عليها الحدثان وجار عليها الزمان.

* * *

الذى لا محيص منه ولا معدى عنه - أن الدولة لا بد وأن تعمل حثيثًا على إزالة وصمة العشوائيات من على جبين الوطن. هذه الوصمة التي توهم مصر بوصمة التخلف الحضارى. والتي نحيناها جانبًا من تفكيرنا، فأصابنا مصر بضجيجها و عجيجهها وروعت الوطن بأكملها بقبوحتها بعد أن أصبحت ذات حول وطول، فضاقت الصدور بها سواء القابعين فيها أم النائين عنها؛ حتى ترأب صدع الوطن.. هذا الصدع الذى أصاب الوطن فى مكمته. ولن تذهب الجهود المرجوة فى هذا الصدع أدراج الرياح فهذه العشوائيات التى ضلت الطريق إلى وطنها. وأمست تمسك بخناقها - تهدد مصر بأكملها بالقذف بها فى أتون الجريمة. وهذا هو الخسران المبين. إن مصر وقد أضحت بعد ثورتها المجيدة - تشعر بالتحنان لماضيها التليد ومستقبلها - إن شاء الله المجيد - حتى تعود إلى سابق مكانتها بحسنها وبهائها.. يوم أن كانت زينة الأوطان ومفخرة العصر والأوان.

قال الله تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّيَ اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٥].

* * *

مشكلة العولمة

من نافلة القول أن نقول مع القائلين: إن رجل القانون هو مهندس المدنية «The law is a social engineering».

ويذهب العلماء إلى أنه إذا كانت أمريكا قد تقدمت وبلغت هذه المرحلة من القوة فإن ذلك يعود بالضرورة إلى الاهتمام بالجوانب القانونية. ويكفى للدلالة على ذلك أن مجلس الشيوخ الأمريكي يتكون من ٩٩ عضوا منهم ٩٦ من تخصصات قانونية وخريجي أعرق الجامعات.. وهم ذاتهم الذين يهندسون الحياة فيها.

فمن هنا نبدأ؛ إذ إن هناك تحدٍ كبير يقابلنا هذه الأيام وهو النظام العالى الجديد والنزعة نحو التحرر أطلق عليه اصطلاح (العولمة) التى عرفها Reberston عام ١٩٩٢م بأنها نوع من دمج العالم وتكثيف الوعى بالعالم ككل.

ولما تزل العولمة ومازالت تشق طريقها بسرعة فائقة نحو أهدافها المحددة وقمين بدارس القانون أن يرصد هذه الظاهرة ويتناولها بالتحليل. والعولمة ليست ظاهرة اقتصادية فقط ولكنها ظاهرة قانونية وسياسية فهى تركز على هذه المراكز مجتمعة والمهيمنة عليها والتى من شأنها السيطرة على واقع المجتمع ومستقبله.

فظاهرة العولمة الزاحفة تخطط لغزو كل المجالات، وتسعى لبسط نفوذها على كل المداخل والمخارج فى العالم العربى، وأضحت هذه الظاهرة باسطة ذراعيها ومهيمنة على كل قضايانا ومستقبلنا الاقتصادى

الذى أصبح يتحدد وينتقيد بموجب اتفاقات وأبحاث وحصار منظمة التجارة العالمية وحيث مصير الأمة السياسى يصاغ تحت تهديد هذه الظاهرة وضغوطها وقوانينها التى تخاطب المجتمعات وترضخها فكرياً لمفاهيم العولة، ولما تفرضه عليها من التزامات.

ومما لاشك فيه أن ظاهرة العولة ولما تزل تثير سلاسل متصلة من الأسئلة التى تبدو الإجابة عليها غير مأمونة العواقب لأنها تنهض على أساس من التحليل الاستباقى لنتائج ظاهرة لم تكتمل ملامحها بعد.. فما هى العولة؟!

هى جعل الشئ على مستوى عالمى.

والعولة هى مصدر لفعل (عولم) المشتق من كلمة (عالم).

يرى البعض أن مصطلح العولة متداخل مع بعض المفاهيم الأخرى من بينها (الكوكبية) (والكونية).

وفى رأى هذا الفريق. أن الترجمة الصحيحة للاسم الإنجليزى للظاهرة وهو «Globalization» والمشتق من «Globe» بمعنى الكرة ويقصد بها هذه الكرة الأرضية الكوكب الذى نعيش على سطحه مقابل العالم وهو «world»، والكون «Universe»، وكلمة العالم تعنى البشرية والنسبة إليها توحى بمشاركة الناس جميعاً فى انتظار الظاهرة محل الدراسة.

ويذهب آخرون إلى أن العولة على وزن (الفوعة) ترجمة للمصطلح الإنجليزى السابق ذكره أو المصطلح الفرنسى «mondialisation»، أو هى كما يرى آخرون على وزن (قولبة)، وثم من ترجم هذه الكلمة (العولة) (Global village).

والعولة كما نراها هى اختراق ثقافات الأمم الواهنة، ومحو هويتها

وإحداث خلل فى دينها وحضاراتها، وهى نظام يقوم على العقل الإلكتروني والثروة المعلوماتية والإبداع التقنى دون أى اعتبار للدين أو الحضارة أو الحدود الجغرافية والسياسية القائمة فى العالم.

وفى كلمة فاهت بها وزيرة خارجية الولايات المتحدة الأمريكية السابقة قالت: «إن أمر قيادة العالم بلا منازع هو من نصيب أمريكا وعلى جميع دول العالم أن تدرك أننا لو أردنا إحداث أى تغيير فإننا لا بد وأن نفعله».

ويتجه فريق ثالث إلى اعتناق الرأى بأن «العولمة» هى واحدة من ثلاث كلمات عربية جرى طرحها للمصطلح الإنجليزى والكلمتان الأخريان هما «الكوكبة» و «الكونية».

أما العولمة فى اللسان العربى «فهى من العالم» تتناول فئة أخرى فى مجال تعريف العولمة وهى من محاولة النظرية التى قام بها «جميس روزنا» أبرز علماء السياسة الأمريكية وهو كذلك من المبكرين الذين وضعوا تعريفاً كاملاً وجاهزاً يلائم التنوع الضخم لهذه الظاهرة المتعددة الجوانب. وفى الحقيقة فإن حدود وسائل الاتصال فى العولمة تترد إلى الماضى على الرغم من أن الأقمار الصناعية والتكنولوجيا الرقمية والطائرات قد قربت المسافات وأدت إلى جعل العالم قرية صغيرة فى الأربعة عقود الأخيرة الذى كان قد تقلص بالفعل منذ وقت مضى وأضحى عالماً صغيراً بعد أن ضاقت رقعته.

ففى القرن التاسع عشر بدأت الرحلات التجارية والتلغراف والغواصات فى تحطيم المسافات، كما استطاعت بعض المخترعات الأخرى فى القرن الخامس عشر مثل البوصلة أن تحيل بعض الرحلات الاستكشافية أمراً ممكناً، لذا ليس ثمة مبرر لاستئصال العولمة المعاصرة عن تاريخها بتعريفها على أنها عملية حديثة.

والعولة بالمعنى العام تشير إلى العمليات المتباينة للتداخلات المعقدة بين المجتمعات، والثقافات والمؤسسات والأفراد على مستوى العالم. ويقول «روبرتسون Robertson»: إن العولة تشير إلى النظام العالمى الكلى، والحالة البشرية العالمية.

وتؤكد فئة أخرى من العلماء أن العولة بمفهوم مبسط تعنى اعتماد كل دولة على الدول الأخرى واستجالة انفصالها عنها. وعجزها عن تطبيق سياسة الانغلاق على نفسها أو بعبارة أخرى: اختصار نزعة توفيقية تسعى إلى توحيد كل أقطار كوكب الأرض فى منطقة واحدة على أساس مثلث أضلاعه هي:

«الاقتصاد والتقدم العلمى، والتقدم التكنولوجى».

ويعنى آخر: فإن هذه العولة تؤدي إلى ربط العالم كله بشبكة تحقيق مصالح الكبار تحت ستار مفاهيم إنسانية لامعة خاصة. فهى اختراع غربى و أمريكى يظهر فى صورة براقعة ويبطن فى داخله حقيقة مرة، فهو النموذج الجديد للهيمنة والسيطرة.

وحيث يفرض الإطار المعرفى والثقافى الغربى على العالم النامى، محاولة افتراس الخصوصية الحضارية للشعوب المختلفة، فهى - وحيث ترى أمريكا - يجب أن تفرض على جميع الدول من حيث إن أمريكا هذه ترى أنها الدولة التى تحمل راية الحضارة وأن مصير العالم كله مرهون بها، ويؤول إلى حضارة واحدة هي الحضارة الأمريكية.

تنقسم العولة إلى العولة الاقتصادية، والعولة السياسية، والعولة الثقافية، والعولة التكنولوجية، والعولة المالية.

كما أنها من حيث إنها عولسة فإنها تتفرع - أيضاً - إلى العولة البيئية والعولة الجغرافية والعولة السيسولوجية.

وأخيراً وليس آخراً ارتأى فريق آخر أن العولة هي عولة أدوات الإنتاج والاقتصاد الحر الذى تجاوز حدود المكان مع براعة متيقنة فى إيجاد فنون التسويق وتغليب قيم ثقافة الاستهلاك على حساب قيم أخرى.

ومن ثم فإنه - وكما نرى - وبهذه المثابة - فإن الرأسماليين أصحاب الثراء الفاحش سيزدادون عدداً على حساب الفقراء الذين سيزدادون فقراً. ويمكن تحديد ثقافة الاستهلاك على أنها جماع أساليب الحياة ومعانيها ورموزها، وثقافة الاستهلاك «Consumer Culture» هي تلك الجوانب المصاحبة للعملية الاستهلاكية التى تدفع الأفراد دفعاً إلى الاستهلاك والركض خلفه بصرف النظر عما ينتج عن ذلك من أضرار، فهى تحول المواطنين تدريجياً إلى أفراد ذوى مصلحة ومن أفراد إلى مستهلكين ثم تحول إلى أطفال وتحول الأطفال إلى مستهلكين.

ولما يزل الفكر العربى بعيداً عن المفهوم والمضمون الصحيح للعولة فهو يعيش فى حالة من التشويش الفكرى والبعد عن جوهر هذه الظاهرة غير واضحة المعالم.

ويحاول بعض كتاب العرب التأكيد على أن العولة ظاهرة قديمة عرفها القدماء المصريون والإغريق والرومان كما أنها كانت موجودة منذ زمن الفتوحات الإسلامية.

والحقيقة - التى لا مشاحة فيها - أن هذا تسطيح للأمور وتبسيط محل لها.

وها هو ذا «هنجتون» صاحب كتاب صراع الحضارات - يرى وهو من أشد الناس المنتمين إلى العولة - أن الصراع القائم هو بين الغرب والإسلام.

وهذا الأمر أكده الرئيس السابق «جورج بوش» الذى رآه الكثيرون أسوأ رئيس شهدته الولايات المتحدة الأمريكية فقد عقب على أحداث يوم الثلاثاء الأسود ١١ سبتمبر ٢٠٠١م واصفاً الاعتداء على برجى مركز التجارة العالمى بأنه حرب صليبية جديدة. ويؤيده فى ذلك الإسرائيلى «شيمون بيريز».

انظروا معى كيف أساء من يدعى «توماس فريد مان» إلى العرب والإسلام فى مقال له معنوناً باسم: الدفع بالعولة فى أرض المصاعد والصلوات، وقد نشر هذا المقال فى نيويورك تايمز «New York Times» بتاريخ ٢٩/١/٢٠٠٠م قال فيه:

«كنت فى زيارة لوزير الاقتصاد المصرى الدكتور يوسف بطرس غالى خريج (معهد ماساتشوستس للتقنية Massachusetts Institute of Technology) الذى يدفع بالعولة ويعزز لارتباط مصر بها - فعندما دخلت إلى مبنى الوزارة بالقاهرة وجدت عامل المصعد وهو فلاح مصرى فى انتظارى؛ حيث قام بفتح باب المصعد بالفتاح الذى بيده فإنه قبل أن يستعمل هذا المفتاح ليصحبنى إلى مكتب الوزير بالطابق العلوى راح يتلو آية من القرآن الكريم.. فتعجبت كيف لهذا الفلاح المصرى أن يتلو فى مبنى عصرى آية من آيات القرآن وهو ينقل ضيف الوزير إلى الطابق العلوى؟!».

ويرد ف «فريد مان» قائلاً: «هذا هو التناقض بين وزير الاقتصاد المصرى الذى يمثل مستوى علمى رفيع وبين عامل المصعد الذى ينطق بصلاة قبل أن يقودنى إلى حيث كنت ذاهب».

هذا هو أحد فلاسفة العولة.. وهذا هو قوله بلسانه الذى يدمغه بالتعصب ضد الأديان.

وقد طالبت توصيات مؤتمرات السكان بحق المرأة والفتاة فى التمتع بحرية جنسية آمنة وكاملة مع من تشاء، وفى أى وقت أو فى أى سن تشاء، وليس بالضرورة فى إطار الزواج الشرعى بل فى مستنقع الإباحية الجنسية، مع إلزام جميع دول العالم بالموافقة على ذلك مع وجوب سن القوانين التى تعاقب كل من يقترب أو يقف فى وجه هذه الحرية.. حتى لو كان المعارض هما الوالدان.

كما تطالب الوثيقة الحكومات بالاهتمام لتربية الحاجات التثقيفية والخدمية للمراهقين ليتمكنوا من معالجة الجانب الجنسى فى حياتهم دون إدانة لما قد ينتج عن هذا الحمل السفاح، فالوثيقة تدعو إلى سن قوانين للتعامل مع هذا الحمل حتى تكون - طبقاً لهذه الوثيقة - بعيداً عن المساءلة حول حملها بغير زوج، ثم تخير الفتاة بين رغبتها فى الإجهاض أو إن هى شاءت فتبقى عليه، مع إلزام السلطات برعايتها الاجتماعية كاملة. وإن هى تنكبت ذلك تدفع به لدور الرعاية وينسب الولد إلى أمه. ولا تتحدث التوصيات عن الزواج من حيث إنه رباط شرعى يجمع بين الرجل والمرأة فى إطار دينى، ورباط اجتماعى سليم، فهى ترى أن الزواج المبكر يعوق المرأة، ومن ثم يتحتم رفع سن الزواج مع تحريم الزواج المبكر.

وأما كلمة الزوج فقد أنكرتها الوثيقة تماماً وداست عليها بقدميها - إن كان لها من قدم - وأسمنت هذه العملية الجنسية التميئة التى تنكرها الأديان السماوية، بل وغير السماوية، (الاعتصاب الزوجى). وقد جاء فى هذه الوثيقة كلمة (Partner) أى الزميل أو الشريك فى هذه العلاقة المحرمة من حيث إنها إحدى حقوق الطرفين.

كذلك خلت الوثيقة من كلمة الوالدين فعبرت عنهما بالعبارة الآتية :
«كل من تقع عليه مسئولية قانونية» في إشارة منها إلى مختلف الأسر
المثلية (ذكر وذكر) (أنثى وأنثى) (أو حتى الشوان) لأن الوثيقة تعترف
بهذه الأسر المثلية.

وتستخدم الوثيقة كلمة (المساواة) للتعبير عن إزالة الاختلافات بين
الرجل والمرأة حتى ولو كانت اختلافات بيولوجية.
وهذا الذى سبق ذكره وبيانه هو أحد روافد العولمة.
ومن العجب أن هذه الوثيقة قد طالبت بفرض سياسة تحديد النسل
(وليس تنظيمه) فى ثلاث عشرة دولة من دول العالم الثالث، تشكل
الدول الإسلامية نسبة منها تبلغ ٩٠٪ من هاتيك الدول.
ومن عجب أشد أن وزير خارجية أمريكا السابق اعتبر أن الذى يدعو
إلى التنمية الاقتصادية حالاً للمشكلة السكانية هو أحد أعداء أمريكا
ويهدد الأمن القومى الأمريكى.

وجاءت أوروبا بحال يتكافأ فى السيئات بينها وبين أمريكا، فقد
ورد فى نشرة للأمم المتحدة - صدرت فى عام ١٩٨٩م - تحت عنوان
«سكان العالم فى بداية القرن» حوت فى طياتها تقريراً عن موقع أوروبا
على الخريطة السكانية العالمية جاء فيه :

«إن أوروبا تذوب الآن كالجليد تحت الشمس، حيث إن سكان القارة
كانوا يمثلون ١٥,٦ ٪ فقط من سكان العالم عام ١٩٥٠م فتراجعت هذه
النسبة عام ١٩٨٥م إلى ١٠,٢ ٪ فقط من سكان العالم سوف تصل عام
٢٠٢٥م إلى ٦,٤ ٪ لا غير».

وأن هذا النقص السكانى فى أوروبا يقابله زيادة سكانية فى القارة
الإفريقية لاسيما البلاد الإسلامية مثل الجزائر والمغرب والسودان ومصر.

ومن ثم فقد رأت هذه النشرة أن أوروبا تواجه في المستقبل القريب خطر الأسلمة (أو الأفارقة) جراء هذا الزحف القادم من الجنوب إلى الشمال.

وانظروا كيف تفعل العولة فيمن يعتنقها؟، وكيف أثبت القائلون عليها أنهم قد انسلخوا عن حظيرة دينهم وتردوا في هوة سحيقة إلى الكفر والإلحاد؟!

ففي الدراسات العديدة التي صدرت عن أشهر ثلاثة باحثين أمريكيين وهم: (كنزى، وجونسون، وماستر) قد قرروا في أبحاثهم هذه أن ٥٠٪ من الذكور الذين تمت دراسة حالتهم قد مارسوا الجنسية المثلية. كما أكدت دراسات أخرى أن مليون ونصف المليون امرأة وفتاة يمارسن السحاق.

وهكذا وقعت أوروبا فيما هوت فيه أمريكا من الانزلاق إلى التسبب والفجور بمخالفاتهم لدينهم ولكل التشريعات والرسالات السماوية. وهاك ثانية الأسافي فقد تضمن المشروع الذى قدمته هيئة الأمم المتحدة لمؤتمر السكان والتنمية الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٩٤م أنه: «يلزم بذل جهود خاصة فى مجال التعليم والإعلام للتشجيع على معاملة البنات والأولاد على قدم المساواة فيما يتعلق بالتغذية والرعاية الصحية، وحقوق الميراث، والتعليم، والنشاط الاجتماعى، والاقتصادى، والسياسى».

كما دعت الاتفاقية إلى تغيير شكل الأسرة خلافاً لما دعا إليه الإسلام والرسالات الإسلامية الأخرى، فألزمت وضع سياسات وقوانين تأخذ فى الاعتبار تعددية أشكال الأسرة... وعلى تشجيع الاعتراف بالأسر

التي تتكون خارج الإطار الشرعى سواء أكانت بين رجل وامرأة بدون زواج، أو بين رجلين كما هو موجود فى بلاد الغرب.. أو حتى بين امرأتين. وتجىء ثالثه الأسافى، فقد دعت الاتفاقيه إلى رفع ولاية الآباء عن أبنائهم إذ طالبت بدعم وتوجيه الوالدين لأولادهما فيما يتعلق باستعمالهم للخدمات السابق ذكرها.

أما الرابعة، فقد أقرت الزنا، ودعت إلى الدعوة إلى إلغاء القوانين التي تحد من ممارسة النشاط الجنسي، فقد جاء فى الفقرتين السابعة والثامنة منها - مؤتمر السكان والتنمية - أنه ينبغى على الحكومات أن تسهل على الأزواج تحمل المسئولية.. وإزالة ما لا لزوم له من عوائق قانونية أو تنظيمية تقف فى وجه هذا.

أما الخامسة.. فقد أباحت الإجهاض، فقد نصت على: «إنه ينبغى أن تكون برامج الرعاية الصحية التناسلية والجنسية مصممة لتلبية احتياجات المرأة والفتاة والمراهقة».

ويطول الحديث عن هذا الأمر حول هذه الدعوة السوداء. ولا جرم أن نقول إن العولمة تهدف إلى تسويق النموذج المدنى الغربى فى امتداده المادى والرأسمالى الذى يركز على النمو الاقتصادى، والتقنى، والعلمى، فهى بجبروتها، وغطرستها، وشهوة سيطرتها قادرة تمامًا على العمل خارج حدودها من خلال العولمة الاقتصادية، والسياسية، والثقافية، وعولمة اللغة التى هى مفتاح الثقة، والتربية، والتعليم، والحضارة، وإذاعة مصطلحاتها، ووعاء إنتاجها الثقافى. وهى - وإن كانت محرصًا حضاريًا ومنبهاً ثقافيًا إلا إنها تحمل فى ثناياها الشر الوبيل.

وقد دعا العلماء والباحثون إلى وجوب تكاتف الدول العربية والإسلامية والعمل على إنشاء السوق العربية، وكذلك السوق الإسلامي لمواجهة زحف العولمة إلينا، التي تريد أن تشل إرادتنا وأن تضيع هويتنا. وأن تهين كرامتنا في أعز ما نملكه وهو ديننا الحنيف.

قال الشاعر:

ولا يقيم على خيم يراد به إلا الأذلان عير الحى والوتد

كما قال الشاعر:

لا تسقنى ماء الحياة بذلة بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

إن أمريكا تريد أن تشق بطن العالم كما فعل «حى بن يقظان» الذى ترعرع وأربى على سبع سنوات ولم يفارق أمه حتى أسنت وضعفت وماتت، ولما رأى الدم توقف فى عروقها شق بطنها لكى يعرف سبب الوفاة.

أمريكا تريد أن تفعل ذلك مع العالم العربى والإسلامى بل مع الدول النامية برمتها، تريد أن تشق بطنها لا لكى تعرف سبب وفاتها، ولكن لتفرض سيطرتها وجبروتها عليها.

فهل بمكنتنا كما دعا «قداسة البابا شنودة الثالث» فى كلمته التى ألقاها فى المؤتمر الذى كان بخصوص «مشكلات العالم الإسلامى وعلاجها فى العولمة».. أن يستخدم المال العربى المخزون فى بعض البنوك العالمية لتحويله إلى مشروعات صناعية، وتجارية لتحريك هذا المال واستخدامه لمصلحتنا؟

معاً نحن نستطيع أن نفعل هذا وأكثر من هذا إذا صدقت النيات فإننا رضىنا أو كرهنا أصبحنا فى قلب العولمة أو فى داخلها كما عبر

الأمير «فيصل عبد الله» وزير أوقاف قطر، قد أصبحت العولمة تحيط بنا بكل جانب بعد أن شكلت لنفسها فلسفة شاملة ومتكاملة وممتدة لجميع جوانب الحياة في محاولة منها لإعادة تشكيلها وفق الفلسفة الرأسمالية. فهذا الذي يراد بنا من خلال فلسفة العولمة، وإذا كان الأب شنودة قد دعانا في مقاله السابق ذكره إلى أن الحكمة تقضى أن أكسب الآخر، لا أن أخسره. ولا أدخل معه في صدام، ولا أقطع علاقتي به، وهذا يلزمنا ثقافة الحوار بدلاً من ثقافة العنف سواء على مستوى الأفراد، أو الجماعات، أو الدول، فإننا وإن كنا نعتقد في هذا القول الجميل إلا أننا نردد ما جاء في الذكر الحكيم: ﴿وَعَسَى أَنْ تَـُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٦]

وأيضاً، ما ورد في الإنجيل: «ما فائدة الإنسان إذا ربح العالم كله وخسر نفسه».

لقد شاهدنا في التلفاز الأستاذ الدكتور «محمد عمارة» وهو يتحدث عن العولمة حديثاً علمياً جلياً قال فيه: «إن العولمة تنقسم إلى قسمين عولمة كلية، وعولمة جزئية ونحن نرفض كليهما».

وكذلك - يا أيها الأستاذ الجليل - نحن نرفضها شكلاً ومضموناً.. ولن نتسربل بسريرها الأسود العقيم الذي كذلك هو ذميم!



المشكلة الثقافية

الثقافة فى مصر - فى نظرنا - ينطبق عليها ما قاله الشاعر الفذ الأستاذ «على الجارم» هى ثقافة تبدو وكأنها ماتت بأفقتها فطلت عليها أعين السحب تدمع ولعل الله ينفخ فيها من روحه حتى تفىء على المصريين بالخير والبركات.

يقول الشاعر الطغرائى :

قد يعطف الدهر الأبى عنانه فيشفى عليل أو يبيل غليل
فالذى لا مشاحة فيه أن السبيل الوحيد أمام المصريين ، العرب
والمسلمين - إلى نهضتهم وتقدمهم - هو العلم الذى يحمل فى ثناياه كل
روافد الثقافة .

يقول الشاعر :

بنى العروبة مدوا للعلوم يداً فلن تقام بغير العلم أركان
وحببوا لغة العرب الفصاح لهم فإن خذلانها للشرق خذلان
وكملوهم بأخلاق ومرحمة فإنما المرء أخلاق ووجدان
وقد سبق لعميد الأدب العربى الدكتور «طه حسين» وقد ناقش
مستقبل الثقافة فى مصر فإنه قد دعا الشعب الذى يسعى للحصول على
حرية واستقلاله أن يعرض كذلك بنواجذه على الثقافة والعلم والقوة التى
تنشأ عنهما .

اضمحلّت الثقافة فى مصر فذبل عودها واصفر ورقها وغيض ماؤها
فبدت وكأنها تشكو الجذب الذى أصابها والعلة التى ألت بها .

وذلك بسبب عدم النهوض باللغة العربية ومحاسبة من يخرج عن نطاقها أو يعن له أن يخلع عباءتها.

ولو نحن يممنا وجوهنا إلى الدولة الفرنسية لوجدنا أنها قد سنت في ١٩٩٤م قانوناً يدافع عن «اللغة الفرنسية» ويعاقب من يخترق قواعد لغتها سواء أكان ذلك عن استخفاف أو عن عمد، وهذه العقوبات تصل إلى حد السجن والغرامة الباهظة.

وقد حكمت إحدى المحاكم هناك على سلسلة مطاعم فرنسية معروفة بغرامة تنوء منها الكواهل لاستعاضة هذه المطاعم عن المصطلح الفرنسي بمصطلح إنجليزي.

ويرجع هذا - فيما نرى - إلى نظام التعليم المهتر الذي تحرص عليه وزارة التربية والتعليم منذ حقبة طويلة من الزمان من خلال نظام الحشو الذي يتبعونه مع الدارسين.

ويرى العلماء أن جناية التعليم على الثقافة تتحصل في ذلك الفصل الحاد في شجرة المعرفة بين تخصص علمي وأدبي.

ويرى البعض أن في لبنان: كل طائفة تقدم تعليمًا أساسيًا غير الأخرى، ويتساءل: هل نحن في الطريق إلى لبننة التعليم؟!، فالمواطنة الثقافية والرؤية العلمية يجب أن تكون هي الأهداف الكبرى للتعليم، وعلينا أن نواجه كل من يعترض على هاتيك الأهداف.

كما يرى آخرون أن التعليم في مصر أداة للقهر، كما أنه قد أصبح في خطر؛ فإن نظام التعليم المصري يصادر حرية الفكر والتفكير والنقد والإبداع وأمسى أداة للتسلط.

فلا أحد من المتعلمين يقرأ العربية ، أو يقرأ بها إلا قلة قليلة ليس لها من وزن فليس لها من شأن ، ومن ثم باتت الثقافة فى مخدعها لا تفارقه آناء الليل أو أطراف النهار .

يقول «إبراهيم بن العباس» :

«من أراد أن يكون عالماً فذاً فليطلب فناً واحداً ، ومن أن أراد أن يكون أديباً فليتسع فى العلوم» .

وقال أبو الدرداء (رضى الله عنه) :

«علامات الجهل ثلاث : العجب ، وكثرة المنطق فيما لا يعنيه ، وأن ينهى عن شيء ويأتيه» .

ومن أسف ، بات الإنسان المصرى وكأنه يؤمن بمذهب الجبرية مع «جهم بن صفوان» الذى كان يرى أن الإنسان مجبور فى أفعاله وأنه لا اختيار له ، فهو كالريشة المعلقة فى الهواء إذا تحرك تحركت وإذا سكن سكنت ، وأن الله قدر عليه أعمالاً لا فكاك منها ، وشاركهم فى ذلك «الجمعد بن درهم» فرأى أنه لا حيلة للإنسان أمام الجبرية ، مع أننا نرى أن هذا الذى ذهب إليه يتعارض مع قول الله تعالى : فالحوار الذى أجراه الله يوم القيامة بين الإنسان والشيطان متهم الأول الثانى بأنه وراء الذنوب التى أتاها والمحرمات التى اقتترفها .

فجاءت الآية الكريمة تقول : ﴿أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِالْكُتُبِ وَالْحِكْمِ وَالْعِلْمِ وَالْأَنْبِيَاءِ﴾ [سورة سبأ : الآية ٣٢]

فوردت آية أخرى تقول على لسان الشيطان للإنسان :

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [سورة إبراهيم : الآية ٢٢]

بدأت الكتب تنأى عن الناس بعد أن نأواهم عنها، ولو دروا لتيقنوا أنهم هم الذين فى مسيس الحاجة إليها.

إنك إن سألت شاباً أو مجموعة من الشباب. ماذا تقرأون؟، أبدأوا عجبهم من السائل وكأنهم يسألهم: ما هى العنقاء؟!

وأصبح التمايز الطبقي بين الناس يعود إلى قدرة كل المالية، فالذى يحوز أكثر فهو الأفضل، فالمال وحده هو رمزهم وديدنهم فى الحياة. أصبح الشباب جاهلاً لا يقرأ، ولا يعن له أن يقرأ، ولا تجدى معهم نصيحة، فهدم الجهل من الشباب كيانه، وأذاب وجوده، وترك عقله وقد أصبح قاعاً صفاً خاوياً.

فالثقافة أصبحت كلمة غريبة فى بلادنا، وصوتاً نشازاً فى وطننا، ونسى الجميع أن الثقافة ليست ترفاً لكنها مثل الخبز، بل هى تزيد أحياناً عن الخبز الذى يمد جسم الإنسان بالحياة، فهى - أى الثقافة - التى تغذى عقل الإنسان، ولا جسم بدون عقل.

فقد ضاع الخيال من الشباب وعلى حد تعبیر «مارك توين» وكما ورد فى كتاب «فيزياء المستحيل» Physics of the Impossible لمؤلفه «Michio Kaku»:

«لا يمكن الاعتماد على عينيك عندما يفتقد خيالك إلى التركيز».

كما غاب عنه (فقه) العبارة الوجيهة التى خلدها الشاعر «أبو الطيب المتنبى» فى قولته:

أعزُّ مكانٍ فى الدُّنى سرُّجٌ سابِحٌ وخير جليبيِّ فى الزمانِ كتابٌ

.. وقال الشاعر:

يا ذكياً والذكا جلبابه وتقياً حسنت آدابه
قم وصاحب من هم أصحابه لا تقل قد ذهب أربابه
وقد سئل «الحسن البصرى»: «أكان أصحاب رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - يمزحون.

قال: نعم ويتقارضون.. كانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أمر
جاهليتهم».

وكانت عائشة أم المؤمنين تحت على طلب الشعر وتعلم روايته وفي
هذا الصدد كانت تقول:

«رؤوا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم».

وكان «معاوية بن أبي سفيان» يحب الشعر أيضاً، ويتمثل به ويستنشد
من حوله، التفت يوماً في أحد مجالسه إلى عبد الله بن الزبير وقال
متمثلاً، كما جاء في كتاب الأغاني للأصفهاني:

ورام بعبوران الكلام كأنها نوافر صبح نفرتها المرائع
وقد يدحض المرء المؤارب بالخبنا وقد تدرك المرء الكريم المصانع

ثم قال لابن الزبير: من يقول هذا؟ فقال: ذو الأصبع، فقال: أترويها؟
قال: لا. فقال: من ها هنا يروي هذه الأبيات؟، فقال: فقام رجل من
قيس، فقال: أرويها يا أمير المؤمنين. فقال: أنشدني، فأنشده حتى أتى
عليها.. فزاد معاوية في عطائه.

وكان «عبد الملك بن مروان» يقول لمؤدب ولده «رؤهم الشعر. يمجدوا
وينجدوا».

وكانت المساجد فيما ذكره المؤرخون ملتصقة فيها العلم يتحلق
المتحلقون حول العلماء للنهل من علمهم والتأدب من أدبهم.
ويذكر الدكتور الفاضل «أحمد جمال العمري» في سفره «شروح الشعر
الجاهلي» كان الجمهور الأدبي، يتسابق إلى الذهاب إلى «سوق المربد»
الذي تميزت به بادية البصرة حيث كان جمهور الشباب، يغدون
عليه ويروحون للقاء الفصحاء من الأعراب، والتحدث إليهم، تمريناً
لألسنتهم، وتربية لأذواقهم ومحاولة لاكتساب الفصاحة، والسليقة
العربية المصفاة من شوائب العجمة واللحن، يكتبون ما يسمعون من
طرائف الشعر وروائع الأدب. ولم يكن الجمهور الأدبي وحده الذي
يذهب إلى المربد، بل كان شباب الشعراء أيضاً يغدون إليه، على نحو
ما تذكر المصادر عن أبي نواس، وأنه كان يذهب إلى المربد بألواح للقاء
الأعراب، كما رحل بشار إلى البادية ليأخذ اللغة والشعر من ينابيعهما
الأصلية، وغيرهما كثيرين.

وكان يفد إليه العلماء أنفسهم ليزودوا، ويستعينوا على أداء مهامهم
التعليمية والعلمية، يأخذون عن أهله، ويدونون ما يسمعون. روى القالي
عن الأصمعي قال: «جئت إلى أبي عمرو بن العلاء فقال: من أين أقبلت
يا أصمعي؟ قلت: جئت من المربد، قال: هات ما معك، فقرأت عليه ما
كتبت في ألواحى، فمرت به ستة أحرف لم يعرفها، فخرج يعدو في
الدرج، وقال: «شمرت في الغريب يا أصمعي» أى غلبتني فيه.
وذكر ياقوت: أن الجاحظ أخذ النحو عن الأخفش، وأخذ الكلام عن
النظام، وتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد.

ومن نافلة القول أن نقول إن هذا السوق.. سوق المزبد لم يكن هو المعهد الوحيد لتلقى العلم، بل لقد كانت البادية أكبر جامعة عربية، تضم بين أنحائها أساطين اللغة والشعر، لذلك أوفد إليها الخلفاء الأمراء ليتعلموا اللغة الفصيحة النقية، وليتذوقوا فنون الشعر والأدب. فقد أرسل معاوية إليها ابنه وولى عهده يزيد، وأرسل هارون الرشيد إليها ابنه المعتصم للعرض نفسه.

بيد أن البادية لم تكن مدرسة للأمراء فحسب، وإنما قصدها عدد كبير من طلاب العلم والأدب، قبل أن يصبحوا أمراء العلم والأدب. قصدها الخليل بن أحمد والكسائي، والشافعي (٢٠٤هـ)، والرياشي وغيرهم.

وكان الذين يفتدون إلى البادية يتعلمون من جمهرة البدو.. إذ إن اللغة البدوية الفصيحة كانت وحدها اللغة المستعملة في هذه البقاع، كم انضموا إلى الحلقات العلمية التي كان يعقدها كثير من أفاضل البدو وفصحائهم ليرووا فيها أجود الشعر، ويذكروا أمجاد العرب وأيامهم. وكان من هؤلاء أبو مالك عمرو بن كركرة، وأبو ثروان العكلي، أو هندام كلاب بن حمرة.

وانتهز البدو هذه الفرصة فوفدوا على القرى والمدن، وجلسوا يعلمون الناس اللغة ورواية الشعر القديم.

يذكر صاحب كتاب «الفهرست» أن البدو الذين وفدوا إلى الحواضر، واتخذوا التعليم مهنة لهم كان منهم ابن يزيد أستاذ عبد الله بن المقفع. وكان الأعرابي قبلها مرمداً «أى فقيراً في علمه».

أرأيتم كيف كان العلماء.. وكيف كان العلم عند قدماء العرب والمسلمين!؟

هل هناك من يقرأ الشعر من الشباب؟ ، وهل هناك من يتذوق الأدب؟
سواء الأدب العربي أو الأدب الغربي؟
وهل هناك - إلا أقل القليل - من يعرف الجاحظ.. أو الدميري..
أو المبرد؟

ثم هل يوجد من يعرف شيئاً عن إميل زولا.. أو برونتي.. أو جوته
Goethe؟

أذكر - دون مُزاح - أن صديقاً يشغل منصباً حساساً، كان ذات يوم
يزورنى فأبصر مكتبتى تموج بالكتب فطلب إلى أن أعيره بعضها بعد
أن أشار إلى كتاب بعينه كان يود اقتناءه، كان الكتاب للعلامة «ابن
خلدون»، فسألته.. لماذا تريد أن تقرأ هذا الكتاب؟.. فأجابنى: إن هذا
الكتاب قد سمع عنه من قبل فهو «شاعر كبير»!.. فقلت له: إن صاحبه
هو مؤسس علم الاجتماع «ابن خلدون»؟!

إن مشكلة الثقافة فى مصر تتمثل فى الأمية الضاربة الأطناب التى
تفشّت فى عقول شباب مصر، فأنستهم ماضيهم، وألهتهم عن حاضرهم،
وأضحوا لا يفرقون بين معنى الدجى أو الإفلاق، ولا يبصرون حتى دلوك
الشمس؟

والحل الناجع لمحو أمية هؤلاء المتعلمين الجهلاء يقع على عاتق وزارة
الثقافة التى يجب أن تؤدى رسالتها فى سبيل نشر الكتب وسهولة عبور
الشباب عليها عبر الروافد الثقافية المختلفة، وعلى رأسها التلفاز.
إن كتاباً عالج هذه المسألة للأديب الدكتور «طارق حجى» فى كتاب
له أسماه: «الثقافة أولاً وأخيراً».

ونحن معه نقول: إن الثقافة يجب أن تكون أولاً وأخيراً.

وقد قسم الفيلسوف الإيطالي جرامشى الثقافة إلى نوعين أولهما الثقافة المهنية والثاني الثقافة الموضوعية وهي أعم من الأولى وهي التي تعيننا عندما نتكلم عن الثقافة.

والثقافة في اللغة العربية مشتقة من تثقيف الرمح أى صقله.
ولا جَرَم أن نذكر أن أستاذنا «العقاد» قال ذات يوم: «لقد كنت أقرأ كل شيء عن شيء، فأصبحت اليوم أقرأ كل شيء، عن كل شيء»!.



المشكلة الطائفية

هكذا كانت مصر.. وهكذا ستكون؟!!

أرسان ثقال رانت على قلب مصر ليلة أحداث الأحد الدامي ، وكأنها
الرواسي من الجبال؟!

إراقة دماء الأبرياء، لن يغفرها الله لهذه الطغمة الحاقدة الآثمة التي
كادت أن تحرق بإثمها، الوطن كله، وأرادوا أن يضربوا على عود الفتنة
الطائفية، والفتنة الطائفية من جريمتهم، وجريرتهم براء.. فلم تكن مصر
هكذا في يوم من الأيام!

يحدثنا التاريخ - القريب - أنه عندما قررت وزارة عدلى يكن
رفت (صادق بك حنين) لأنه نقد ما جاء بإحدى خطب رئيس الوزراء
فتألفت لجنة - عقب ذلك - من القضاء ووكلاء النيابة ورجال التعليم
من المسلمين والأقباط لتكريمه على موقفه الوطنى، ونشرت الصحف
وفى مقدمتها «جريدة النظام» الخطب التى ألقاها سعد زغلول ووليم
مكرم عبيد وسلامة ميخائيل فى حفل التكريم يوم ١٩ يونيو ١٩٢١م
وكانت كلها تشيد بالوحدة الوطنية. وقضت الجمعية العمومية لمحكمة
الاستئناف العليا بحق الموظف فى إبداء آرائه السياسية - وبحرية - ولو
كانت مخالفة لرأى رؤسائه.

فقد كانت الوحدة الوطنية - كما اتفق المؤرخون - أبرز العناصر
التي تألفت منها شعارات ثورة ١٩١٩م، وكان علم الثورة يتألف من الهلال
والصليب وثلاثة نجوم. وعند مناقشة علم مصر بعد إعلان استقلال مصر

فى ١٥ مارس ١٩٢٢م أراد البعض أن يضيفوا الصليب إلى جانب الهلال رمزاً للاتحاد والوئام اللذين سادا بين عنصرى الأمة فى خضم الثورة، بيد أن الجميع عارض ذلك لأنه دليل على وجود العناصر المختلفة أو المتعددة وليس ثمة عناصر فى مصر إلا الشعب المصرى فقط.

وكان الكاتب الكبير «سلامة موسى» قد دعا إلى تعميم إطلاق أسماء الأشخاص على المسلمين والمسيحيين على السواء مما يؤكد الاندماج الاجتماعى قائلاً: إن التمييز فى الأسماء لم يحدث إلا فى بلادنا فإن (زينب، وهند، وحسن، وحسين) من أسماء النصارى فى سوريا، وكان فى جزيرة العرب أسقف اسمه محمد. وإن الأتراك يتسمون بأسماء نصرانية مثل إسكندر ولا يجدون حرجاً فى ذلك!

وما قاله الأستاذ «موسى» طالعه كاتب هذه السطور فى كتيب للمرحوم الأستاذ «عزيز خانكى» بعنوان «نزعة الأسماء» دون فيه مثل ما ذكر الأستاذ «موسى».

وقد أينعت الدعوى إلى توحيد عنصرى الأمة فيما نشر - آنذاك - من أن القبطى «صالح ميخائيل» كان قد أقام دعوى ضد الشيخ المسلم «عبد المعطى على» وغداة وقوفه أمام قاضى المحكمة قال للقاضى: إننى أتنازل عن قضيتى تأكيداً للأخوة المتبادلة بينى وبين الشيخ «عبد المعطى»! فإنما نحن أبناء وطن واحد.

ونشرت جريدة النظام ١٢ مايو ١٩٢٢م أن رزق كامل عثمان من أعيان المسلمين فى أبى قرقاص رزق بمولود ذكر أسماه «وليم مكرم عبيد» تيمناً باسم المجاهد الوطنى الكبير الذى نفى مع سعد، وكان يطلق عليه اسم «ابن سعد زغلول».

وعند استقالة وزارة محمد سعيد باشا نتيجة المعارضة الوطنية التي واجهتها من تعمد «اللورد اللنبى» إلى اختيار «يوسف وهبة» الوزير القبطى فى الوزارة المستقلة رئيسًا للوزارة الجديدة، ردت لجنة الوفد على ذلك بانتخاب «مرقص حنا» نائبًا لرئيسها الذى اعتقلته السلطات العسكرية البريطانية؛ سدًا لمحاولات إثارة الفرقة بين جناحى الأمة.

وقبيل إعلان تأليف الوزارة فى ٢١ نوفمبر ١٩١٩م حضر ليفيف من الأقباط إلى الكنيسة المرقسية الكبرى واحتجوا جميعاً على تعيين يوسف وهبة رئيسًا للوزراء وأظهروا امتعاضهم لذلك لا لشيء سوى أن اللنبى هو الذى عين «وهبة» فى منصبه ذاك.

وفى ١٥ ديسمبر ١٩١٩م ألقى «عريان يوسف سعد» الطالب بكلية الطب قنبلتين على سيارة رئيس الوزراء وهو يهتف «ليحيا الوطن» وحكم عليه فى ١٩ يناير ١٩٢٠م بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات. وعندما نص الإنجليز فى تصريح فبراير ١٩٢٢م على حماية بريطانيا لصالح الأجانب «والأقليات المسيحيين» احتج المسيحيون على ذلك لأنه لا توجد فى مصر (أكثرية أو أقلية) فتلك فى اعتقادهم فرية «مجنونة» مجتها الآذان، ونبذتها الأذهان.

وعلقت صحيفة «الليبرتيه» الفرنسية.. كما أثبتت الدكتور «رمزى ميخائيل» ذلك بين دفتى كتابه الرائع عن ثورة ١٩١٩م، قائلةً: «إن المسلمين نالوا الاستقلال بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م أما الأقباط فقد حرموا منه لوضعهم تحت الحماية البريطانية».

كتب الدكتور «وسيم السيسى» فى مقال له فى «المصرى اليوم» فى ١٥/١٠/٢٠١١م أن عالمة الجينات «مارجريت كندل» قد أثبتت أن

الضفائر الجينية بين المسلمين والأقباط واحدة في حوالى ٩٧٪ منهم..
وهذه الضفائر الجينية هي جينات الفراعنة.

يذكر الزميل العالم المستشار «طارق البشرى» فى كتابه «الدولة
والكنيسة»:

«إن الشريعة الإسلامية ومبادئها ليست غريبة ولا بعيدة عن أقباط
مصر، وقد طبقت على المصريين جميعاً منذ دخل الإسلام مصر فى
النصف الأول من القرن الأول الهجرى، وعرفت مدارس الفقه الإسلامى
فى مصر، من الليث بن سعد المصرى إلى عبد الرحمن بن القاسم مشيع
المذهب المالكى إلى محمد بن إدريس الشافعى مؤسس المذهب الشافعى،
وعرف بها الأزهر - وما كان يجذب إليه من علماء المسلمين، وهذا
الإشعاع الثقافى لم يكن الأقباط بمعزل عنه، وأن كتاب القوانين المعروف
باسم المجموع الصفوى للمثقف القبطى المعروف صفى الدين أبى الفضائل
ابن العسال هو من أدلة هذا الشيوخ، ذلك أنه كتاب ألف فى القرن
الثالث عشر الميلادى من جزئين، يحوى أولهما فى اثنين وعشرين باباً
أحكام العبادات فى المذهب الأرثوذكسى المصرى وعلى الرغم من كونه
كتاباً مسيحياً قبطياً أرثوذكسياً تنضبط أحكامه مع أحوال هذه العقيدة،
فإنه يلحظ شيوخ استخدامه للمصطلحات الفقهية الإسلامية فى التعبير
عن أحكامه الكنسية مثل الإجماع والفروض وغير ذلك».

وقد ذكر الجبرتى - الذى قتل ولده فذهب نور عينيه حزناً عليه
ولم يمنع ذلك من المضى فى كتابة جزء مهم من تاريخ مصر، ولا سيما
آثار الحملة الفرنسية عليها، وله كتابان فى هذا الخصوص هما «عجائب
الآثار فى التراجم والأخبار»، «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين» -

«أن نابليون بونابرت عرض للمناقشة في أول جمعية تأسيسية أنشأها موضوع نظام الملكية، ونظام التوريث، وعرض وجهة نظر القانون الفرنسى فيهما فرفض أعضاء الديوان بالإجماع، بمن فيهم الأقباط ونصارى الشوام الذين قالوا: (المسلمون يقسمون لنا).

وظل أقباط مصر على موقفهم القديم، إذ إن محكمة استئناف مصر الأهلية - الدائرة المدنية - وقد كانت مُشكلة من ثلاثة مسيحيين ومسلمين، انتهت في حكمها إلى أن نظر مواد المواريث يستمر كما كان بحسب الشريعة المحلية لأن الملة (التابع لها المتوفى) هى الملة المصرية. وعندما وضع دستور مصر المستقلة عام ١٩٢٣م ورد فى عجز المادة ١٤٩ أن الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية.. وكانت من بين اللجنة التى وضعته خمسة من المسيحيين هم: «يوسف سابا باشا، وقلينى فهمى باشا، وإلياس عوض باشا، وتوفيق دوس بك، والأنبا يؤانس نائب بطريرك الأقباط الأرثوذكس وقتها»، والذى تولى البطريركية بعد ذلك لسنوات أربع عام ١٩٢٧م، كما كان فيها عضو يهودى هو «موسى قتاوى باشا».

ويا أيها الذين تسعون فى الأرض فسادا، وتبغون قطع وشائج القربى بين المسلمين والأقباط، اذكروا دائماً قول «عثمان بن عفان» - الخليفة العادل رضى الله عنه - وهو يوصى الولاة، قائلاً لهم: «إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة وليسوا جبابة، وإلا انقطع الحياء، والأمانة، والوفاء.. انظروا أمور المسلمين وأمور المسيحيين فأعطوهم مالهم وخذوا ما عليهم». فالمسلمون والمسيحيون وحدة تقف كالجبل الأشم فى وجه من يريد أن يقتحمه أو يتناول عليه.

وصدق أمير الشعراء حين قال:

الدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الأقواما

ونختم هذا بقول «للجاحظ» جاء في مقال للدكتور «طه الحجرى»

نشره فى مجلة الزهور عام ١٩٤٥م جاء فيه:

«اللهم إنى أعوذ بك من باطن عزمه ، كما أعوذ بك من ظاهر عمله».

ونحن نوجه هذا الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى متضرعين له:

«اللهم إنا نعوذ بك من باطن عزم المتعصبين ، ونعوذ بك من ظاهر

عملهم المشين»!



مشكلة الأمية

يقول «شارل فوربييه» الاقتصادي والفيلسوف الفرنسي الشهير: «نريد أن نبني عالماً يسعد الناس فيه جميعاً، حتى الأغنياء».

ولقد مرت على الأمية في مصر ليالٍ من الفكر - بالنسبة للأمية الضاربة الأطناب ذات الملايين من الأبواب، ما انجابت ظلمتها، ولا فارقت مصر آثامها أو كدرها.

فألاميون يشكلون نسبة جد عالية في جميع ربوع مصر، فهم لا يقرأون، وهم لا يفقهون إلا ما أفاء الله على البعض منهم من الفهم الصحيح.

وفي كتاب الدكتور «موريس بوكاي»: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، أشار صاحب كتاب «كيف بدأ الخلق» إلى مقالته «إن من جوانب إعجاز القرآن البالغ أنه هو الكتاب السماوي الوحيد الذي لا يوجد به خطأ علمي واحد».

وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٨]

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [سورة

المجادلة: الآية ١١]

- وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨]

- وقال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ

عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [سورة الرعد: الآية ٤٣]

- وقال تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ ۗ ﴾. [سورة النمل: الآية ٤٠]

- وقال عز وجل: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾. [سورة القصص: الآية ٨٠]

- وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِلُونَ ﴾. [سورة العنكبوت: الآية ٤٣]

- وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾. [سورة النساء: الآية ٨٣]

- وقال تعالى: ﴿ يَبْنَوي ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لُبَاسًا يُورِي سَوَءَ تَكْتُمٍ ﴾. [سورة الأعراف: الآية ٢٦]

- وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾. [سورة الأعراف: الآية ٥٢]

- وقال تعالى: ﴿ فَلَنُقَصِّنَ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾. [سورة الأعراف: الآية ٧]

- وقال عز وجل: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾. [سورة العنكبوت: الآية ٤٩]

- وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٢﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾. [سورة الرحمن: الآية ٣-٤]

والتعريف الشائع للأمية يقول: «إن الأمي هو ذلك الذي لا يعرف القراءة والكتابة» وهذا خطأ شائع والصحيح أن الأمية تتفرع إلى الكثير من الفروع، فهناك الأمية العلمية، والأمية الثقافية، والأمية السياسية، والأمية المهنية، وهكذا دواليك.

ونعتقد أن ذلك يرجع إلى اضمحلال اللغة العربية الفصحى التي تعرضت إلى حرب ضروس عبر تراكم السنين، ومرور الأيام حاول أعداء الإسلام أن يمحوها محوًا من الوجود حتى يبعدوا المسلمين عن دينهم. فقد ألمهم انتشار الإسلام، وعض المسلمين بنواجذهم على دينهم لا يبغيون عنه حولًا من خلال عشقهم للغتهم وانتدابهم على تعاليم دينهم السمحة السمحاء، والغرة البيضاء، فهي كما عبر «روفائيل»:

«اللغة العربية تحرك مشاعر من يسمعها، وقد لا يكون من بين البشر قاطبة من يستثيره التعبير، وتحركه الكلمة منطوقة كانت أو مكتوبة مثل العرب. إن من العسير أن تجد لغة من لغات العالم تحظى بهذا التأثير الذي لا يقاوم على عقول أصحابها. إن الجمهور العربى المعاصر سواء فى بغداد، أم فى دمشق، أم فى القاهرة يحرك وجدانه إلى أقصى درجة ممكنة. إنشاد قصيدة ما، وإن تعذر عليه فهمها كاملة، ويستثير مشاعره إلقاء خطبة بالعربية الفصحى. وإن غاب عنه فهم بعضها. إن للإيقاع الشعرى والموسيقى، والتناغم بين أجزاء الكلام ما للسحر على نفوس هذا الجمهور العربى، بل هو ما يسمى بالسحر الحلال».

ويقول المستشرق «رتز» أستاذ اللغات الشرقية:

«إن الكتابة اللاتينية لا اختزال فيها.. أما الكتابة العربية فهي أسهل كتابات العالم وأوضحها، ومن العبث إجهاد النفس فى ابتكار طريقة جديدة لتسهيل السهل، وتوضيح الواضح».

ويقول «إرفنج IRVING»:

«إن اللغة العربية - بحق - إحدى اللغات العظمى».

وإن كان البعض قد إزورَّ عن القرآن الكريم.. فما كان ذلك إلا بسبب محمد وكتابه.. هكذا عبر «وليام بنجراف».

وفى كتاب «أباطيل وأسمار» عبر العالم الجليل الشيخ «محمود شاکر»
قائلاً:

«لقد برح الخفاء، وبدت جوانب المؤامرة لبث روح الكراهية والازدراء بالنسبة للسان العربى، وبقدر صلة الإنسان بهذا اللسان يكون نصيبه من زراية العصابة الاستعمارية، وأذنايها، والمتعلمون فى المدارس الوطنية الحكومية ينالون قدرًا من زملائهم الذين تعلموا فى المدارس الأجنبية حيث خلوات التبشير؛ لأن لهم صلة ما باللسان العربى، وبالتالي من تعلموا فى الأزهر حيث الحصن؛ لحرصهم للغة والدين يكون نصيبهم من مقت القوم أعظم وأكبر».

قلنا فى كتابنا «خواطر قاضٍ» الذى صدر عن دار المعارف منذ شهور
قلائل:

«إن إنجلترا ارتقت بكلمات دكنز، وكارليل، ومؤلفات شكسبير، وارتفعت فرنسا بتواليف راسين، وفولتير، وموليير، وسمعت ألمانيا بليبننتس، وجيته، وشيللر، وسمت روسيا بتولستوى، وجوجل، ومكسيم.

وعزت مصر، والأمة العربية بالقرآن الكريم. ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة طه: الآية ١١٣] «صدق الله العظيم».

واللغة العربية هى لغة الضاد. اللغة الشاعرة، كما أطلق عليها أستاذنا العقاد، وأفرد لها كتابًا، إذا قرأه تراه إنسانا، وهى اللغة الضاربة فى القدم، الموغلة فى العراقة طوال خمسة عشر قرنا. خلقت لغات سادت، ثم بادت. والعربية هى العربية لم تمح، ولم تتغير، أو تتبدل. فقد حوت على أدب لا تحويه لغة أخرى، كما عبر رجل الفكر والسياسة

الدكتور عبد الوهاب عزام، أدبياً، موطناً ما بين الصين وبحر الظلمات، ولم يعرف في آداب العالم قديمها، وحديثها، أدبياً اتسعت به المواطن، هذا الاتساع، وامتدت به الأمصار هذا الامتداد، ثم هل عرف العالم أدبياً أعظم من أدب العرب سعة رقعة، وطول مدة وجمالاً وجلالاً؟؟، وفي الأدب العربي سَيَّرَ رجف بها الزمان، وأقر بها الحدثان.

لا جرم - إذن - أن سادت اللغة العربية، وتحدث بشأنها الثقلان، الإنس والجان. ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [سورة الجن: الآية ١-٢]

واللغة - أية لغة - هي وعاء الفكر، وإن شئت قل هي الفكر وهي الذكر، وهي ذاكرة الأمة، وشاحذة الهمة، وهي الوشيحة بين الماضي والحاضر، وهي قوام الشخصية، وتراث الإنسانية.. ثم هي - كما عبر الناقد الفرنسي «بوفون» - المرء ذاته.

وهذا الذي قلناه وذكرناه، ومن هنا كانت الدعوة منذ حقبة قصيرة إلى إماتة اللغة العربية. وإحياء اللهجة العامية في مصر.

فها هو ذا كما ذكر المرحوم الدكتور «السيد الطويل» يثبت في كتابه المعنون «اللسان العربي والإسلام.. معاً في معركة المواجهة» يقول: «ذلكم هو «ولهلم سبيتا» خشى أن تستعيد اللغة العربية قوتها، فألف كتاباً سماه.. «قواعد اللغة العامية في مصر». كانت محاولة منه لتقعيد العامية، لكن مقدمته كشفت سوء نيته، وخبث طويته، يقول في مقدمته: وأخيراً سأجازف بالتصريح عن الأمل الذي راودني على الدوام طول مدة جمع الكتاب، وهذا أمل يتعلق بمصر نفسها. وحس أمراً هو بالنسبة لها وإلى شعبها يكاد يكون مسألة حياة أو موت، فكل

من عاش فترة طويلة في بلاد تتكلم العربية يعرف إلى أى حد كبير تتأثر كل نواحي النشاط فيها بسبب الاختلاف الواسع بين لغة الحديث، ولغة الكتاب.

ثم يواصل حديثه فيقول: وطريقة الكتابة العقيمة بحروف الهجاء المعقدة يقع عليها بالطبع أكبر قسط من اللوم في كل هذا، ومع هذا فلن يكون الأمر سهلاً لو أتيح للطالب أن يكتب بلغة إن لم تكن هي لغة الحديث الشائعة فهي على كل حال ليست العربية الكلاسيكية القديمة بدلاً من أن يجبر على الكتابة بلغة هي من الغرابة بالنسبة إلى الجيل الحالى من المصريين مثل غرابة اللاتينية بالنسبة للإيطاليين. وبالتزام الكتابة الكلاسيكية القديمة لا يمكن أن ينمو أدب حقيقي، ويتطور».

وقفى على ذلك المقتطف عام ١٩٨١م، إذ كان صاحبه عربى المثال أعجمى العقل فهو كما قال المتنبي:

عربى لسانه، أعجمى رأيه فارسية أعياده

وتجىء، ثلاثة الأسافى فيما ألفه «كارل فولرس» الذى سوّد عقله المتعصب وكراهته لصر وغلّه من العربية إلى أن يؤلف كتاباً أسماه «اللهجة العامية الحديثة فى مصر»، وكذلك «وليم ويلكوكس» المهندس الإنجليزى المتعصب ينفث سمومه فى اللغة العربية مضمناً إياها ما بثه الأول فيها وقس على ذلك «يعقوب صنوع»، والمستشرق الإيطالى، والأمريكى «ريتشارد لونهيل».

ومن أسف أن نقرأ أن أستاذ الجيل «أحمد لطفى السيد» الذى قاد فى رثائه عملاق الفكر الأستاذ «العقاد» فى قصيدة له مازلنا نحفظ البيت الأول منها يقول مخاطباً إياه:

معلم هذا الجيل علمته الأسى فعلموا ألا يستكين ويأسا

فهو - رحمه الله - وقد كتب في الجريدة «بتاريخ ٢١ أغسطس ١٩٠٩م» يدافع عن اللغة العربية متسائلاً: متى نحب وطننا، لغتنا، وآدابنا؟.

وإذا به يعود «القهقري» مردداً عام ١٩١٣م ما كتبه المستشرقون الضالون الكارهون للغة العربية والناطقون بها فيذكر:

«على الكتاب أن يتسامحوا في قبول المسميات الأجنبية، ويدخلوها في كتابهم، كما أدخلها الجمهور في المخاطبة، ثم اعترف بأن هذا قد يخلق الفوضى، لكنه استدرك قائلاً: إنها فوضى نافعة، ولا خطر على اللغة منها مادامت ستخرجها من جمهورها إلى التطور الراقى الذى يوافق أطماع الأمة».

وكانه بدعوته تلك يسبق وزيرة خارجية أمريكا التى دعت ذات يوم قريب الدول العربية والإسلامية إلى الفوضى الخلاقة؟! يقول حافظ إبراهيم:

أرى كل يوم فى الجرائد مزلقاً من القبر يدنينى بغير أناسة
وأسمع للكتاب فى مصر ضجة فأعلم أن الصائحين نعاتى
أرايتم كيف كانت هذه الحرب الضروس على اللغة العربية من خلال
الداعين إلى استبدال اللهجة العامية بها؟!
ولاجرم - أن نعود إلى ذكر كلمة الأمية التى أرتأها البعض أنها تعنى
الجهل بالقراءة والكتابة، وليس إلا ذلك.

فالأمية فى معناها ومغزاها كما ورد فى القرآن الكريم تعنى (الأممية).
وسبق للأستاذ العقاد أن فسر هذه الكلمة تفسيرها الصحيح فذكر

فى مقال له «بجريدة الأخبار المصرية» أن الآفة الكرفمة التى وردت فى الذكر الحكفم:

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾. [سورة آل عمران: الآفة ٢٠]

فإن ذكر كلمة الكتاب قبل الأمففن جعلت الأذهان تتلقفها على أن كلمة الأمفة تعنى الجهل بالقراءة والكتابة.

وفسر الأستاذ العقاد هذه الآفة تفسرفها الصفىف فردد بفن ما ردد أن تفسفر تلك الآفة التفسفر الذى فففق مع المنطق والعقل السلفم فعنى أن الله فخطب رسوله داعففا إفاه - علىه الصلاة والسلام - أن فبلغ رسالة من السماء إلى من ادعوا أن الله لم فنزله كتابا إلا علىه دون المسففىفن والمسلمفن وهم الفهود أو الفوففم.. وكذلك فبلغها إلى فمفع العالم.

فقول العالم اللغوى «أبو إسحاق الزجاج»: إن الأمى هو الذى فظل كما ولدته أمه، أى: لم فتعلم الكتابة فهو أمى لأن الكتابة صنعة مكتسبة، وهو فى هذه الحالة ظل كما ولدته أمه، وبالترففب على ذلك فإن كلمة «أمى» جاءت من كلمة «أم» ونحن هنا أمام أصلفن لهذه الصفة «أمى».

الأصل الأول: أمى مصدرها من أمة.

الأصل الثانى: أمى مصدرها من الأم.

وكلا الأصلفن للكلمة فمكن أن فقبل من الناحفة النحوفة ولفس هناك مشكلة فى هذا الصدد، ولكن من ناحية المعنى هناك اختلاف كبرى فنشأ عن استخدامنا للأصل الأول أو الأصل الثانى؛ لأن الأصل الثانى للكلمة «أمى مشتقة من الأم» فسمح لنا أن نقصد بكلمة أمى من لا فقرأ ولا فكتب. أما الأصل الأول للكلمة «أمى مشتقة من أمة» فلا فسمح لنا أن نقصد بهذه الكلمة من لا فقرأ ولا فكتب».

ولذلك فإن الذين يظنون أن معنى كلمة أمى التى يوصف بها النبى - صلى الله عليه وسلم - إنه ينتمى بها إلى الأمة العربية يخدعون أنفسهم لأنه من الزيف أن نقول: إن الكتابة كانت نادرة أو غير موجودة عند العرب، ومن ناحية أخرى فإن كثيراً من الأمم كانت على نفس شاكلة الأمة العربية فى هذه الحالة.

ولقد دون الدكتور «عبد الرحمن بدوى» فى كتابه «دفاع عن القرآن» مؤكداً ما ذهب إليه أستاذنا العقاد فى هذا الخصوص.

وإذا كان البعض يرى أن ثمة فرقاً بين المخ والعقل وهو: «أن الفرق بينهما هو مثل نطق الكلمة ومعنى الكلمة، وأن العقل «Mind» هو المسئول عن الوعى، وهو نتاج مباشر للمخ المادى «Bain».

وكما أثبت صاحب كتاب «كيف بدأ الخلق» إذا كان ذلك كذلك. وهو كذلك، فإن العقل يقول إن محاربة الأمية بمعناها الدارج هو معناها الصحيح لا بد وأن يكون بشحذ الأمة إرادتها لمحاربة هذه الآفة التى عمت شعب مصر، بل وطمت وأن الآوان لمحوها من حيث إنها وصمة على جبين مصر رانت عليها وأبت ألا تفارقها فكانت هى الجرثومة الأولى فى غياب الوعى عن العديد من المصريين. وفى خلق هؤلاء الذين اندفعوا من خلال السلطة التى وسدها لهم هؤلاء الأميون بأमितهم لمعناها الخاطئ، ومعناها الصحيح.

كيف ذلك؟! ذلك يكون بالنهوض على تعليم أولئك وتثقيفهم والأخذ بيدهم نحو آفاق المعرفة الصحيحة التى تنشئ شعباً جديداً مثقفاً واعياً له شأن فى هذا العالم الذى لم ينهض الناهضون منه والذين بلغوا ذرا المجد إلا بالعلم والعلم فقط.

وقد صدق الله تعالى في قولته الكريمة:
﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. [سورة الزمر: الآية ٩]
صدق الله العظيم



مشكلة البطالة

تعريف قاموس اللغة العربية بأن «البطالة» هي عدم توافر العمل للراغبين فيه القادرين عليه.

وتعريف «العاطل» هو: بقاء الشخص بلا عمل مع قدرته عليه. «والبطالة قد استشرى داؤها وضربت بشرها جنبات العالم شماله وجنوبه وشرقه وغربه، وأمست مشكلة تؤرق القائمين على شئون الدول المختلفة».

والمقصود بالبطالة عدم وجود فرص عمل مشروعة لمن توافرت له القدرة على العمل والرغبة فيه. ويمكن أن تكون البطالة كاملة أو جزئية، هذا بالنسبة للقادرين للأصحاء.

أما بالنسبة لمن بلغوا من العمر عتياً فهم لا ينطبق عليهم وصف البطالة، فالدولة أحرى بها أن تؤويهم، وأن تضعهم نصب عينيها وهذا هو حقهم على الدولة.

فالبطالة إما أن تكون سافرة، وإما أن تكون مقنعة. فالسافرة فيقصد بها: حالة التعطل الظاهر التي يعاني منها جزء من قوة العمل والتي يمكن أن تكون دورية أو احتكاكية أو هيكلية، وتزداد حدة البطالة السافرة في الدول النامية حيث تكون أكثر قسوة وإيلاماً؛ نتيجة عدم وجود نظم لإغاثة البطالة وغياب أو ضآلة برامج المساعدات الاجتماعية الحكومية، وتقاعس الدولة، وازورارها عن مد يد العون إليهم فهم قد درسوا وجدوا وبحثوا وما ألقى واحد منهم عملاً ينهض عليه أو يسترزق منه.

أما البطالة المقنعة : فهي تلك الحالة التي يتكدس فيها عدد كبير من العمال بشكل يفوق الحاجة الفعلية للعمل ، ويوجد هذا الشكل في القطاع الزراعى فى البلدان النامية ، وكذلك فى قطاعات الخدمات الخاصة الخدمات الحكومية نتيجة لالتزام الحكومات فى مرحلة سابقة بتعيين خريجي الجامعات والمعاهد المختلفة .

وفى تقرير منظمة العمل الدولية قد ورد فى مدوناته أن متوسط نسبة البطالة فى العالم قد وصل إلى ٦,٢٪ بينما بلغت فى العالم العربى نسبة تقترب من ١٢,٢٪ .

وقد وصلت نسبة العاطلين فى البلاد العربية منذ ثلاث سنوات خلت إلى ٢٥ مليون عاطل .. واعتبرت هذه المنظمة أن سكان البلاد العربية دون سن الخامسة والعشرين هم الأسوأ عالمياً .

كما رأت منظمة العمل العربية فى تقرير لها أن البطالة فى الدول العربية هى الأخطر ، والأسوأ بين جميع مناطق العالم دون منازع وهو فى سبيله إلى الانفجار ، وليس ثمة بلاد عربية محصنة ضد البطالة حتى أصبح الكل فى هم الحياة سواء . فقد ألفت البطالة بظلالها السوداء عليهم بعد أن شبت نيرانها واشتد أوارها ووصل السيل الزبى دون صد أو رد أو محاولة جادة لإيقاف هذا السيل العرم .

ويوجد فى مصر وحدها ملايين عدة من العاطلين الذين خيم البؤس على حياتهم وران اليأس على عقولهم من خلال جمود وجه الدولة أمامهم وسوط البطالة الذى يلهب ظهورهم .

وقد رأيت بعينى شاباً يقوم بمسح الحذاء لى ولما جاذبته أطراف الحديث أفجأنى بأنه خريج إحدى كليات الزراعة بجامعة مصرية

أنزلت قدمي وأبديت له أسفى ولما رفض سارعت بالبعد عنه احتراماً له ولشأنى.

وذاك آخر يعمل حارساً فى إحدى بوابات مدينة العريش إثر زيارتنا لها أنا وابنى منذ شهر خلت إذ أنبأنى بأنه يحمل شهادة البكالوريوس من كلية العلوم جامعة القاهرة ولم يجد مصدرًا للرزق إلا العمل فى هذا الذى يقوم عليه؟!

وثالث طالب طب بجامعة الإسكندرية يعمل «نادلاً» فى منتزه المعمورة؟! وحدث فى هذا ولا حرج.

ويتساءل سائل عن الحل لهذا الأمر الذى حاق بالدولة والعاطلين فيها؟

وتأتى الإجابة ولا إجابة غيرها: أن تعمل الدولة جاهدة على محاربة هذه الظاهرة التى أصبحت تهدد مصر بأكملها من خلال التنمية الاقتصادية وإيجاد فرص العمل اللازمة لأبنائها الذين أصبحت الجامعات بالنسبة لهم كعامل تفرغ للعاطلين.

وما أصدق من قال:

وأكثر الناس آلات تحركها أصابع الدهر يوماً، ثم تنكسر



مشكلة البيئة

القرآن الكريم أورد كلمة البيئة من جهة الاشتقاق فقال تعالى :
﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾. [سورة الأعراف :

[الآية ٧٤]

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ﴾. [سورة يوسف : الآية ٥٦]

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾. [سورة الحشر: الآية ٩]
﴿أَنْ تَبَوَّءُوا لِقَوْمِكُمْ مَا بَمْضَرٍ يُبُوتُوا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. [سورة يونس: الآية ٨٧]

وقد اتخذ الباحثون في شئون البيئة التعريف الذي ورد في مؤتمر الأمم المتحدة عام ١٩٧٢م بأن البيئة هي :
«رصيد من النظم، والمواد الاجتماعية والثقافية المحيطة بالإنسان التي يستمد منها ويؤيد فيها نشاطه».

فالأرض هي العرض، والبيئة «Environment» هي المنزل والمكان الذي ينزل فيه الإنسان أو الكائنات الأخرى من خلق الله تعالى.
ولقد وضع العالم الألماني «إرنست هيجل في عام ١٨٦٦م كلمة أيكولوجى «Ecoology»، خلال دمج كلمتين يونانيتين هما «Oikes» بمعنى مسكن، «Logos» بمعنى علم البيئة وهو العلم الذى يدرس علاقات الكائنات الحية بالوسط الذى تعيش فيه.

خلق الله الأرض للإنسان من قديم الزمان، ذات اتزان وأنشأ منها كونًا عظيم الأركان فأفسده البشر وكادوا أن يحولونه إلى حجر؟!!

تقلص من الأرض - كما ذكر صاحب كتاب الأرض - شفاها الله - الغابات وانكمش منها المساحات بمعدل ينيف على عشرة مليون من الهكتارات وأصيبت الأرض بالتصحّر ناهيك عن فقر النصف الشمالى من الكرة الأرضية لآلاف البحيرات بعد أن أصابها الموت من الناحية البيولوجية.

فضلاً عن تعرض مخزون المياه العذبة لأجزاء من القارة الإفريقية، والصين، والهند، وأمريكا الشمالية إلى خطر النضوب.

كما تعرضت الأرض للخلل البيئى جراء ارتفاع حرارة جو الأرض بمعدل شبه ثابت، ومستوى سطح البحر نتيجة الذوبان القطبى تأثر بارتفاع درجة حرارة الجو.

وقد طمت على الأرض بسبب سكانها الأوزار دون فهم منهم أو اعتبار أو استعمار.

ويذكر كاتب هذه السطور مقالاً كتبه المرحوم العلامة الدكتور «أحمد زكى» فى مجلة علمية كان عنوانه «لو ذابت ثلوج القطبين، لفرق العالم أجمع».

وها هى ثلوج القطبين فى سبيلها إلى الذوبان.

وقد انقرض من على سطح الأرض العديد من الكائنات الحية بسبب الإغفال أو الإهمال.

فهل تتحول الأرض كما ورد فى الكتاب المقدس إلى أن:

«تَتَحَوَّلُ أَنْهَارُهَا زَفْتًا، وَتُرَابُهَا كِبْرَيْتًا، وَتَصِيرُ أَرْضُهَا زَفْتًا مُسْتَعْبَلًا. لَيْلًا وَنَهَارًا لَا تَنْطَفِئُ. إِلَى الْأَبَدِ يَصْعَدُ دُخَانُهَا. مِنْ دَوْرٍ إِلَى دَوْرٍ تُخْرَبُ. إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِينَ لَا يَكُونُ مَنْ يَجْتَازُ فِيهَا وَيَرِيهَا الْقَوُّ وَالْقَنُفُذُ، وَالْكَرْكِيُّ»

وَالْغُرَابُ يَسْكُنَانِ فِيهَا، وَيَمُدُّ عَلَيْهَا خَيْطُ الْخَرَابِ وَمِطْمَارُ الْخَلَاءِ. أَشْرَافُهَا لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يَدْعُوهُ لِلْمَلِكِ، وَكُلُّ رُؤْسَائِهَا يَكُونُونَ عَدَمًا. وَيَطْلُعُ فِي قُصُورِهَا الشُّوْكَ. الْقَرِيصُ وَالْعَوْسُجُ فِي حُصُونِهَا. فَتَكُونُ مَسْكِنًا لِلذَّنَابِ وَدَارًا لِبَنَاتِ النَّعَامِ. وَتَلَاقِي وَحُوشَ الْقَفْرِ بَنَاتِ آوَى، وَمَعَزَ الْوَحْشِ يَدْعُو صَاحِبَهُ. هُنَاكَ يَسْتَقِرُّ اللَّيْلُ وَيَجِدُ لِنَفْسِهِ مَحَلًّا. (أش : ٣٤ : ٩ - ١٤).

أو هي ستكون - عما قريب - كما ورد في سورة الرعد الآية (٤١):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

وكما جاء في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ مَنَّاعًا هَؤُلَاءِ وَعَآبَاءَ هُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَنفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الآية ٤٤]

يقول الدكتور «تقولا فياض» وهو من كبار الأدباء في الشرق العربي وله قصيدة عصماء عن (الأرض) ديجت يراعتة فيها:

لقد شبت وما شبت تقول الأرض للناس
فمن شرق إلى غرب ومن قطب إلى قطب
ومن رأسى لأطرافى يمر الدهر كالحلم
على جسمى

فلا يوهن من عزمى ولا يرهق أعطافى
وكيف أصاب بالهرم ومن ذهب الضياء دمي
وأمدى الشمس فى الفجر بقبلتها على ثغرى
تجدد حر أنفاسى

لقد شبت وما شبت تقول الأرض للناس!

ويردف هذا الأديب اللبيب قائلاً:

لقد شببت...

ألا فى ذممة الله خيال لاح للسلم
أطل بنظرة الساهى وطار بخفة الحلم
فما كحلت أجفانى

فرشت له على جنبى وثير مطارف الحب
فأسرع دوتاه المدفع وخرب ذلك المضجع
وغطاه بأكفان

ألا فارجع إلى دارى وإن شطت بك الدار
ولا تهمزاً بأسرارى ففيها النور والنار
لمن يؤمن أو يسعى

أكلما فاض رزقى بدلت باليسر عسرا
فما تمليت حباً ولا تذوقت عصرا
لقد شببت وما شببت تقول الأرض للناس

وما قاله هذا المفكر الأديب يمثل - تماماً - مشكلة الأرض التى نرقد

عليها ونعيش بين ظهرانيها.

فها هو ذا الإنسان فى كل زمان وفى كل مكان يعمل جاهداً على
وأد الأرض وعلى قتل البيئة، وأداً وثيداً - مرةً - وقتلاً سريعاً - مرات
ومرات - حتى أصاب الأرض بالويلات؟! .. من خلال تلوث الماء،
وكذلك الهواء. حتى أصبحت البيئة ملوثة فأمست هوة حاصلة بين
ما يسمى «بالتكنوسفير Technosphere» وهو معيشة الإنسان وأنماط

الحياة الحضارية ومستحدثاتها من العلم والتكنولوجيا، وبين «البيوسفير Biosphere» وعناصر مقاومات المحيط الحيوى.

فالثورة الصناعية وما صاحبها من تطور تكنولوجى اقترنت بكميات هائلة من الملوثات مما أدى إلى تلوث الهواء والماء والتربة، الأمر الذى أصاب الحياة فى مكنها وفى أرجاء المعمورة برمتها، الأمر الذى دفع الإنسان إلى سن القوانين لحماية الحياة والموارد الطبيعية، بيد أن هذا لم يحل المشكلة التى عمت وطمت واستفحلت وأصابت بالموات العديد من الكائنات الحية فى الأنهار والبحار، بل إن مياه الأمطار التى أنزلها الله على الأرض من السماء قد أصابها هى الأخرى من الإنسان العدا؛ ففى المناطق الصناعية تحمل فى طياتها كل الملوثات الموجودة بالهواء التى من أشهرها أكاسيد النيتروجين، وأكاسيد الكبريت، وذرات التراب، فقد ضربت المياه باليباب، ولكن يبقى فضل الله - أرحم الراحمين - فمن خلال نقاء ماء المطر الذى يتساقط من السماء يبقى خلواً من الشوائب ويظل فى غاية النقاء والصفاء مصداقاً لقول الله تعالى فى سورة الفرقان «الآية ٤٨»:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا يَنْفِثُ بِدَى رَعْمِهِمْ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾

كما تلوث البيئة البحرية بسبب النفط الناتج عن حوادث السفن أو الناقلات التى تعبر والتى تمخر عباب المحيطات المائية، كما حدث فى شواطئ كاليفورنيا فى ستينيات القرن المنصرم مما أدى إلى موت أعداد لا تحصى من الطيور البحرية والأسماك والكائنات الأخرى جراء تلوث المياه.

كما أن البقع الزيتية الطافية على سطح الماء تعيق نفاذ الأكسجين
الضرورى لحياة الكائنات وكذلك أشعة الشمس التى تعتبر ضرورية
لعمليات البناء الضوئى لحياة النبات المائية.

كما نجم عن التلوث البحرى هجرة الطيور النافعة، ناهيك عما حاق
بالشعاب المرجانية من أضرار مما أثر على الثروة السمكية؛ حيث تتخذ
العديد من الأسماك من تلك الشعاب المرجانية سكناً وبيئة لها.

وإذا كان البشر قد آمنوا بأن المياه الجوفية هى محمية طبيعية بعيدة
عن التلوث بواسطة طبقات الصخور، ناهيك عن التربة التى تعمل
كمرشحات لها بيد أن جموح البشر فى التوسع العمرانى، وغضهم البصر
عن الاهتمام فى التعامل مع البيئة أفضيا إلى إلحاق الأذى بهذه المياه
الجوفية كما تم إلحاق الأذى من قبل بالهواء والأرض والمياه السطحية.
هذه كله ناهيك عن ما أصاب البيئة من أشعة «الهاتف الجوال» وعوادم
المركبات، والسحب السوداء، وظاهرة الاحتراز العالمى، أو الاحتباس
الحرارى، وبما يعانیه وببغية من ارتفاع درجة حرارة سطح الأرض مما
يؤثر على العالم بأسره.

وقد أجرى علماء البيئة وتوصلوا من تجربتهم أن ثمة علاقة بين
التلوث وارتفاع درجة حرارة الأرض وإصابة أهلها «بالسكتة الدماغية»
خاصة فى أيام الحرارة، وما يحدث من جرائمها من تخثر يمنع تدفق
الدم إلى المخ.

وهلم بنا، نعرض على المفاعلات الذرية التى هى الخطر المحيق القادم
علينا من الطريق، ويتمثل نتيجة التسرب الإشعاعى أو التفجيرات الذرية
ناهيك عن اليود المشع، وزميله الكربون المشع، والذى يتولد فى الهواء

نتيجة لتعرض النيتروجين للنيوترونات والبروتونات الناتجة عن هاتيك التفجيرات فضلاً عن العناصر الأخرى.

ويهمنا هنا أن نشير إلى المخاطر الناجمة من مفاعل «ديمونة الإسرائيلي»، ولا ننسى أن نشير أن هناك مفاعلات نووية أخرى لدى إسرائيل، منها مفاعل ريشون لزيون، ومفاعل ناحك سوريك، ومفاعل «روبين»، وجميعها يشكل خطراً داهماً على المنطقة المحيطة بإسرائيل - ومنها بدهة مصر - فقد أصاب هذه المفاعلات الشيخوخة. حيث إن العلماء قد قدروا أن العمر الافتراضي للمفاعل النووي يتراوح بين الثلاثين إلى الأربعين عاماً.. مما دفع إسرائيل إلى أن تنشئ المفاعل الأخير السابق ذكره.

ولعلنا جميعاً نذكر ما أصاب البشرية من رعب جراء ما نتج عن انفجار مفاعل تشيرنوبل وإليك أيها القارئ العزيز ما سجل عن هذا الحدث:

«أكد المسافرون من مطار مدينة (كبيف) ثالث أكبر مدن الاتحاد السوفييتي أن إعصاراً غريباً قد هبط عليهم واجتاح المدينة وتسربت أرضهم بالظلام المفاجئ.. كما لو كان الليل قد هبط، فعلى بعد مسافة ١٥٠ كم من المدينة محل وقوع الكارثة النووية التي قرعت ناقوس الخطر أمام البشرية كلها وأنذرتهم بالخطر.. هُرع الناس إلى الفرار في غلس الليل البهيم ولسان حالهم يقول كما قال عنتر بن شداد في معلقته:

إن كنت أزمعت الفراق فإنما زمت ركابكم بليل مظلم
أو هم كما قال الشاعر «أبو أدهم كحيل»:

نفى النوم عن عين المرهب مدامعه وحارت به في النازلات مضاجعه

مضى سواد الليل يطرق سلوةً ودون التأسى للمريب براقعه
تقازفه الأفكار فى كل لجة فتبعته منه ما تكن أضالعه
يقلب عينيه بصفحة عيشه فيلقى بها سود الليالى تظالعه

قد أعلنت الأحزاب الخضراء أو جماعات السلام الأخضر والمدافعون عن البيئة فى جميع أنحاء الأرض فى ألمانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا وسويسرا وبلجيكا وغيرها، أن ما كانوا يحذرون منه قد وقع.

وقد خلف هذا الانفجار سحابة من الغبار الذرى يزيد طولها عن مائة ميل وعرضها ثلاثين ميلاً وخيمت بمخاطرها على الأجزاء الشمالية من أوكرانيا وهولندا، وفى اليوم الثلاثاء الموافق ٢٩ إبريل عام ١٩٨٦م الذى كان يوماً أسوداً فى تاريخ البشر.. وحمداً لله أن منطقة الشرق الأوسط كانت بعيدة عن هذا الخطر الذى تولد من رحم حادث مفاعل تشيرنوبيل فلو أن حركة الرياح كانت مختلفة - كما يقول العلماء - وفى اتجاه الجنوب بدلاً من أن تكون باتجاه الشمال الغربى لكان من الحتمى أن تضرب هذه الإشعاعات بسوءاتها مناطق عديدة من الشرق الأوسط وبخاصة المناطق المحاذية للاتحاد السوفييتى السابق، مثل أفغانستان وإيران وتركيا ناهيك عن بعض الدول العربية.

فهل نضرب صفحاً عن هذه اللامبالاة التى نعتنقها من خلال نظرتنا السلبية إلى البيئة.. فكيف يمكننا كما عبر «فريدريخ نيتشه» متسائلاً:
«أتريدون أن تعيشوا وفقاً للطبيعة يا أيها الرواقيون النبلاء.. تصوروا كياناً كالطبيعة مصرف إلى أبعد حد لا مبالية إلى أقصى مدى، بلا هدف ولا علة، بلا شفقة ولا عدل، خصبة هى ومقفرة ومتقلبة فى نفس الوقت.. (كيف يمكن أن تعيش وفقاً لهذه اللامبالاة؟!)».

والذى لا مشاحة فيه ، وكما يعبر «فرانسيس فوكوياما» فى كتابه الهام : «نهاية الإنسان عواقب الثورة البيوتكنولوجية» والذى ترجمه إلى العربية العالم الكبير «أحمد مستجير».. والذى تنبأ فيه بنهاية الإنسان فى كل مكان جراء هذه الثورة.

قال هذا الكاتب فى كتابه هذا :

«إن مفهوم الكرامة البشرية يعنى إنكار فكرة أن هناك شيئاً متفرداً فى الجنس البشرى يؤهل كل فرد منا إلى مكانة أخلاقية أعلى من بقية العالم الطبيعى ، ويقودنا هذا الإنكار إلى سبيل خطر للغاية قد نضطر فى نهاية الأمر إلى ركوبه ، وهنا لابد أن تكون أعيننا مفتوحة حتى لانموت كما مات الطفل الذى تحدث عنه «نيتشه» فى مقولة له عن العلم البهيج فقال :

قسوة مقدسة - اقترب رجل يحمل بين يديه طفلاً رضيعاً ، من رجل قدسى سألته ماذا أفعل بهذا الطفل؟ إنه مهزول مشوه ، وليس به من الحياة ما يكفى للموت. اقتله. صاح الرجل المقدس ، واحتضنه بين ساعدك ثلاثة أيام وثلاث ليال لتخلق لنفسك ذكرى ، أبداً لن أنجب هكذا طفلاً ، إذا لم يحن الوقت. - عندما سمع الرجل هذا مضى محبطاً ، ثم عنف الكثيرون الرجل المقدس لأنه نصح بالقسوة. لقد نصح الرجل بقتل الطفل. فسأل الرجل المقدس : لكن أليس الأقسى أن نتركه يعيش؟».

والسؤال الذى يثور: وما بالك لا تتحدث عن البيئة فى مصر؟ وتأتى الإجابة : إن البيئة المصرية ما هى إلا جزء من البيئة العالمية ويندرج عليها ماسبق وأن ذكرناه عن التلوث البيئى فى العالم ، فهذه البيئة قد تلوث منها نهر النيل ، والبحيرات ، وقناة السويس ، والبحر الأبيض

المتوسط، وكذلك الأحمر، فضلاً عن التربة ناهيك عن التلوث الكيميائي الزراعي. كما أثبت هذا الدكتور «ممدوح عطية»، وأستاذ البيئة العالمي الدكتور «محمد عبد الفتاح القصاص» فى كتابهما «علوم الأرض والبيئة»، وشاركهما فى ذلك العديد من علماء البيئة ومنهم الدكتور «سيد أحمد» فى كتابه «إنهم يقتلون البيئة»، وكذلك الدكتور «محمد عبد القادر الفقى»، والدكتور «على السكرى» فى كتابه عن «التربية البيئية». ولقد أضحى التلوث البيئى فى مصر تلوثاً عاماً انقرض بسببه الكثير من الحيوانات ومنها «نمر سيناء»، و«فهد الصحراء».

ولقد أصدر المشرع المصرى القوانين المختلفة التى سنت للحفاظ على مكونات البيئة منها القانون رقم (٤٨) لسنة ١٩٨٢م بخصوص حماية نهر النيل، والقانون رقم (١) لسنة ١٩٩٧م بخصوص المنشآت الفندقية، وكذلك القوانين المختلفة بشأن حماية الآثار، المناجم والمحاجر إلى غيرها. ولم تفلح حتى الآن من معالجة آثار تلوث البيئة فى مصر حيث إنها لم يُكْتَفَ منها إلا بالإصدار فقط دون تفعيلها!؟

ولقد سبق للمؤتمر العالمى للأمم المتحدة الذى انعقد باستوكهولم عام ١٩٧٢م أن ناشد جميع الدول العمل على محافظة البيئة، ومن الدول من استجاب.. ومنها الذى لم يستجب، ومن بينها مصر. ولعل من المفيد أن الدين الإسلامى كان له شأن وشأو فى الدعوة إلى الحفاظ على البيئة محذراً من إهمالها أو العبث بها كما جاء فى ذكر آيات الله البينات.

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. [سورة الروم: الآية ٤١].

كما قال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ بُنِيَ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ﴾. [سورة الشورى: الآية ٢٧]

وقال ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٥١) الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾. [سورة الشعراء: الآية ١٥١-١٥٢]

وقد كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو أول من قام بإنشاء محميات للحفاظ على البيئة، لا يجوز قطع شجرها، ولا قتل حيوانها، وحمل كل ما فيها من المدينة المنورة مربداً مربداً.

وقال: «إني أحرم بين مابين لابتي وبين المدينة» (ولابتي، هي الأرض ذات الحجارة السوداء) وبين المدينة أن يقطع عضاها (وهو كل شجر له شوك)، أو يقتل صيدها).

وكان الرسول - عليه الصلاة والسلام - من الذين يسعون لإقامة توازن بين البيئة والإنسان، ويكن احتراماً عميقاً لعالم النباتات والأزهار، وعلى صلة ذات عمق مع عناصر الأرض الأربعة التراب والماء، والنار، والهواء. ألم يكن هو القائل: «الناس شركاء في ثلاث: في الماء والكلاء والنار». ومن خلال ما دعا الرسول الناس إليه للحفاظ على البيئة ذكرت «فرنسيسكا دو شاتل» وهي الكاتبة الهولندية والمتخصصة في أنثروبولوجيا الثقافة الإسلامية - في حديثها عن الرسول - وترجم حديثها هذا الدكتور «إبراهيم عوض» - إلى أن تقول تحت عنوان «Muhammad: A Pioneer of Environmentalism» «محمد من رواد الحفاظ على البيئة»:

«الواقع أن القول بأن محمداً رائد من رواد الحفاظ على البيئة سوف يقع في آذان الكثيرين موقعاً غريباً، فكان نصرته للبيئة سابقة لعصره

من أشد ما جاء في الحديث النبوي: «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرا فياكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة».

إذ لا شك أن مصطلح «الحفاظ على البيئة» وما يرتبط به من مفاهيم مثل «البيئة» و«الوعي البيئي» و«ترشيد الاستهلاك» هي ألفاظ من اختراع العصر الحديث. أي مصطلحات صيغت لتواجه الاهتمامات المتزايدة بالوضع الراهن لعالم الطبيعة من حولنا.

ومع ذلك، فإن قراءة الأحاديث النبوية عن قرب، أي تلك الروايات المتعلقة بالأحداث الهامة في حياة محمد، لتُربنا أنه كان واحداً من أشد المنادين بحماية البيئة. بل إن بمستطاعنا القول إنه كان في نصرته للبيئة سابقا لعصره، أي رائدا في مجال المحافظة على البيئة والتطور الرشيد والإدارة الحكيمة للموارد الطبيعية.

لقد كان محمد من الدعاة الأقوياء للاستخدام الرشيد للأرض والماء واستثمارهما، وكذلك المعاملة الكريمة للحيوانات والنباتات والطيور، والحقوق المتساوية لمن يتعاملون معها من البشر. وفي هذا السياق فإن حداثة رؤيته للبيئة وحداثة المفاهيم التي جاء بها في هذا المجال لما يَشُدُّه العقل شَدُّها، حتى لتبدو بعض أحاديثه وكأنها مناقشات عصرية حول قضايا البيئة.

المبادئ الثلاثة:

إن فلسفة محمد البيئية هي - أولا وقبل كل شيء - فلسفة شاملة مترابطة، إذ تقوم على أن هناك صلة أساسية وارتباطا متبادلا بين عناصر الطبيعة، كما أن نقطة انطلاقها هي الإيمان بأنه إذا أساء الإنسان استخدام عنصر من عناصر الطبيعة أو استنزفه استنزافا فإن

العالم الطبيعي برُمَّته سوف يضارُّ أضراراً مباشرة. على أن هذا الاعتقاد لا يُنصَّ عليه في حديث واحد نصاً مباشراً، بل يمثل بالأحرى المبدأ الذى تنهض عليه جميع أقوال محمد وأفعاله. إنه فلسفة حياته التى على ضوءها نستطيع أن نبصر ملامح شخصيته.

إن أهم ثلاثة مبادئ فى الفلسفة المحمدية المتعلقة بالطبيعة تقوم على تعاليم القرآن ومفاهيم الوحدانية وخلافة البشر والثقة فى الإنسان. ويمثل التوحيد حجر الزاوية فى دعوة الإسلام، وهذا التوحيد يراعى الحقيقة التى تقول بوجود خالق واحد للكون وأن الإنسان مسئول أمامه عن أعماله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. [سورة المائدة: الآية ١٢٠]

ويقتر محمد بأن علم الله وقدرته يشملان كل شىء، ومن ثم كانت الإساءة إلى أى مخلوق من مخلوقاته، سواء كان كائناً حياً أو مصدراً من مصادر الطبيعة، ذنباً من الذنوب يجازى الإنسان عليه. وفى اعتقاده أن جميع مخلوقات الله متساوية أمامه سبحانه، وأن الحيوانات، وكذلك الأرض والغابات ونباتات المياه، ينبغى أن يكون لها حقوق تُحترم.

ويوضح القرآن أن الإنسان يتمتع بوضع متميز بين مخلوقات الله على الأرض، إذ اصطفاه ليكون خليفة فيها وينهض بمسئولية العناية بغيره من مخلوقات هذا الكوكب. وهذا واجب كل فرد فىنا ووجه تميّزه، ومجلى الثقة به. وبرغم هذا نرى القرآن مراراً وتكراراً ينهى الإنسان عن الكبر منبهاً إياه إلى أنه ليس أفضل من سائر المخلوقات: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾. [سورة الأنعام: الآية ٣٨]

وكان (محمد) يؤمن بأن الكون بما فيه من مخلوقات : حيواناتٍ كانت هذه المخلوقات أو نباتاتٍ أو مياهًا أو أرضين ، لم تُخلَق لتكون للبشر. صحيح أن لهم الحق في استخدام موارد الطبيعة ، إلا أنهم لا يمكنهم أن يملكوها تملكًا. ومن هنا ، ففي الوقت الذي يسمح الإسلام للإنسان بحيازة الأرض نراه يضع حدودا لذلك : فعلى سبيل المثال يمكنه أن يحوز الأرض فقط طالما كان يستعملها ، لكنه ما إن يكفَ عن هذا الاستعمال حتى يصبح واجبا عليه التخلي عن هذه الحيازة.

ويعترف (محمد) بمسؤولية الإنسان أمام ربه ، بيد أنه كان دائما وأبدا يدعو إلى إعمار الأرض ، ومن ثمَّ نراه يقول : «إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة فليغرسها» ، فهو هنا يبين أنه ، حتى عند انتفاء كل أمل لدى للبشر ، على الفرد أن يحافظ على نمو الطبيعة . لقد كان مؤمنا بأن الحفاظ على الطبيعة حسنة في ذاتها حتى لو لم يستفد البشر منها . وبالمثل نراه يحض أتباعه على التشارك في موارد الطبيعة ، إذ يخاطبهم قائلا : «المسلمون شركاء في ثلاث : الماء والكلاً والنار» . كما يعد حرمان العطشان من الماء إثما يعاقب عليه : «من منع فضل مائه ، أو فضل كلته ، منعه الله فضله يوم القيامة» .

ومن المؤكد أن موقف محمد تجاه الاستعمال الرشيد للأرض والمحافظة على الماء والطريقة التي كان يعامل بها الحيوانات هو دليل آخر على التواضع الذي يصيغ فلسفته حول البيئة .

وأمعنوا نظركم ، وأنعموا فكركم في دعوته للاستخدام الرشيد للأرض بقولته :

«جُعِلت لى الأرض مسجدا وطهورا» .

فى هذا الحديث يؤكد محمد الطبيعة المقدسة للأرض أو التربة .
لا بوصفها ذاتا طاهرة فحسب ، بل بوصفها مادة مُطَهَّرَة كذلك . ويظَّهَر
أيضا هذا الاحترامُ للأرض فى شعيرة التيمم التى تجيز للمسلم استعمال
التراب فى الطهارة الواجبة عند الصلاة فى حالة فقدان الماء .

وينظر (محمد) إلى الأرض على أنها مُسَخَّرَة للإنسان ، لكن لا ينبغى
له مع ذلك أن يفرط فى استخدامها أو يسىء استعمالها ، كما أن
لها ذات الحقوق التى للأشجار والحيوانات البرية التى تعيش فوقها .
ومن أجل المحافظة على الأرض والغابات والحيوانات البرية ؛ جعل
(محمد) عددا من المحميات ، أى الأماكن التى يحرم فيها استعمال
الموارد الطبيعية ، وهو ما لا يزال معروفا إلى اليوم ، إذ هناك مناطق
ممنوعة حول بعض الآبار وعيون الماء غايتها حماية المياه الجوفية من
الاستهلاك المفرط والنفاد والتلوث . ومنها المناطق الخاصة بالحيوانات
البرية والغابات حيث يُمنَع الرعى وقطع الأشجار أو يحرم التعرض
لأنواع معينة من الحيوانات بالصيد .

ولم يشجع (محمد) فقط الاستعمال الرشيد للأرض ، بل لقت أنظار
أتباعه - أيضا - إلى المكاسب التى يجنيها الإنسان من إحياء الأرض
البور ، إذ جعل زرع شجرة أو غرس بذرة أو سقى أرض عطشى من أعمال
البر والإحسان :

«و من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر» .

وعلى هذا فأیما شخص ساق الماء إلى قطعة أرض قاحلة فهى له .

المحافظة على الماء :

فى البيئة الصحراوية الخشنة التى كان يعيش فيها (محمد) يُعَدّ الماء
مرادفا للحياة ، فهو نعمة من الله . بل هو أصل الحياة كما يشهد بذلك

القرآن: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾. [سورة الأنبياء: الآية ٣٠].
 ويذكر (القرآن) المسلم على الدوام بأنه خليفة الله في الأرض، لكن لا
 ينبغي له مع ذلك أن يأخذ الأشياء المخلوقة على أنها أمر مسلم به:
 ﴿وَمِمَّنْ دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَافَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ
 مِنْ شَيْءٍ نُّعَرِّقُ بِرَبِّهِمْ يَحْشُرُونَ﴾. [سورة الأنعام: الآية ٣٨]

كذلك كان الاقتصاد في الماء والمحافظة على طهارته قضيتين مهمتين
 عند (محمد). ولقد رأينا كيف أدى اهتمامه بالاستخدام الرشيد للماء إلى
 إقامة المحميات بالقرب من يبابيعه. وحتى عندما يكون الماء متوفرا نراه
 ينصح بالاعتدال في استعماله. ومن ذلك نهيه عن غسل أعضاء الوضوء
 أكثر من ثلاث مرات حتى لو كان المتوضئ على نهر جار. ويضيف
 (البخاري) قائلا: «وكره أهل العلم الإسراف فيه وأن يجاوزوا فعل النبي
 صلى الله عليه وسلم». وبالمثل نهى محمد عن تلويث المياه، وذلك بمنع
 التبول في الماء.

معاملة الحيوانات:

يقول (محمد): «من قتل عصفورا فما فوقها بغير حقها سأله الله
 عز وجل عنها يوم القيامة». وهو حديث يعكس إجلال محمد واحترامه
 وحبه للحيوانات. ذلك أنه كان يعتقد أنها، بوصفها خلقا من خلق الله.
 ينبغي أن تحظى بمعاملة كريمة، ففي الأحاديث النبوية عدد ضخم
 من الروايات والتوجيهات الخلقية والقصص التي ترسم لنا صورة عن
 علاقته بالحيوانات. وبعض هذه القصص ترينا أنه كان يهتم اهتماما
 خاصا بالإبل والخيول: فهما في رأيه نعم الرفيق في الأسفار والحروب.
 كما كان يجد كثيرا من الراحة والحكمة في صحبتها حسبما يقول لنا
 الحديث التالي: «الخيول معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة».

وحتى فى ذبح الحيوان نجده يبدى قدرا عظيما من الرقة والرحمة. وعلى الرغم من أنه لم يكن نباتيا فإن الأحاديث تبين لنا بوضوح أنه كان حساسا للغاية تجاه معاناة الحيوانات حتى لكأنه كان يشاركها ألمها مشاركة وجدانية. ومن هنا نجده يأمر باستعمال سكين حاد فى الذبح واتباع طريقة مسؤولة من شأنها أن تزق روح الحيوان سريعا بحيث يخف ألم الذبيحة إلى أقصى درجة ممكنة. كما نهى عن ذبح أى حيوان أمام غيره من الحيوانات أو إحداد الشفرة بحضرته. وإلا فكأنه قد ذبحه مرتين حسبما جاء فى حديثه لمن كان يُحدّ شفرته فى حضور ذبيحته. إذ قال له مستنكرا: «أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أهددت شفرتك قبل أن تضجعا؟». لقد كان يكره ذلك كراهية شديدة.

وختاما:

نقول إنه من المستحيل إيفاء المدى الذى بلغته فلسفة (محمد) البيئية. وكذلك الأهمية التى تستأهلها، حققها فى هذه المقالة القصيرة، رؤيته الشاملة للطبيعة وفهمه لمكان الإنسان داخل العالم الطبيعى هما رؤية وفهم رائدان فى مجال الوعى البيئى لدى المسلمين.

ومن أسف فإن الانسجام الذى دعا إليه (محمد) بين الإنسان وبيئته قد تم تجاهله فى أيامنا هذه إلى حد بعيد. وفى الوقت الذى نواجه فيه آثار التلوث والإسراف فى استخدام موارد الطبيعة والتصحير وشح الماء فى بعض الأماكن فى العالم مع المعاناة من الفيضانات والعواصف فى غيرها من الأماكن ربما يكون من الملائم بالنسبة لنا جميعا: مسلمين، ونصارى، ويهودا، وهندوسا، وبوذيين، وملاحدة أن نأخذ ورقة من كتاب محمد ونواجه الأزمة البيئية الحالية بجِدِّ وحكمة.

وقد بين الله تعالى في كتابه الكريم أن (الإفساد) هو السبب الأول في تلوث البيئة فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٥]

وكذلك ذكر الله في آياته ما يؤكد أن ثمة علاقة وطيدة بين حصول الفساد ومعصية العباد.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِمْ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِبَلَدِهِ طَيِّبَةً وَرَبُّكُمْ غَفُورٌ فَاعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ حَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٤ - ١٧]

يقول غوته «GOETHE» الذي أدرك ما جاء في الإسلام وفي كتاب الله الكريم: «إذا كان الإسلام معناه، أن نسلم أمرنا لله، فنحن على الإسلام نعيش ونموت كلنا».

وإذ عقد علماء البيئة في فرنسا مؤتمر باريس فبراير ٢٠٠٧م، فقد انعقد رأى ما يزيد عن خمسمائة عالم من مختلف دول العالم على أن نسبة التلوث بدأت تتجاوز حدودًا لم يسبق لها مثيل من قبل في تاريخ البشر مما يؤدي إلى إفساد البيئة في البر والبحر.

ففي البر فسدت التربة ومعها المياه الجوفية والنبات حيث اختل التوازن النباتي على اليابسة.

ففي البر بدأت الكتل الجليدية بالذوبان بسبب ارتفاع حرارة الجو وكما ذكرنا سابقا.

كما ذهبوا إلى أن الإنسان في كل مكان هو المسئول عن فساد البيئة بسبب تزايد نسبة الكربون في الجو. حيث تضاعفت نسبته إلى أكثر من عشرة أضعاف منذ بداية الثورة الصناعية.
هذا هو ما دعانا إليه الدين الإسلامي.. وما حثنا عليه رسوله الكريم.
فهل نحن فاعلون؟!..



مشكلة السكان فى مصر

كَرَّمَ اللهُ مِصْرَ بِذِكْرِهَا فِي كِتَابِ السَّمَاوِيَّةِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ .
 إِذْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي
 مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا ﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ
 وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴾ . [سورة يوسف : الآية ٢١]

كما ورد فيه : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ
 ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ . [سورة يوسف : الآية ٩٩]
 وذكر في الإنجيل : «مبارك شعبي مصر» (إش ١٩ : ٢٥) ،
 «إذ يعرف الرب في مصر ويعرف المصريون الرب في ذلك اليوم ويقدمون
 ذبيحة وتقدمة وينذرون للرب نذرا ويوفون به» . (إش ١٩ : ٢١)
 وكذلك فى التوراة : «للشعب تقول تقدسوا للغد فتأكلوا لحما لأنكم قد
 بكيتم فى أذنى الرب قائلين من يطعمنا لحما أنه كان لنا خير فى مصر
 فيعطيك الرب لحما فتأكلون» . (عد ١١ : ١٨)

واسم مصر بالعربية هو «مصر» أما بالقبطية فهو «كيمي Kemy» .
 وباللغة المصرية القديمة فهو «كيمت Kemet» وتعنى الأرض السوداء ،
 وهى فى قديم الأزل «مصرايم» نسبة إلى ابن نبي الله نوح عليه السلام
 وهى باللغة الإنجليزية Egypt مشتقة من Egyptor أى قبطى .

ويذكر الدكتور «محمد رياض» فى سفره عن «مصر.. نسيج الناس
 والمكان والزمان» أن ما بين كيميت وتشريت شرقها وغربها صورة متنامية

الصغر حالة ما بين النجوم والثقوب السوداء فى عوالم مجرات الفضاء
. Stars and Black holes

ومن المعروف أن «النجم» حين يبلغ من العمر أزدله، تتركز معظم مادته فى حجم بادی الصغر، بيد أنه شديد الثقل ذو جاذبية تبتلع كل أشكال المادة التى تدنو منها فتضحى هى الأخرى غير مرئية بعد سقوطها، ومواتها فى دائرة الجذب فى الثقب الأسود.

وهكذا حال مصر.. «كيمت» الأرض السوداء تبتلع كل من يأتيها ويقترب منها عبر «دشربت» الأرض الحمراء. بعبارة أخرى كل من أتى مصر من مجموعات وشعوب شمال إفريقيا والشرق الأوسط والجنوب وغرب آسيا ووسطها، كل هؤلاء سرعان ماتمتصه الحضارة المصرية فلا يبقى منه سوى بقايا خاصة طوال فترة سيطرة الأعراب عليها إذ تتلاشى وتتوه وسط خضم الحضارة التى ابتلعتة، وإن بقيت بعض ملامحها فى النسيج المصرى الثقافى كونها إضافة من الإضافات العديدة يتقبلها الناس بسماحة ودون تعصب أو عنصرية!

وبعبارة وجيزة: فإن مصر كانت الحد الفاصل الجاذب الهاضم العاصر بين شعوب ودول الشرق والغرب والشمال والجنوب حولها فيتحولون إلى مصريين بنكهات مختلفة بعض الوقت. البربر والساميون، واليونان، والرومان، والعرب، والأتراك، والزنج، والزنجانيون (شعوب خليط بين سلالات شمالية وزنج) كلهم خليط دخلوا مصر وذابوا فيها ولا تعرف لهم سحن معاصرة سوى ما تركوه من فنون وتصاوير على جدران القبور أو هياكل أجسادهم «إذا لم يعتريها العدم»، أو بعض سواد البشرة وخشونة الشعر، أو بياض البشرة ودرجات شقرة الشعر والعين.. كل ذلك على خلفية اللون «القمحي» السائد بين المصريين.

ومصر كما يذكر «ديودور الصقلي» في القرن الأول قبل الميلاد كانت تبرز سائر أرجاء المعمورة في كثافة السكان وكان يوجد بها في العصر القديم حوالي ثمان عشرة ألف مدينة وقرية ذات شأن وشأو، كما ثبت في الوثائق المقدسة. أما في عصر «بطليموس بن لاجوس» فقد عُد منها أكثر من ثلاثين ألفاً من هذه المدن وتلك القرى لما تزل موجودة حتى الآن. روى المؤرخون «أن روما كانت تطلق على الصحراء الغربية اسم «مخزن الغلال»، إذ كانت مصر تمد روما بكل ماتحتاجه من غذاء وأوكساء وأنه كان يقطن في هذه المنطقة حوالي ثمانية ملايين نسمة». ويقدر بعض المؤرخين عدد السكان في العهد الفرعوني بما يتراوح بين ٧ و ١٢ مليون نسمة.

ويذكر «الصقلي» أن عدد سكان مصر في العصر القديم سبعة ملايين نسمة. قد أجرى تقدير العدد السكاني في العهد الإسلامي فتبين أن عددهم يقرب من ١٤ مليون نسمة انخفض إلى درجة كبيرة خلال فترة الحكم التركي، وفي بداية القرن التاسع عشر أصيب بنكسة كبيرة. وقد قدر العالم «جومار» - أحد علماء الحملة الفرنسية - عدد سكان مصر عام ١٨٠٠م بحوالي ٢,٥ مليون نسمة، وفي عام ١٨٢١م أجرى «محمد علي» تقديراً للسكان من واقع كشوف الضرائب وبلغ عددهم حوالي ٢,٥ مليون نسمة، كما أجرى تعداد آخر للسكان في عام ١٨٤١م طبقاً لعدد المساكن في البلاد فبلغ حوالي ٤,٥ مليون نسمة، وفي عام ١٨٨٢م بلغ عداد السكان سبعة ملايين نسمة.

ومصر عالمياً تجيء في الترتيب السادس عشر من حيث عدد السكان، ومائة وسبعة وعشرون عالمياً من حيث كثافة السكان، وفي الترتيب

الثالث إفريقيا من حيث تعداد السكان بعد نيجيريا وأثيوبيا، والترتيب الأول عربيا من حيث تعداد السكان.

ويبلغ عدد سكانها الآن ما يربو عن التسعين مليون نسمة طبقاً للتعدادات السكانية «Population Census»، التي كان الهدف منها في عهد الحضارات القديمة مقصوراً على معرفة عدد السكان الصالحين للتجنيد ثم - وبالدرجة الثانية - فرض جباية الضرائب عليهم.

أما الآن فإن معرفة عدد سكان أية دولة فالهدف الأول منه هو العمل على زيادة الإنتاج والمضى قدماً في التنمية؛ حتى تغطي حاجات السكان الأساسية. والسؤال الذى يثور - مع ما أكدته الدراسات العالمية أن زيادة هائلة فى عدد السكان تنتظر مصر فى السنوات القليلة القادمة -.. كيف ستواجه مصر هذا الأمر أى الزيادة المضطردة فى سكانها؟

وقد كان لنا بحثاً بخصوص مشكلة السكان فى مصر فاز بالجائزة الأولى من جامعة القاهرة ومن الإدارة العامة للثقافة ووزارة التعليم العالى نوجزه فى الآتى:

إذا كان القول القائل: «إن المرء لا يشيخ إلا إذا شاخت آماله» صحيحاً، فإن هذا ينطبق أيضاً على البلاد، فالبلاد كما ذكرنا فى مقال سابق تشقى وتسعد وتولد وتنمو وتموت، ولكنها تختلف فى أنها إذا قر عزمها ووطدت إرادتها على ألا تموت فإنها تحيا، وتظل هكذا إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

وإذا كان البعض يرى أننا - بصدق - علينا بصدق محاولتنا لإيجاد حل ناجح لمشكلتنا السكانية قول الملكة فى خرافة «أليس» فى مدينة العجائب «إننا نسير وبسرعة فائقة إلا أننا نظل فى مكاننا دون تقدم»!! وكأننا نعود القهقرى إلى الخلف.

إن كان ذلك كذلك، بيد أننا إذا تسلحنا بالآمال واتخذنا الحكمة
القائلة:

«سر على مهل تصل سريعاً»، كما عبر الفيلسوف الألماني «اشبجن»
رمزاً وديناً في معالجتنا لمشكلة السكان في بلادنا فعندنا أن الظفر
سيكون حليقنا ولو على المدى الطويل وسنصل إلى إيجاد توافق عادل
بين قدراتنا وما يعثور طريقنا من عقبات».

وإذا كان البعض قد اقترح هجرة خارجية يقوم بها المصريون من
الراغبين في الترحال مثلما حدث في أوروبا وأمريكا وهولندا وأسبانيا
وغيرها من الدول، فإننا نرد عليهم بأن المصريين بصفة عامة عازفين
عن الهجرة الخارجية فالمصرى بطبعه وطبيعته مُحِب لوطنه متشبث
بأرضها لا يرضى عن ترابها بديلاً.. وفي كتاب «سكان هذا الكوكب»
الصادر عام ١٩٤٧م يقول: «الدكتور محمد عوض محمد»: «إن المصرى
لم يكن في تاريخه الطويل بالشخص الذى يحب النزوح عن وطنه ومن
المشاعد - للأسف - أن كثيرين قد آثروا البقاء مع الفاقة على طلب
الغنى فى أرض غير هذه».

ثمة وجهة نظر أخرى أثارها (Thompson) وهى: «إن الهجرة
إذا تمت على فرض وجود وسائل النقل والأراضى العذراء وهما فرضان
رفضهما بعض العلماء، فإن الهجرة - حتى لو تمت - فإنها لا تحل
مشكلة الازدحام السكاني الذى يوجد فى مناطق القاهرة».

ونرد على هذا الاعتقاد أن الهجرة وهى تنزع الملايين من منطقة
الضغط السكاني ستخفف من ضغط السكان على موارد العيش، وثمة
نظرية جغرافية تقول: «إن منطقة الفراغ تجذب منطقة الضغط، وسوف
تتحسن الصحة العامة وتقل الأوبئة والأمراض وبالتالي يعمل هذا عمله

فى انخفاض معدلات الوفيات ، أما معدلات المواليد فلا ينتظر انخفاضاها نظراً لإقبال الأفراد الباقين فى الداخل - وهم الكثرة الغالبة - على الزواج والإنجاب وعند ذلك يصبح الموقف الديمجرافى كما يلى :
انخفاض ملموس فى معدلات الوفيات بينما تظل معدلات المواليد على حالها من الارتفاع وربما ازدادت ارتفاعاً هنا تحدث الزيادة الطبيعية فى السكان بشكل معوض من عدد الأفراد الذين هاجروا إلى الخارج .

ومع إيماننا بجدوى التنمية الاقتصادية وأهميتها سواء التى تم منها أو التى لم تتم بعد تنفيذها فى الميدانين الصناعى والزراعى بقطاعها المختلفة فإننا نؤمن بأن :

«الموارد الاقتصادية أشبه برجل يمشى الهوينى وراء حصان جامع ، وبالتالي لن يستطيع اللحاق به مادام محتفظاً ببطئه ومادام الحصان على جموحه . ومن ثم لن تتمكن التنمية الصناعية أن تلحق بالسكان فى نموهم إلا إذا زدنا من سرعة الرجل وقللنا من سرعة الحصان» .

هل لنا أن نقترح - دون أن ترتفع العقائر بمهاجمتنا - تكوين حملات تدعو إلى تنظيم النسل . نقول تنظيم النسل وليس تحديده ، فلقد آن الأوان أن نبدد ما ران على الأذهان أن هذا العمل ما هو إلى الكفر المبين .. وجاء على لسان «عمرو بن العاص» وهو يخطب فى أهل مصر: إياكم وخلال أربع فإنها تدعو إلى التعب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى الذلة بعد العزة .. إياكم وكثرة العيال وانخفاض الحال وتضييع المال ، والقييل بعد القال .

وفى الفتوى الصادرة من دار الإفتاء برقم (٨١) سجل (٤٣) فى ٢٥ يناير سنة ١٩٦٢م وفى حديثه مع الكاتبة «هان سون» ذكر شيخ الأزهر أنه يوافق على (تنظيم النسل) وليس (تحديده) إلى الحد الذى

لا يضر بالأمة ويفقدها العدد الكافي من القوة العاملة فى المزارع والمصانع وصفوف الجيش للدفاع عن البلاد وهى شروط تتوافر فى مصر إلى حد بعيد.

وفى ١٠ مارس عام ١٩٥٣م أفادت لجنة الفتوى بالجامع الأزهر أن استعمال دواء لمنع الحمل مؤقتاً (لا يُحرم عند الشافعيين).. أما استعمال دواء لمنع الحمل دائماً (فهو حرام).

أما عند الدين المسيحى فإن مجموعة القوانين الكنسية وإن كانت قد قضت بأن الهدف من الزواج هو الإنجاب... إلا أن الكنيسة الكاثوليكية قد أعطت ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

وفى كتيب صغير معد للتوزيع على الشباب بكنيسة «اللوثرين» جاءت فيه جملة تقول:

(نذكر دائماً أن الأطفال ميراث من الله، وتحديد النسل رخصة إلهية يجب ألا يساء استعمالها، والأطفال نتيجة حتمية لأى زواج ناجح).

وقد صرح الرئيس الراحل «جمال عبد الناصر» ذات يوم أن اعتقاده أن مشكلة تنظيم النسل لا تحل إلا عن طريق العلم وحده.

وأمامنا باب لم نلجه حتى الآن وهو الهجرة الداخلية أو ما تسمى الهجرة الموسمية وهى تقع داخل حدود الوطن نفسه، وأمثال هذه الهجرات معروفة وطبقت بنجاح يدعو إلى الإعجاب، وترسم الخطى فى بلاد عديدة.

وها هى نى الولايات المتحدة الأمريكية فى فجر نهضتها يهاجر الكثير من أبنائها بعد تحرير الرقيق من جنوبها إلى شمالها حيث المراكز الصناعية آنذاك.

وفرنسا هي الأخرى عرفت - ولا زالت - مثل هذه الهجرات فيهاجر السكان من هضبتها الوسطى إلى جهات أخرى مثل حوض باريس وغيره. أما لندن فقد هرع عمال المناطق الشرقية وأسرهم إلى الجهات الجنوبية للعمل في حقولها واستثمارها.

ولما كان ذلك كذلك وكانت في بلادنا مناطق عديدة لم تمتد بعد يد التعمير إليها. فلماذا لا ينظم المسئولون مثل هذه الهجرات الداخلية للراغبين فيها وهم بالملايين لبلانتقال إلى مثل هذه البقاع وتعميرها. فالصحراء الشرقية وسيناء كانت ولا تزال كنز مصر المدفون في باطن الأرض بين الرمال والجبال والسيول والوديان تبلغ مساحتها ٢٢٣٠٠٠ كيلو متر مربع أسهمت عبر آلاف السنين في نشأة الحضارات الإنسانية وبنائها بثرواتها المعدنية من ذهب ونحاس وحديد وزمرد، وزبرجد، وفيروس وكانت مرتعاً خصباً للمغامرين الذين ينهبون ثروتها ويستولون على كنوزها.. ومثال إسرائيل شاهد على ذلك إبان احتلالها لها بعد حرب ١٩٦٧م.

وإنها وإن كان قد تراجع دورها في التنمية الاقتصادية وللعجب منذ العصر البلطمي فإن الاقتصاد المصري ينتظر أن يلعب دوره في هذه المنطقة الحيوية من بلادنا.

والتي بمكنتها أن تنوع من مصادر الاقتصاد المصري، ولاسيما أن شعاع بريق الذهب المصري بدأ يلمع فيها من جديد فلقد كانت مصر في الأحقاب الفرعونية تمثل أكبر مستودع للذهب في العالم القديم.

لقد ذكر عالم جليل هو الدكتور «محمد لطفى عبد الخالق» العميد السابق لكلية العلوم بالقاهرة: أن المصريين المحدثين لم يكتشفوا مناجم

جديدة للذهب غير التي اكتشفها قدماء المصريين، ويردف هذا العالم الجليل: إن هناك مناطق كثيرة بالصحراء الشرقية يمكن أن يستخرج منها الذهب ناهيك عن معادن أخرى مطمورة في الجبال وباطن الوديان بهذه الصحراء، هذا فضلاً عن وجود اليورانيوم مع خام الفوسفات وإمكانية الاستفادة منه في مشاريع المحطات النووية، بالإضافة إلى الحديد الذي يحتل المركز الأول في تجارة المعادن الدولية، فإن هذه الصحراء الشرقية زاخرة بتكوينات الحديد الطبقية في أكثر من ثلاثة عشر موقعاً من أبرزها: أبو مروات، ووداي كريم، ووداي الدباح، وأم خميس الزرقاء، وأم نار، ووداي الدب، ووداي العش.

وتأتى الصحراء الغربية التي يراها العلماء، الأولى في صحراء العالم نظراً «لشدة قحولتها» وما تحويه من ظواهر نادرة وتنوع بيولوجي وجيولوجي لا مثيل له في كل الدنيا. رصدته كتب باللغة الثراء. ولعل أغرب ما تحكيه هذه الكتب ما سجلته أول رحلة صحفية لصحفيين من جريدة الأهرام عام ١٩٣٦م حيث اجتازوا هذا المجهول حتى وصلوا إلى حدود السودان وقاموا بتصوير كهوف إنسان العصر الحجري في هذه الصحراء الغربية التي اكتشف فيها الحديد بكميات كبيرة في الواحات البحرية كما سجل كاية عام ١٨١٩م، وزيتل، رولفس، وليونز، وغيرهم من العلماء، وجاءت أحدث الاكتشافات على يد العالم الجيولوجي الكبير الدكتور عبده البسيوني في ١٩٦١/٩/٢١م اسمها «منطقة الجديدة لخام الحديد، ويعتبر ما اكتشفه أكبر منجم حديد في مصر حتى تاريخه: لقد ذكر ذلك في كتابه «خام الحديد في مصر.. مواقع استكشافه.. الدراسات الجيولوجية - نظريات تكوينه، وتفضل هذا العالم فأهداني

سفره العلمى هذا، الذى عكفت على استقراءه وتأكد لى أن هذا الاكتشاف
الفريد ينبئ عن طفرة اقتصادية هائلة تنتظر مصر من خلاله.

وقد عرض فى كتابه هذا عرضاً علمياً موسوعياً من خام الحديد
فى مصر تعرض فيه إلى «جيومورفولوجية» مصر وسياستها التعدينية
والمشروع القومى لاكتشاف خام الحديد فيها.

وذكر فى مقدمته لكتابه أن المصريين القدماء قد عرفوا صناعة الحديد
باستخدامه فى تصنيع الأسلحة وأدوات قطع الأحجار وكذلك فى بناء
الأهرامات والمعابد، وكان ذلك يعود إلى اكتشاف خام الحديد فى أرض مصر.
كما تكلم عن منشأ الحديد «Source of Iron» بالوحدات البحرية
ووجود سخور «البازلت» فى كل من منطقة «الهفوف» و«منديشة»
و«معيصرة» على نفس محاور التراكيب الجديدة.. هذا الحديد الذى لو
أولت له مصر اهتمامها وقرأ المسئولون ما ورد بهذا الكتاب العلمى الدقيق
ليتقنوا أن مصر تموج بثروة معدنية ضخمة تبشر بمستقبل اقتصادى
زاهر لها.

ولاسيما أن الصحراء الشرقية - هى الأخرى - تزخر بهذا المعدن
النادر الذى نزل من السماء هبة من الله لمصر والمصريين وقد صدق الله
تعالى حين قال:

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ
وَرَسُولُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٥]

وقد كانت هذه الصحراء فى غابر الزمان قاعاً من البحر ثم عادت
بعد ذلك إلى البر، بعد أن توالى عليها أربعة عصور ممطرة خلفت
كمًا هائلًا من الحفريات منتشرة ومنتثرة فى أرجائها من شجيرات

المانجروف، والشعاب المرجانية المتحجرة، والأصداف البحرية، وهياكل القروش، والحيتان، وأيضاً الديناصورات العملاقة. كما تركت بصمات جيولوجية بالغة الثراء والندرة مثل الصحراء البيضاء، والصحراء السوداء، وجبال الكريستال، واثنى عشر منخفضاً، وكهوفاً، ومغارات، وعلى رأسها كهف. وادى ستور بمحافظة بنى سويف، وهو كهف يقع بباطن الأرض، وسط عروق الألبستر. وأيضاً كهف جاره بواحة الفرافرة بالصحراء الغربية. ثم هناك عدد كبير من الكهوف والمغارات بمنطقة العوينات والجلف الكبير.

ومن عجب أن كسوفاً ما زالت تترى تكشف فى كل يوم عن بصمات جيولوجية بالغة الأهمية كما سبق ذكره وبيانه وقد عثر فى واحة الفرافرة على كهف سمي بالكهف الأبيض عمره يمتد إلى آلاف السنين، وعلى جدرانها منحوتات لكهوف سباع، ويرى الرائي فيها أدوات الإنسان الأول المصنوعة من شظايا الحجارة مثل رؤوس الأسهم، والحراب، وأدوات القطع، وبقربه شكل هرمى مكون من أحجار زجاجية بنفسجية بارتفاع أربعة أمتار، ولا وجود لمثل هذا التشكيل فى أى مكان قريب مما يشكل تكويناً جيولوجياً بالغ الروعة.

وسوف يرى الرائي فيها منتجمات وفنادق بيئية تعتمد فى بنائها على الخامات الطبيعية المحلية مثل فندق الجبل الأبيض بواحة سيوة الذى احتل المرتبة السابعة وسط فنادق العالم البيئية.

ولطالما تحدث المتحدثون ممن جابوا هذه الصحراء عن «واحة سيوة» والتى يطلق عليها «واحة آمون» المرتبطة «بالإسكندر الأكبر المقدونى» الذى بعد أن استولى على مصر وشرع فى إنشاء مدينة الإسكندرية خطر

له أن يزور معبد آمون بسيوة الذى قد نال شهرة عمت آفاق العالم القديم بأسره وفى شتاء عام ٣٣١م خرج الإسكندر بموكبه من الإسكندرية يصحبه بعض رفاقه مع وحدات من الجيش متجهين إلى ناحية الغرب.. إلى باراتونيم (مرسى مطروح) حاليا ومنها إلى الجنوب فى طريق القوافل المعروفة باسم سكة السلطان. ويحكى أنه بعد أيام نفذ الماء الذى بحوزتهم فاستولى الرعب على الجميع وثاروا فيما يفعلون، إلا أن العناية الإلهية قد حلت عليهم، فقد هطلت أمطار غزيرة مع أن هذه المنطقة نادرة المطر، وبذلك استطاعوا ملء جرارهم من مياه هذا السيل العارم ولكن بعد عدة أيام هبت عاصفة رملية شديدة من الجنوب وضاعت معالم الطريق وفجأة ظهر لهم طائران يحلقان فى السماء وفى الحال أصدر الإسكندر أوامره بأن تتبعهم القافلة قائلا: إن هذين هما رسولان من آمون وعلى هداهما وصلوا إلى سيوة ويبدو أن الإسكندر لم يخبر كهنة آمون بهذه الزيارة ولذلك ومن ثم بدت الدهشة عليهم، وعندما رأى أهل سيوة وكهنة آمون القافلة القادمة فى الحال خرج الكهنة لاستقباله ورافقه حتى معبد آمون وعلى بابيه وجد الكاهن الأكبر يدعو إلى أن يدخل إلى الصومعة الداخلية لكي يستشير آمون بنفسه، إكراما لشخصه. ومكانته، ولما خرج بدا عليه السعادة والرضى ولما سأله صحبته بعد ذلك عما حدث رفض أن يبوح بشيء من هذه الأسرار وأعلن أنه لن يبوح بها إلا «لأمة» ولكنه انتقل إلى بارثه قبل أن يصل إلى والدته، وورى الثرى، وهو يخبئ فى صدره الأسرار التى قالها له آمون. وقد اكتشف الرحالة الذين شدوا رحالهم إلى هذه المنطقة أقدم آثار لأقدام بشرية على وجه الأرض قدر عمرها بثلاثة ملايين عام.

ناهيك عما يوجد بهذه المنطقة «عيون بئر كيغار»، «معبد الوحي أو التنبؤات»، و«جبل الموتى» الذى يوجد به آلاف المقابر المنحوتة أعلى الصخور ويرجع تاريخها إلى العصر البطلمى أو الرومانى المتأخر وتحوى هاتيك المقابر زخارف ونقوش لأهم الملوك، والعظماء من أهمها: «مقبرة سى آمون، مقبرة التمساح، جزيرة فطناس، مقبرة نى بر باجحوتى، جبل الدرور».

هذه الأقاليم وتلك الأصقاع وهاتيك البقاع التى تزخر بها مصر وكثافة السكان فيها جد قليلة.. ألا نعمل على نزوح المصريين إليها حتى نخفف عن مصر الأقاليم السكانية المتخمة بالسكان منها أو العمل على سن قانون يلزم المصريين على اختلاف نحلهم وتبين وظائفهم وأعمالهم يلزمهم بأن يعملوا بهاتين الصحراوين الغربية والشرقية، وأن يقوموا بتشجيع من الحكومة المصرية بتعميرها والعمل على نهضتها.. فهى الوجهة الباسم الجميل لمستقبل مصر الوضاء.

أما مشكلة سكان القاهرة.. هذه المدينة التى اكتظت بسكانها، وأوشكت على أن تتوقف حركة الحياة فيها من هذا التكسد الغريب العجيب للسكان الذين حلا لهم سكنها.

فإننا نرى أن أوجه الآراء فى هذا الصدد هو نقل الوزارات المختلفة الموجودة بها.. فلماذا لا تنقل مثلاً وزارة الزراعة إلى طنطا فى وسط الدلتا فى إقليم اشتهر بالخصوبة وازدهار إنتاجه الزراعى.. ووزارة الصناعة كذلك على سبيل المثال.. لماذا لا تنقل إلى أسوان مركز السد العالى وبقيّة الوزارات كل فى المكان المناسب لرسالته.

هذه هي مشكلة السكان.. وذاك - كما نعتقد - هو علاجها.
وقد صدق صاحب كتاب «المدينة على مر العصور» «City in history»
حين قال في كتابه هذا:
«وعظات التاريخ تدل على أن مثل هذا التركيز للتراكم السكاني في
بلدان معينة لذاتها كان في حالات متكررة دليلاً على حلول المرحلة
الأخيرة للمدينة قبل انهيارها وسقوطها».



مشكلة المخدرات

عبر عقود طويلة من الزمن قد خلت، فقد عملت في بواكير حياتي قاضيًا لجنوب الوادي، وتنقلت خلال مدة تنيف عن العشر سنوات بين النيابة المختلفة، ثم توسدت كرسى القضاء في هاتيك النيابة ومع العدد العديد من القضايا التي نظرتها لم أجد عددًا يترى يومًا بعد يوم خلال ساحات المحاكم التي عملت فيها مثل قضايا المخدرات.

كانت هاتيك القضايا هي القاسم المشترك الأعظم في جل القضايا التي أمنت فيها نظري وأنعمت فكري، تراوحت هذه القضايا بين التعاطي والاستعمال الشخصي، والإتجار، وبين الحيازة والإحراز، ناهيك عن قيام بعض المتهمين بالعكوف على أراضيهم الضئيلة المساحة التي لا يكفي نتاجها من الأموال التي يتحصلون عليها بعد بيع زراعتهم في الأسواق التي يمتلكها البعض، ويستأجرها البعض الآخر، ودأبهم زراعة جزء من أراضيهم بأنواع مختلفة من المخدرات يخفونها حتى لا تقع عليهم أعين الشرطة الساهرة على حفظ الأمن وعلى محاربة تعاطي المخدرات أو الإتجار بها، حيث كانت الشرطة تنجح - في الأغلب الأعم تنجح كثيرًا - في إلقاء القبض على أولئك المتهمين واقتيادهم إلى قصور النيابة، أو ساحات المحاكم.

وكان العجب يأخذني؛ إذ إن المتهمين الذين كان يمثلون أمام المحكمة هم من الفقراء المعوزين يعتورهم الهزال، ويعلو وجههم الصفرة، فهم دائمًا مصفري الوجوه هزال الأجسام، وكأنهم أشباح جاءوا من دنيا أخرى؟! |

ولقد تفتت جريمة الحيازة أو الإحراز أو الإتجار بهذه السموم القاتلة في جنبيات الوادى بل فى ربوع مصر بأكملها ولولا تعقب رجال الشرطة لهؤلاء الذين أجزموا فى حق أنفسهم وعائلاتهم ووطنهم لرقدت مصر على بحر من المخدرات ليس له من مرفأ ترسو عليه.

عكفت على قراءة الكثير من الكتب التى عالجت هذا الموضوع وسبرت غوره وعللت أسبابه.

رأى «هارس» أن الاكتئاب هو العامل الأساسى للإدمان. اتفق معه «سميث» فى ذلك حيث ارتأى أن المدمن شخص قد أصابه الاكتئاب الزمن قبل استخدامه المخدر وثلت قدرته، وتوقفت إرادته عن إرجاع إشباعه منها.

أما «كولن» فقد عزا الإدمان إلى أسباب ثلاثة تتحصن فى المرض والاضطرابات الشخصية وعامل الوراثة، ناهيك عن العوامل الاجتماعية الأخرى التى تدفع الإنسان إلى الإدمان.

قد رأى البعض الآخر أن إدمان المخدرات يرجع إلى البيئة التى نشأ فيها وترعرع بين أروقتها، من خلال مخالطته لأصدقاء السوء، إذ إن المدمن يتأثر بمن يخالطه، (فالطيور على أشكالها تقع)، فصديق السوء يؤثر إيجاباً فى صديقه السوى، فالأول يتأثر دائماً ببيئته وبعض الأفلام التى يشاهدها نتيجة اضمحلال ثقافته أو جهله التام لما يفعله أو يقدم عليه، والبيئة كما هى فى رأى العلماء هى المنزل كما جاء فى أحد معاجم اللغة العربية.

وفى دراسة اسككت «Schuckit» وقد أجرى دراسته على البيئة وتأثيرها على أبناء المدمنين قد أفصحت عينة الدراسة أن بعض الأبناء الذين وقعوا فى بئر الإدمان كان آباؤهم من المدمنين.

وأثبتت إحدى الدراسات التي أجريت على مدمنى الأفيون والهيرويين بمستشفى رانجو ببروما أن ٥٣٪ من مدمنى الأفيون، و٦٩٪ من الهيرويين تعلموا كل شىء عن المخدر عن طريق آباءهم وأصدقائهم. ولقد أضحت مشكلة تعاطى المخدرات مشكلة عالمية بخطورتها وأبعادها. مما دعا الولايات المتحدة الأمريكية فى عهد رئيسها «جون كيندى» إلى عقد مؤتمر بالبيت الأبيض لمناقشة أبعاد هذه المشكلة الشائكة التى ضربت جنبات البيت الأمريكى، وعهد المؤتمر للجنة تسمى لجنة الرئيس الاستشارية شارك فيها عدد من علماء القانون الجنائى والطب والاجتماع ورجال القضاء ومكافحة المخدرات ارتأوا جميعاً تغليظ عقوبة تعاطى المخدرات حتى تكون رادعاً لمن تسول له نفسه اقتراف هذه الجريمة النكراء.

وما نجحوا فى هذا، مما يؤكد تفاقم هذه المشكلة العالمية.. فالمخدرات تزرع فى دولة وتنتج فى أخرى، وتنتقل عبر الأنهار والبحار والمحيطات إلى دول أخرى.

ونذكر فى هذا الصدد القضية رقم ٢٣٤٤ جنایات مخدرات السويس فى عام ١٩٨٣م تهادت سفينة تدعى «ريفى ستار» على مرفأ مدينة السويس، وقد اكتشف على متنها كمية مهولة من المخدرات كانت فى طريقها إلى بئها وتوزيعها فى مصر وغيرها من الدول حتى ضاقت سجون العالم بدمنى هذه السموم القاتلة.

وقد سألت مجلة القانون الوطنى التى تصدر فى الولايات المتحدة الأمريكية أحد مأمورى الضبط القضائى عن مشكلتهم الأولى فى محاربة المخدرات، فجاء رده صادمًا إذ قال فى جوابه عليه: «ضيق السجون؟!».

المخدرات تزرع فى جميع أنحاء العالم بأنواعها المختلفة بدءاً من الهيرويين والكوكايين و المارجوانا و القنب الهندى الذى يستخلص منه مجموعة من مشتقات المخدرات ، كما أخبرنى أحد كبار الشرطة وهو اللواء «باسم لبيب».

إن حرباً ضرورياً يجب أن تشرع فى وجه متعاطى ومتاجرى المخدرات يجب ألا تهدأ، لانتشال أولئك البائسين من بؤرتها التى عمت وطمت وأمسدت داءً وبيلاً يهدد المجتمع برمته.

فمن يتعاطى المخدر فى المرة الأولى لا يكف مطلقاً عن تعاطيه . ولطالما ونحن جلوس فى قاعات المحاكم المختلفة قد شاهدنا العدد الوفير من أولئك الذين وقعوا فى فخ هذا السم القاتل.

وقد لاحظنا وجود كم هائل من قضايا المخدرات تمتلئ بها دور العدالة، وإذ سألنا أحدهم ذات يوم، وقد كان قد حكم عليه فى جناية تعاطى المخدرات ، وأصبح بالتالى عائداً ينطبق عليه قانون العود من الذى دفعك إلى هذا؟.. فرد علينا قائلاً وقد أقر بجريمته: إننى لا أستطيع أن أبتعد عن تعاطى المخدرات فإنها تنسينى ما أعانيه من البلىا والرزايا؟!.

إذن صدق من قال: «حذار من الكأس الأول» فالكأس الأول يجرك إلى أن تترع وأن تتجرع المزيد من الكئوس القاتلة.

وفى تقرير خاص كتبه «ركيل فليك» خص به مجلة «Readers Digest» عثرت عليه ضمن الكتب التى أحتفظ بها فى مكتبتى جاء عنوانه يتساءل ويقول «من يأسه من انتشار ظاهرة المخدرات» هل نخسر حرب المخدرات؟

ونحن نرى أن الدين وحده سواء الإسلامى أو المسيحى كلاهما كفيلا إذا ما انعقد عزم الدعاة على ذلك من خلال أجهزة التلفاز والصحف والمساجد والكنائس على القضاء قضاءً مبرماً على هذه الظاهرة المقيتة التى ترحل كل يوم بسوءاتها من بلد إلى بلد ومن بيت إلى بيت ، ومن ساحات المدارس إلى باحات الشوارع حتى أصبحت تهدد مصر بالمزيد من الكوارث.

قال «الحافظ أبو بكر البيهقى» إن رجلاً جاء إليه ، وكان يتعاطى الخمر (وبهذه المناسبة ندعو المشرع إلى وضع الخمر الذى يخامر العقل مثله تماماً مثل المواد المخدرة إلى جدول المخدرات) امتثالاً لأمر الله ، وقد ألقى الرجل عن تعاطيه فسأله :

- لماذا تركت الخمر؟ ، فأجاب : إننى أكره أن أصبح سيد قومى ، وأمسى سفيهم».

وفى الأثر ورد أن أحداً من الناس كان قد تعود على معاورة بنت الحان (الخمر) فلعبت برأسه حتى اختلط عليه الأمر فخيلى إليه أنه يرى القمر فى رابعة النهار ، ويبصر الشمس فى غلس الليل ، فشرع يقفز فى الهواء ليتناول القمر فى السماء ظناً منه أنه يمكنه هذا ، وأخذ يقفز ويقفز حتى انطرح أرضاً ، وراح فى غيبوبة ، وبعد أن أفيق قال :

- والله لا أشرىها بعد ذلك أبداً.

ومن نافلة القول أن تعاطى المخدرات أو الإتجار فيها مقصورة على الفقراء دون الأغنياء فكلاهما سواء بسواء ، فعند غياب الدين ، يغيب اليقين.

ولقد صدق أمير الشعراء «أحمد شوقي» حين قال:

كفاني ثراء أننى غير جاهل وأكثر أرباب الغنى اليوم جهال

ويقول الشاعر عن هؤلاء الذين تنكبوا جادة الطريق الدينى وضاع

منهم محجة الثواب الذين يكتفون من الذهاب إليه إلى الإياب منه:

إذا كانت السماء قفراً فنحن لا نجدف على أحد

وإذا كان من يسمعنا فليشملنا برأفته

فأولئك الذين سقطوا فى بئر هذه الجريمة لسان حالهم يقول:

أبغى الأنيس فلا أرى لى مؤنسا إلا التردد حيث كنت أراك

وهم كذلك بعد ودعوا آخرتهم بدنياهم فهم قول الشاعر يرددون:

سلام على الدنيا ولذة عيشها سلام غدو أو رواح إلى الرسم



مشكلة المياه

الماء إذا (فاض) فهو منبع الخير والنماء.
وإذا هو (غاض) فقد أصبح سبب الوفاة والبلاء.
فلما هو سر الحياة.

وقد وردت كلمة المياه (الماء) في آيات كريمة عديدة من القرآن الكريم
قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. [سورة
الأنبياء: الآية ٣٠]

وقال سبحانه:

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَلِنَاعِلَ ذَهَابٍ بِهِ لِقَدَرُونَ﴾.
[سورة المؤمنين: الآية ١٨]

كما قال: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾. [سورة
الرعد: الآية ١٧]

كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْ خِلَافَهَا أَنْهَارًا﴾.
[سورة النمل: الآية ٦١]

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ
جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾. [سورة الواقعة: الآية ٦٨ - ٧٠]

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [سورة
البقرة: الآية ٢٢]

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ
عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. [سورة هود: الآية ٧]

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [سورة الطارق: الآية ٥ - ٧]

﴿وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٩]

وعن الماء قال الجاحظ في كتابه «تهذيب الحيوان»:

«قالوا: مد الشعبي (وكان من كبار حفاظ الحديث)، يده وهو على مائدة قتيبة بن مسلم يلتمس الشراب، فلم يدر صاحب الشراب: اللبن، أم العسل، أم بعض الأشربة؟ فقال له: أي الأشربة أحب إليك؟ قال: أعزها مفقودًا، وأهونها موجودًا! قال قتيبة: اسقه ماء.

وكان أبو العتاهية في جماعة من الشعراء عند بعض الملوك، إذ شرب رجل منهم ماء ثم قال: برد وطاب! فقال أبو العتاهية: اجعله شعراء. ثم قال: من يجيز هذا البيت؟ فأطرق القوم مفكرين، فقال أبو العتاهية: سبحان الله وما هذا الإطراق؟ ثم قال:

برد الماء وطابا حبذا الماء شرابا

وقال الله عز وجل: ﴿أَتَنْهَرُونَ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] ثم لم يذكره بأكثر من السلامة من التغيير، إذ كان الماء متى كان خالصًا سالمًا لم يحتج إلى أن يشرب بشيء غير ما في خلقتة من الصفاء والعذوبة، والبرد والطيب، والحسن، والسلس في الحلق».

وقد قال عدى بن زيد:

لو بغير الماء حلقي شرق كفت كالغصان بالماء اعتصاري
وأوصت امرأة ابنتها بوصايا، فكان منها: «وليكن أطيب طيبك الماء!».

ومن الأمثال :

فأصبحت مما كان بينى وبينها سوى ذكرها كالقابض الماء باليد
وأخذ المسيح عليه السلام فى يده اليمنى ماء وفى يده اليسرى خبزاً
فقال: (هذا أبى، وهذا أمى). فجعل الماء أبياً.
وما ظنكم بشراب إذا خُبث وملح فصار ملحاً زُعاقاً، وبحراً أجاجاً،
ولد العنبر الورد، وأنسل الدر النفس، فهل سمعت بنجل أكرم ممن
نَجَله، ومن نتاج ممن نَسله.

وقال الله عز وجل: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ
عَنْ سَاقِيهَا﴾. [سورة النمل: الآية ٤٤]

لأن الزجاج أكثر ما يمدح به أن يقال: كأنه الماء فى الفيافى.
وقال الله عز وجل: ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾. [سورة فاطر: الآية ١٢]
وقال القطامى:

وهن ينبذن من قول يُصين به مواقع الماء من ذى الغلة الصادى

وقال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾. [سورة النور: الآية ٤٥]
فيقال: «إنه ليس شىء إلا وفيه ماء، أو قد أصابه ماء، أو خلق من ماء».

وقال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾. [سورة هود: الآية ٧]

وقال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾. [سورة ق: الآية ٩]

وحين اجتهدوا فى تسمية امرأة بالجمال والبركة، والحسن والصفاء،
والبياض، قالوا: «ماء السماء»، وقالوا: المنذر بن ماء السماء.

ويقال: صيغ له ماء، ولون له ماء، وفلان ليس فى وجهه ماء،
وردنى فلان ووجهى بمائه. قال الشاعر:

«ماء الحياء يجول فى وجناته»

وقالت أم فروة فى صفة الماء :

وما ماء مزن أى ماء تقوله تحذر من غر طوال الذوائب
بمنعرج أو بطن وإذ تحدثت عليه رياح إلزن من كل جانب
نفى نسيم الريح القذى عن متونه فما إن به غيب تراه لشارب
بأطيب ممن يقر الطرف دونه تقى الله واستحياء بعض العواقب

والأبيضان : الماء واللبن ، والأسودان : الماء والتمر .

وسواد العراق : ماؤه الكثير .

والماء إن كان هل عمق اشتد سواده فى العين .

وهو بعد ظهور الأبدان ، وغسول الأدران .

وقالوا : هو كالماء الذى يطهر كل شىء ولا ينجسه شىء .

وقال النبى - صلى الله عليه وسلم - فى بئر رومة : «الماء لا ينجسه شىء» .

ومنه ما يكون الملح والبرد والثلج ، فيجتمع الحسن فى العين والكرم

فى الصفاء والبياض ، وحسن الموقع فى النفس .

وبالماء يكون القسم ، كقول الشاعر :

غضبى ولا والله يا أهلها لا أشرب البارد أو ترضى

ويقولون : لو علم فلان أن شرب البارد يضع من مروءته لما ذاقه ! .

ويعتبر نهر النيل أطول أنهار العالم حيث يمتد من منابعه الاستوائية حتى

مصبه فى البحر المتوسط مسافة ٦٦٥٠ كم (٤١٥٧ ميلا) ، ويقع نهر النيل

داخل تسع دول إفريقية (بوروندى - رواندا - زائير - تنزانيا - أوغندا -

كينيا - أثيوبيا وهى دول المنبع ، ومصر والسودان وهى دول المصب) .

ينبع نهر النيل من العديد من البحيرات والنهيرات الإفريقية مثل بحيرة فيكتوريا الاستوائية، بحيرة إدوارد الاستوائية، بحيرة ألبرت (مويوتو) وبحيرة تانا ثم يخترق النيل أراضي السودان حيث يلتقى النيل الأبيض بالأزرق ثم إلى نهر عطبرة ثم إلى أرض مصر. وتعتبر حصة مصر محصلة تاريخية وقانونية وهندسية وتعاون مشترك تجسدت مع دول حوض النيل من خلال جهود الاستفادة القصوى من مياه النيل واستقر الرأي على أن تكون حصة مصر سنويا بواقع ٥٥,٥ مليار متر مكعب سنويا ونظمت حصة مصر من خلال عدة معاهدات واتفاقيات (معاهدة أديس أبابا ١٩٠٢م - معاهدة لندن ١٩٠٦م - معاهدة ١٩٢٥م بين بريطانيا وإيطاليا - اتفاقية ١٩٥٩م بين مصر والسودان).

المشهد الاستراتيجي لدول حوض النيل

- و تعتبر أثيوبيا أهم دول المنبع بالنسبة لمصر نظرا لحجم الإيراد المائي الوارد منها في إطار الحوض الشرقي لنهر النيل ومع ذلك فلا ترتبط أثيوبيا مع مصر بأى اتفاق تنظيمي باستثناء اتفاقية عام ١٩٠٢م بين كل من بريطانيا (المسئولة عن مصر والسودان)، وإيطاليا كانت هي (المسئولة عن الحبشة) فى ذلك الوقت وهى اتفاقية تقضى بعدم قيام الحبشة بأى أعمال على النيل الأزرق أو نهر السودان، وبحيرة «تانا» هذه هى البحيرة التى ثار بشأنها خلاف اشتجر بين إنجلترا وإيطاليا حيث كانت الأولى تطمع فى وضع يدها والاستيلاء عليها منذ أمد طويل، وقد ابتلعتها. إنجلترا فى جوفها آنذاك، بعد أن قسمت الغنيمة بينها وبين إيطاليا باحتلالها لهذه البحيرة وترك يد إيطاليا تعبت فيما عداها.

ومن الجدير بالذكر، أن مصر وقعت مع أثيوبيا عام ١٩٩٣م إطاراً للتعاون يتناول موضوع استخدام مياه نهر النيل تفصيلاً من خلال الخبراء على أساس اتفاقي للمجارى المائية الدولية المؤسس على الاستغلال الأمثل والمنصف وعدم الضرر والتعاون بين دول النهر. إلا أن أثيوبيا تقوم حالياً ببعض الأعمال بشكل منفرد، وهى فى سبيلها لتشييد (سد النهضة) الذى يؤثر على حق مصر طبقاً للاتفاقية المعقودة بينها وبين مصر وغيرها من الدول منذ أمد طويل من خلال الاتفاقية المعقودة معها فى هذا الخصوص، مما يتهدد مصر ويهدد المصريين بنقص شديد فى حقها المائى طبقاً للاتفاقات الدولية بخصوص وادى النيل.

وقد عُرف (الوادى) كما ذكر أستاذ علوم الأرض بهيئة المواد النووية الدكتور «على السكرى» فى كتابه المميز «علوم الأرض عند العرب» بأنه: كل منفرج بين الجبال والتلال والأكام وهو أعظم مجارى السيل، وتقابل كلمة الوادى لفظ valley فى اللغة الإنجليزية ويقصد بها فى كتب علوم الأرض نفس القصد المذكور.

وقد ذكر كتاب الجيولوجيا الطبيعية لـ «جور شكوف» أن مجارى المياه إنما تأتى من حوض النهر إلى مسايل المياه حيث تتجمع فى مجرى واحد. وهكذا نهر النيل الذى ربط بمجراه بين مصر إحدى دولتى المصب وغيرها من دول المنبع التى اتفقت جميعها دون مصر والسودان على رغبتها فى ابتلاع جزء كبير من حق مصر فى مياهها، فى جوفها.

إن مشكلة نقص المياه من مصر وما سوف يطرأ عليها مستقبلاً تشكل همّاً كبيراً على جانب عظيم الخطر بالنسبة إلى مصر.

ولقد أوضح التقرير الصادر عن المجلس العالمى للمياه أنها - أى المياه - ستكون محل صراع فى العديد من بقاع العالم.

ولقد سبق لنا فى مقال قد كتبناها بجريدة الأخبار بتاريخ ٢٤/٥/٢٠٠٩م نشر ضمن مقالاتنا المطبوعة فى كتابنا الصادر عن دار المعارف فى شهر يناير ٢٠١٣م بعنوان «خواطر قاضٍ» قلنا فيه :

(لا مشاحة أن نقطة الماء أصبحت توازى نقطة الدماء كما عبر «كليمنسو» رئيس الوزراء الفرنسى الشهير منذ سنين طويلة خلت، وقد أفصحت الإحصائيات على ما يقرب من مليار نسمة أو يزيد من سكان الأرض يعيشون على سطح الأرض، وليس بمكنتهم الوصول إلى المياه النقية.. وفى بعض البلدان مثل الهند فإن نقص المياه الجوفية سيؤدى إلى إنهاء الزراعة فيها.. وفى الصومال - فى المناطق الريفية فلا بد من السير ثلاث ساعات يومياً من أجل الوصول إلى ماء شرب نظيفة).

وفى كتاب «دارفور» قال مؤلفه البروفسير «محمد سعيد الطاهر» تحت عنوان «الجفاف كأحد أسباب الحروب»:

إن الصراع القادم سيكون من أجل كل قطرة ماء، وإنه سيبدأ من جنوب لبنان وتم المنطقة برمتها مثل سوريا وتركيا إلى جانب مجموعة دول حوض النيل مصر والسودان وأثيوبيا، ناهيك عن دول آسيا الوسطى. وقد حذر عدد من العلماء والخبراء أن النقص فى المياه وبعض الموارد الطبيعية ستكون بذور للصراعات والحروب القادمة.

وأن بين الخطط الجاهزة لهذه الحروب والتي حسم أمرها من أمد طويل هى خطة صاحبها تأمين المداخل إلى نهر الليطانى - Fluss Litani إلى جانب تأمين بعض مصادر المياه من الأردن وتهدف إسرائيل من هذه الحرب إلى احتلال الجنوب اللبنانى.

ويضاف إلى ذلك الدائر منذ عقود بين إسرائيل والأردن حول حصص المياه المسحوبة من الأردن.

وقد تنبأ العلماء أن ثلثا سكان العالم سيرقدون تحت خط الفقر المائي وإن بعضاً من الدول مهددة بالزوال من خلال نقص المياه. كما سوف تنقرض بعض القبائل وتتلاشى مناطق متبانية في بلدان معينة.. وأن هذا الأمر سيطول أجزاء من أمريكا الشمالية.

إذا كان الله سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٩]

فهو كذلك القائل:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ [سورة الملك: الآية ٣٠]

صدق الله العظيم

ولعلنا ندأب السعى فى سبيل الحفاظ على حقوق مصر المائية، ولا نفرط فيها قيد أنملة، والعمل دوماً على بث ثقافة ترشيد المياه، فلا نصبح ذات يوم وقد انطبق علينا ما قاله الشاعر «ديك الجن»:

كالعيس فى البيداء يقتلها الغما والماء فوق ظهورها محمول

ولقد قص علينا التاريخ أن امرأة مصرية ريفية قد قدمت هدية من الذهب للخليفة المأمون العباسى. ولما سألها عن مصدر المال أجابت: يا أمير المؤمنين: من هذا ثم انحنت على الأرض وتناولت صفة من الطين ورفعتها فى وجهه. وفى سفره القيم نهر النيل قال إميل لودفنج إن المياه هى لمصر الحياة.

نتضرع إلى الله ألا يأتى اليوم الذى نحمل فيه الماء على ظهورنا.



مشكلة النوبة

ورد اسم النوبة كما اتفق المؤرخون ، للمرة الأولى ، فى كتاب «الجغرافيا» الذى دمجته يد المؤرخ الرومانى الشهير «إسترابون».

وقد أطلق عليها المصرى القديم منذ قديم الأزل اسم «كوش» وكذلك أسماء «ووالت ، وتستى» بمعنى أرض القوس ، إذ إنها كانت تشتهر بصناعة الرماح والأقواس.

ويرى البعض - وهم كثرة غالبية - أن اسمها قد اشتق إلى الكلمات المصرية القديمة «نيو» وتعنى الذهب.

فهى جزء من نسيج مصر ذات حضارة أصيلة ، وثقافة يونانية ، وثقافة دينية تفاعل معها النوبيون بدءاً من الوثنية إلى الديانات السماوية من مسيحية إلى إسلام حتى صار جُل النوبيين اليوم مسلمين.

وقد رأى الدكتور الأديب العالم الجليل «عمر صابر عبد الجليل» أن النوبى قد حافظ على هويته الثقافية النوبية برغم انتمائه للهوية المصرية الأصيلة.

وقد عكف علماء الحملة الفرنسية الذين أفاءوا على مصر بعلمهم حتى أن بعض المؤرخين قد رأوا أن الحملة الفرنسية بعلمائها ومفكرها قد نقلت مصر من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.

فقد ظل النوبيون يحتفظون ببيئتهم التى نشأوا فيها وترعرعوا بين جنباتها فحافظوا على تقاليدهم وعضوا عليهم بنواجذهم.. والبيئة كما جاء فى المعجم الوجيز هى (المنزل).

جاء في موسوعة «وصف مصر» الذى ألفه - كما ألعنا - علماء الحملة الفرنسية ما كتبه «كوستاز Costaz» فى دارسته عن النوبة والنوبيين: أنه ما بين فيلة وأسوان يتناثر فى النيل ألوف لا يحصيها عد من صخور الجرانيت التى تنهض من قاع المجرى لتشكل جزراً بالغة الضآلة. وهناك يجرى النيل سريعاً تتكسر مياهه على هذه الصخور، أو تنفع الأجزاء الفاصلة فيما بينها بصخب واضطراب غير عاديين، ليكتسى كل سطحه باللون الأبيض، حتى ليظن المرء أن مياهه قد تحولت كلها إلى زبد.

وبنتج عن تلاطم الأمواج وتكسرها فوق الصخور زئير مستمر تردد الجبال صده بضى صوت الصدى إلى بعيد بعيد، وفى هذه المناطق الصحراوية، تشكل هذه المجموعة من العوامل مشهداً يهز النفوس بشكل عميق.

وتعرف هذه المنطقة باسم الشلال، شلال أسوان.. لكننا إذا ما قصدنا المعنى الحرفى للكلمة، سنقول إن ليس هذا شلالاً على الإطلاق. حقيقة أن النيل هناك سريع وصخاب، لكننا لا نرى هناك مساقط كبيرة للمياه، وهى تلك التى اعتدنا أن نطلق عليها اسم شلالات بل إن جزءاً من مياه النهر، تجرى فى نفس المدرة، تستطيع المراكب أن تصعدا فى موسم الفيضانات إذا ما جادت عليها الطبيعة بريح مواتية. لكن الشلال الحقيقى يوجد على مسيرة عدة أيام إلى الجنوب من شلال أسوان هذا كما يسمونه.

ويقابل المرء بشكل شبه دائم، عند سفح الصخور التى تحصر فيما بينها نهر النيل. أجزاء صغيرة من الأرض الصالحة للزراعة، كونتها

ومهدتها تلك الترسيبات السنوية لمياه الفيضان حيث الظروف هناك مواتية لحدوث مثل هذه الترسيبات.

وفى كل مكان تتوافر فيه هذه الظروف المواتية، زرع النوبيون أشجار النخيل ونصبوا السواقي لرفع المياه لرى الحقول التى يزرع فيها هذا النوع من الذرة البيضاء الذى يطلقون عليه اسمه «درة»، وكذلك بعض الخضراوات.

وترى فوق هذه الصخور حرارة لاهبة؛ وعلى الرغم من أننا كنا مانزال فى اعتدال الخريف، فقد ظل ترمومتر ويومور الموضوع فى الهواء الطلق ثابتاً طيلة اليوم على درجة ٣٥، وهى درجة حرارة أعلى من درجة حرارة الدم.

كان الرحالة الذين جابوا هذه البلاد يحسون بلهيب الشمس المزعج من خلال نعال أحذيتهم المصنوعة من جلد الماعز ويذكر حالة منهم أن أحد أبناء النوبة وكان موكلاً بتوصيل إحدى الرسائل قلب له «ظهر المجن» عندما طلب منه أن يوصل هاتيك الرسالة ورفض أن ينصاع لأمره ويبدأ سيره قبل أن تودع الشمس نهارها.

يذكرون أن جداراً صلباً من أحجار الجرانيت والحجر الرملى قد أقيم عند أحد الجبال يمتد طولاً وعرضاً لا تعرف بدايته من نهايته البعيدة عن النيل وذلك لصد هجمات الشعوب المعادية لأهل النوبة.

ويرصدون زوارق النوبيين الخاصة التى يتناقلون بواسطتها بين الشلال الكبير والشلال الصغير، الأشياء والحاجيات التى يحتاجون إليها من مصر لاستهلاكهم وأنهم يتاجرون ويعثرون من خلال تجارتهم على ما يلزمهم من طعام وشراب من إقليم إسنا ويدفعون ثمنها من البلح المجفف الذى كان هو بمثابة النقود لهم.

كما يعرجون على نظام القضاء فى هذه البلاد النائية فذكروا أنهم وسدوا على قراهم قضاة يديرون القضاء هناك يحيزون نفس السلطة التى يحوزها شيوخ القرى فى مصر، ويسمى رجال القضاء عندهم «السيميلى» يحكم دائماً فيما يشتجر بينهم من خلاف أو اختلاف، وأطلق النوبيون أيدى هؤلاء القضاة فى الحكم فى صنوف القضايا المختلفة التى يذهبون بها إلى (السيميلى) فيحكم بينهم بالحق.

ويرى الرحالة الذين جابوا بقاع النوبة وأصقاعها أن النوبيين يتميزون بلطف العشر ويعيشون فى حالة سلم دائم وأمن قائم وإذا ما عن لعدو أن يتربص بهم الدوائر أو يشن عليهم هجوماً مفاجئاً، فإنهم يتخذون الصخور مقاماً لهم يلجأون إليها حتى يستطيعون الدفاع عن أنفسهم فى هاتيك الصخور التى تعتبر مأوى آمناً لهم ومعقل حصينة، يندم كثيراً فى معظم الأحيان إذا ما أراد أحد الأعداء اقتحامهم.

ويمر العام تلو العام والنوبيون لا يفتأون عن الذهاب إلى مصر هارين من فقر مسقط رأسهم يجدون للبحث عن عمل.. يكاد يماثل ما يفعله أبناء «سابوى وأوفرن» «إحدى مقاطعات فرنسا فى التقسيم الإدارى القديم» ثم تتأجج الرغبة فى قلوبهم للإياب إلى وطنهم، لقضاء آخر أيامهم وسط صخورهم.

وما يكادون يحصلون على وسيلة لعيش ميسور، ورغد موفور حتى يسارع كل منهم للعودة إلى النوبة ليتخذوا لأنفسهم زوجات من بنات أمتهم.

كما يذكر الرحالة الأجانب أن التجار الأوربيين يطلقون على النوبيين اسم «بربران Barbrin». ولعلمهم - فى رأينا - يقصدون البرابرة.

ويشهد أولئك الرحالة أن النوبيين يتمتعون بشهرة كبيرة بالاستقامة والأمانة بوحى إخلاصهم الذى لم يعرف الكذب مطلقاً طريقه إليهم حتى إنه كان يعهد إليهم بحراسة بوابات كل البيوت وجميع الأسواق.

ويتساءل أولئك الرحالة المذكورين:

«ترى من أين جاء لهذه الأمة النوبية هذا السمو الأخلاقي الذى يميزهم بدرجة كبيرة عن جيرانهم العربان، الذين تبدو للوصية عندهم مهنة شريفة بل يمكن القول، مهنة قومية؟!»

ويجيبون أن السبب فى ذلك يرجع إلى نوع الحياة التى يحيها كل من هذين الشعبين؛ فالنوبيون (مزارعون).. والعربان (رعاة).. والحياة الزراعية تجعل الناس أكثر حساسية، واستجابة لأفكار العدل، والنظام، وحق الملكية.

أما فى الحياة الرعوية فيحدث العكس من ذلك، حيث تؤمن سهولة التنقل، والتخلص من العقاب، وعدم الوقوع تحت طائلة القانون بخصوص كل الجرائم على وجه التقريب.

ثم يردفون قائلين: إن الأكراد مثل العربان يعيشون بلا مقر ثابت، يُقيدون مثل العربان قطعانهم من مكان إلى مكان، ومن مرعى إلى مرعى، ولهم نفس عادات السرقة والصوصية التى تسود عند هؤلاء.

النوبيون مسلمون شديداً والحماسة لدينهم لا يحيدون عنه أبداً مهما تجشموا فى سبيل ذلك من إعنات.

ويرى الرحالة القدامى أن النوبيين كانوا يكونون الكثير من النفور والمقت تجاه الأجانب، ومن العسير عليهم دوماً أن يروا هؤلاء فى بلادهم. يحكى أحد الرحالة عن نوبى - وقد كان على صلة به - قال له: مشيراً إلى المباني التى يقطنون بداخلها والآثار التى تخلد ذكراهم: «إنها هى هذه المباني (والآثار التى تجذب هؤلاء الأعراب إلى هنا): «حسن»: إنهم ما أن يرحلوا حتى نبدأ فى هدمها حتى يتركنا الناس هادئين فى بلادنا».

يحكى علماء الحملة الفرنسية أنهم عندما دخلوا لأول مرة جزيرة فيلة ألفوا فتاة نوبية تركتها أسرتها وحيدة، وللمحافظة على عذريتها اتخذوا طريقاً بالغ القسوة والغرابة معاً تجاهها، إذ إنهم «خاطوا» بشكل تام عضو إخصابها. وتنبئ هذه الواقعة - كما عبر علماء الحملة - أنهم كانوا بصدد شعب تنهشه غيرة متأججة، وفضلاً عن ذلك فإن هذه العاطفة المتطرفة تنجلى فى تلك العناية التى يخفى بها النوبيون نساءهم عن نظرات الأعراب.

وقد حدث فى أثناء زيارتهم لبعض قراهم وكان يتبعهم جمهور غفير - أن شاهدوا - رجالاً يتسلحون بالعصى ولا هم لهم إلا طرد النسوة اللائى جذبهن الفضول إلى موكبهم، وبرغم ذلك فإن عادات التحجب الشائعة فى مصر - كما رأوا - ليست مستقرة بين النسوة النوبيات، فهن يظهرن بوجه مكشوف، ويتوزع شعرهن بين عشرات من الخصلات الصغيرة المجددة بشكل لولبى والتى تتعارج على الجبهة وعلى كل جوانب الرأس. وأرديتهن تغطى أجسامهن بشكل تام، وقد شاهدوا البعض منهن يتلفحن ملابسهن على نحو يبقى الذراع الأيمن والكتف عاريين. وتبدو حركاتهن وهيئتهن تحت هذا الملابس، رقيقة تكسوها مسحة من نبل.

وقد أراد البعض أن يرمى مصر بتحطيم ممالك النوبة المسيحية ويرد عليهم التاريخ بصدقه وجلائه أن مصر حمت المسيحية فى مصر وأخرجت الذين فروا إلى الجبال ولاذوا بالوديان وتقوقعوا خوفاً من بطش الرومان فى داخل كهوفهم وما أبوا إلى بلادهم مصر إلى على يد حاكمها «عمرو بن العاص» حيث كان على رأسهم «الأب بنيامين» الذى شهد للمسلمين بذلك.

قد ذكر «ابن كثير» في البداية والنهاية أن لقمان الحكيم كان من أهل النوبة.. ورأى البعض أن الكلمات التي جاءت في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿فَالَهُمْ عَنِ التَّذَكُّرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَزَرَّتْ مِنْ قَسْوَمٍ ﴿٥١﴾ [سورة المدثر: الآية ٤٩-٥١]. قد كانت مستعملة في لغة النوبة.

وقد جاء في العهد القديم: «يَأْتِي شُرَفَاءُ مِنْ مِصْرَ. كُوشُ - التي هي اسم النوبة قديماً كما ألعنا - تُسْرِعُ بِيَدَيْهَا إِلَى اللَّهِ». (سفر المزامير ٦٨: ٣١)، «أَذْكُرُ رَهَبَ وَبَابِلَ عَارِفَتَيَّ. هُوَذَا فَلَسْطِينُ وَصُورٌ مَعَ كُوشَ. هَذَا وُلْدُ هُنَاكَ» (سفر المزامير ٤: ٨٧).

أما العهد الجديد فقد ورد فيه:

«ثُمَّ إِنَّ مَلَكَ الرَّبِّ كَلَّمَ فِيلِبَّسَ قَائِلاً: «قُمْ وَأَذْهَبْ نَحْوَ الْجَنُوبِ، عَلَى الطَّرِيقِ الْمُنْحَدِرَةِ مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى غَزَّةَ الَّتِي هِيَ بَرِّيَّةٌ».

أعمال الرسل (٨: ٢٦).

ويؤكد البعض أن فيليبس قد أرسل إلى النوبة.

أفرد العلماء المصريون الكثير من تواليهم بالحديث عن النوبة منهم الدكتور «محمد رياض» أستاذ الأنثروبولوجيا، والأستاذ «مصطفى أبو عابد»، والدكاترة: «جمال حمدان»، «أحمد نوار»، «ناهد بابا» التي رأت أن الخصوبة والثراء المعنوي والجمال لبيوت النوبة القديمة جعل منها جنة منشودة، لا مكان فيها للغرباء. «ياسمين فراج»، والدكتورة «رانيا يحيى»، و«سامي عبد الوارث»، والدكتورة «سامية عباس»: التي أفردت مقالاً لها اسمه «النوبة بعيون أدباء ورحالة الغرب» ذكرت منهم: الإنجليزي «ريتشارد بكوك» عام ١٧٣٧م. و«فرديريك لوفيك»

الذى أصدر كتابه باللغة الفرنسية عام ١٧٥١م، : "جيمس بروس" عام ١٧٦٩م، و«فيفون ديمون» عام ١٧٩٨م، وغيرهم.

زار الرئيس «جمال عبد الناصر» النوبة مرات ثلاث وصفهم (بأصحاب الأرض والديار) واستقبل استقبالاً حافلاً من أهل النوبة.

ولا ينسى التاريخ الدكتور «ثروت عكاشة» وزير ثقافة مصر وأشهر وزراء ثقافتها وأكثرهم علماً وأوفرهم إنتاجاً فيما بذله من جهد جهيد فى سبيل إنقاذ آثار النوبة عقب نهوض مصر بإقامة مشروع السد العالى فى أسوان إذ اقتطع جزء من بلادهم والعديد من ديارهم فى سبيل إتمام هذا المشروع الذى اعتبره العالم مشروع القرن العشرين.

ولا مشاحة أنه من اللازم اللازب أن نذكر واقعة تاريخية تمثل شفرة النصر النوبية كما عبر الأستاذ «محمد شلبى» فى مقاله «اللغة النوبية شفرة النصر» فى السادس من أكتوبر الحرب المصرية الإسرائيلية.

إذ إنه أشار فى مقاله إلى أن الرئيس «محمد أنور السادات» قد استخدم اللغة النوبية (كشفرة) فى حرب أكتوبر وعجز خبراء اللغات فى إسرائيل عن فهمها أو فك طلاسمها فكان ذلك سبباً من أسباب النصر الذى حازته مصر فيها من حيث إن اللغة النوبية لا تعرف التذكير ولا التأنيث ولا يفهمها إلا أهلها.

ويقول الأستاذ «محمد حسنين هيكل»: إن الجيش المصرى استغل كون اللغة النوبية لغة منطوقة وغير مكتوبة، وإنها لغة - نادراً - ما يسرب النوبيون أسرارها إلى غيرهم، فجعل الرئيس السادات فى كل غرفة عمليات حربية جندياً يتحدث النوبية من أهل النوبة لينقل

التعليمات إلى الغرف الأخرى بدلاً من الشفريات التقليدية. حيث تمكن متحدثو الشفرة النوبيون من نقل الرسائل اللاسلكية بلغتهم التي عجز خبراء اللغات العالمية والإسرائيليون عن معرفتها أو الولوج إلى مفرداتها.. مما دفع بالإسرائيليين إلى أن يجن جنونهم فدأبوا يبحثون في قواميس اللغات الحية عن فقه هذه اللغة حتى اللغات السواحلية من شرق وغرب إفريقيا فلم يجدهم ذلك فتياً.

ومن بعد ذلك صارت اللغة النوبية تُدرس في بعض الجامعات الأمريكية والألمانية.

ولعل من المفيد أن نذكر أن إحدى كلمات السر النوبية التي استعملت في حرب أكتوبر واستغلها الرئيس السادات بذكائه ودهائه كلمة: «جم Jom» أي «ابدأ الضرب والحرب»!

إذن ما الذى تعانيه النوبة، بالإحالة على عنوان هذا المقال؟ إن النوبيين التي تعود أصولهم إلى قبائل ربيعة وجهينة العربية وقد شاركوا في تأسيس الحضارة الإنسانية بمصر وغيرها من البلدان حتى إن «هنرى بلستن» صاحب كتاب «فجر الضمير» قد سجل فيه بين دفتيه عجائب هذه الأرض التي فشل الغرب الأوربي الأمريكى في توظيف الفتنة الطائفية بين ربوعها بقالة أن النوبيين أقلية يجب على مصر أن تولى نظرها إليهم ولا هم في حاجة إلى ما يزعمون أو يتقالون لغرض في نفس يعقوب. من خلال العولمة البغيضة التي أرادوا بها شرّاً وأراد الله بنا خيراً فلن ينصاع أحد من المصريين إلى ما ذهب إلى إليهم قلوبهم المريضة ونفوسهم الشائثة. ولقد شارك النوبيون في وضع لبنات حضارة مصر بل وحضارة العالم فإنهم يطالبون بأرضهم وديارهم التي فقدوها على إثر البدء في مشروع السد العالى.

وإن كان الثابت فى التاريخ أن النوبة قد تعرضت إلى هجرات أربع منذ عام ١٩٠٣م إلا أن الغد يحمل لهم مستقبلاً وضاءً؛ فإن مصر كلها على قدم وساق تضع النوبيين فى قلبها وفكرها، وستعمل جاهدة إلى إرجاع حقها السليب إليها، وأن نعمل على إزالة احتقان مشكلة وادى «كركر» التى بثوا شكاياتهم عنها، وأذاعوها عبر أنهار الصحف. فهل من المعقول أن نترك النوبة (سقف مصر) - كما أسماها عبقرى مصر «الدكتور جمال حمدان» - هكذا قاعاً صفاً خاوياً. إن النوبة هى الحامية لديارها، والحافطة لزمراها.. فليس من المقبول ولا من المعقول أن تترك مصر - النوبة - لؤلؤة الماضى وجوهرة الحاضر للنسيان؟ فهى - أى النوبة - فى عين مصر اليوم وفى الغد.. بل منذ قديم الزمان.



مشكلة بطء التقاضى

عندما وجهت القناة الثالثة بتلفاز جمهورية مصر العربية الدعوة لى لحضور ندوة كان يديرها المذيع المتألق الأستاذ «عصام بكرى»، وكان عنوانها «بطء التقاضى فى مصر».

وقد حضر الندوة التى كانت مذاعة على الهواء لفيف من العلماء والمفكرين كان منهم الدكتورة «فوزية عبد الستار» أستاذة القانون الجنائى بجامعة القاهرة، والمستشار «محمود غنيم» المفتش القضائى الأول (ورئيس هيئة المفوضين الحالى بالمحكمة الدستورية العليا)، والدكتور «سينوت دوس» الحاصل على درجتين فى الدكتوراه الأولى فى الطب، وثانيها فى القانون، والأستاذ «سامح عاشور» نقيب المحامين. و كاتب هذه السطور.

أدى كل من الأساتذة الحاضرين بدلوهم وما عن لهم من أفكار فى هذا الصدد. وعندما جاء دور الحديث علينا، قلنا:

«ليس فى مصر مشكلة فى بطء التقاضى.. ولكن الداء يكمن فى هذا الخُلف، وذلك الخلاف المشتجر بين المتقاضين، والذين يبلغون الملايين، وذلك يرجع إلى غياب الصدق، وتشيع ثقافة الكذب.

وللدكتور «يوسف ميخائيل» كتاب عن الكذب و أثره فى الإنسان - جدير أن يقرأ -.. ولقد نهت الأديان جميعاً عنه، وفى حديث بين الرسول - عليه الصلاة والسلام - وبين أم المؤمنين عائشة، التى سألت الرسول عن الكذبة البيضاء، قال لها الرسول ما معناه أنه لا يوجد كذب

أبيض) و(كذب أسود).. وإن الكذبة البيضاء تدخل الإنسان النار. ولو كف الإنسان - عموماً - عن احتراف الكذب لصلح حال الدنيا واستقام أمر العباد في الحال وفي المآل.

وأردفت قائلاً: إن استباب العدل الذى هو غائب عن مصر هو الذى يحل مشكلة بدء التقاضى فيها، وقد قيل إن الذئب قد امتنع عن أكل الشاة فى زمان الخليفة العادل «عمر بن عبد العزيز» - رضى الله عنه - لانتشار العدل فى أمته.

ومنذ ما ينيف عن الخمسين عاماً (بتاريخ ١٩٥٨/٦/٨ م) كتب أحد شيوخ القضاة وهو والدى - رحمة الله عليه - فى جريدة الأخبار يقول: «إن البصر ليرتد خاسئاً وهو حسير حينما يرى أن كل خمسين قاضياً فى مصر منوط بهم أن يفصلوا فى مشاكل آلاف من الأنفس مما زادهم رهقاً شديداً وعنتاً، وما جعل المتقاضين يثنون من بطنه التقاضى».

وتساءل المرحوم الوالد: ألم يأن لوزارة العدل؟ أن تضع سياسة للإصلاح حتى ينال القضاء فى مصر حظه من التمكين والازدهار. وعندما أراد البعض أن يلغى الاستئناف كتب - طيب الله ثراه - فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٦١/٢/٢٨ م يقول:

«ثار الجدل حول رأيين أحدهما ينادى بقصر التقاضى على درجة واحدة، والآخر يرى جعله على درجتين أسوة بما هو متبع فى بعض البلاد الأجنبية»

وليس من الصائب المقارنة بين ما يجرى عليه العمل فى بلاد أخرى، فإن ما يصلح للبعض لا يصلح للآخرين، وليس هذا فى محيط العمل بغريب، فإن أكثر القضاة عملاً أكثرهم خطأ، وكما أهاب بعض القضاة

فى أسباب أحكامهم بالنىابة العامة أن تستأنف هذه الأحكام لاستدراك ما جرى به القلم خطأ أو سهواً.

وتابع الحديث قائلاً:

«وليس بخاف أن الاستئناف يطرح النزاع برمته أمام الدرجة الثانية فيهيمن على الحكم من جميع نواحيه الموضوعية والقانونية، وفى هذا تخفيف عبء كبير كان حتماً سيلقى على عاتق محكمة النقض لو لم تفصل فيه محكمة الإستئناف التى هى محكمة الدرجة الثانية».

وتساءل الوالد: «فماذا يكون الحال ياترى إذا كان التقاضى على درجة واحدة؟»

كان هذا المقال بمناسبة شكاية الكثيرين من بطله التقاضى فى مصر. أرجع الوالد كما سبق وذكر فى مقاله الذى ألعنا إليه أن بطله التقاضى راجع أولاً قبل كل شىء إلى قلة عدد القضاة، والنقص الذى يعتور جهاز الخبراء.

وفى دفاعه عن وجوب عدم إلغاء محكمة الاستئناف قال: «لعل أسعد القضاة طراً من وجد من يصور له حكماً جانبه فيه التوفيق. ونذكر فى هذا الخصوص أننى عندما التقيت وزملائى بالأقصر فى إحدى الندوات مع الوفد الفرنسى القضائى الذى كان يزور مصر آنذاك وسألنى قاض فرنسى: «كم عدد القضايا التى تحكم فيها فى جلساتك؟»، ولما أجبته: «أن العدد يتعدى الألف قضية بكثير»، أطلق من فمه ضحكة ظناً منه أننى أهز معه أو أقول له ملحة، ولما تأكد من صدق قولتى انتابه الدهول.

إن مشكلة بطله التقاضى فى مصر إنما تعود بالدرجة الأولى للدد المتخاصمين فى الخصومة، ومضيههم فى طريق الكذب.

ومن ثم إذا كان الحال قد سار مع القضاء في هذا المنوال، ولما يزل يسير فإننا نرى أنه من اللازم أن تعمل وزارة العدل على زيادة عدد القضاة في مصر إلى الحد الذى يواكب الزيادة المضطربة في عدد السكان الذى استفحل، وزاد عن المعتاد.

وأضحى يمثل عبئاً شديداً تنوء به كواهل قضاة مصر.

ولقد ذهب إلى هذا النحو القاضى الفرنسى الأشهر «ج. رانسون» فى كتابه القيم «فن القضاء» «l'Art de juger» إذ أزعجى تحيته إلى بلاده من حيث أن فرنسا تعمل جاهدة على أن يكون عدد القضاة فيها متوازناً مع عدد سكانها.

ولقد صدق الفيلسوف فرنى Ferney فى مقولته:

«إن الأحكام التى تصدر بسرعة تكون فى الغالب بعيدة عن العدالة»
إذن ومن نافلة القول أن نقول: «اعملوا على زيادة عدد قضاة مصر حتى تتلاشى ظاهرة بطنه التقاضى الذى اشتكى منه البعيد والدانى مع السعى دوماً إلى نشر العدل فى ربوع مصر».

فلا يكفى لتحقيق العدل وتثبيت دعائمه أن تقوم الدولة بتعيين القضاة دون أن يكون هناك حزمًا وعزمًا لمنع الاستثناءات والوساطات. كما حدث فى الماضى القريب.

فالعدل أساس الملك.



مشكلة حلايب وشلاتين

كأننى وحياتى حين أبصرها خواض معركة، جواب أسفار
وقيمة النفس أغلى فى النهى ثمناً من أن تباع! بدينار وقنطار
هكذا شأن حلايب وشلاتين.. وهذا هو قولهما.

فمنذ أن جاس المستعمر الإنجليزى بقدمه أرض السودان الشقيق، وهو
يتربص جاهداً إلى فصل السودان عن مصر.

بدا ذلك جلياً فى اتفاق الحكم الثنائى عام ١٨٩٩م. حيث كان يوجد
خطاً فاصلاً بين شطرى وادى النيل.

ولقد تم وضع المنطقة الواقعة فى الركن الجنوبى الشرقى لمصر
والمحاذية لساحل البحر الأحمر، و«منطقة جبل علبة، مثلث حلايب»
تحت إدارة «المحليات» السودانية بغية توحيد الإدارة القائمة على شئون
القبائل، ولم شعك هاتيك القبائل مع كتلتهم الرئيسية القابعة داخل
جنوب الوادى السودانى من حيث تتناثر هذه القبائل بين الجنوب
وبين شمال الوادى فى مصر متمثلة فى قبائل البشارية الحمداواب،
والمسبتراب، والعبادة الذين ينتشرون فى البر الغربى فى الأقصر وفى
أسوان وفى الصحراء الشرقية.

تم تحديد المناطق التى يقطنها البدو فى إقليم مصر بما عرف بمثلث
حلايب المصرى بدءاً من جنوب حلايب وحتى بئر الشلاتين مروراً ببئر
منيحة فجبل تجروب فأم الطيور، وأخيراً جبل الديحا حتى يصل إلى
خط التقاطع مع الحدود السياسية بين البلدين الشقيقين.

يذكر صاحب كتاب «بوابات مصر» الباحث الأديب «محمد هيكل» أن التلاحم المصري السوداني محفور في قلوب كل من المصريين والسودانيين.

وهاهوذا السفير «أحمد أنور» سفير السودان في مصر يرى أن مصر والسودان بلداً واحداً، وأنه تعلم في مصر وعمل بالسودان، وأنه يقيم في قرية على الحدود المصرية السودانية يقع نصفها في شمال الوادي، والنصف الآخر في جنوبه.

ويعرج الكاتب على محادثة جرت بينه وبين أحد السودانيين الخالصاء لواديههم، وادى النيل إذ سأله الكاتب:

هل أنت سوداني؟

فأجاب: لا.

فعاوده السؤال: هل أنت مصري؟

فقال: لا.

فبادره متعجباً.. إذن من أنت؟

فرد عليه قائلاً: أنا ابن هذه المنطقة.. منطقة حلايب وشلاتين أعلم أبناءها الذين تخرج فيها الكثيرون، أنا مصري سوداني، أو قل: سوداني مصري، اخترت هذه المنطقة الأثيرة إلى نفسي وعقلي، ودرست التاريخ جيداً، وخرجت بنتيجة: أننى من هنا.. وأولادى هنا بالرغم من أننى ولدت وسط السودان.

ويؤكد المؤرخون أن الأصول السكانية الأولى لمثلث حلايب وشلاتين ترجع إلى قبيلة «ولبجاء»، والتي كانت تقطن فيه منذ ما يزيد على أربعة آلاف عام، واستعان بهم فراعين مصر في الدفاع عن الوطن.

ولفظ (بجا) يعنى (المقاتل القوى الشرس الشجاع) وتتمثل فروعها فيما يسمى «الهدندوة»، و«الأمرأ»، و«الخلانقة»، و«بنى عامر»، و«العبادة»، و«البشارية».

حيث تفرقوا إلى فرعين.. الفرع الأول يقيم فى السودان وأثيوبيا.. أما الآخر فقد اتخذ كل من مصر والسودان مقراً ومقاما.

وقد التقى كاتب هذه السطور أثناء «عمله القضائى» فى «البر الغربى بالأقصر»، و«إسنا»، و«أرمنت»، و«القصور» بالعديد من أفراد هذه القبائل وهم قوم مصريون خلصاء ولبلدهم - مصر - أوفياء.

ويرى المؤرخ القدير وأستاذ التاريخ المرحوم الدكتور «يونان لبيب رزق» - أحد المنافحين عن قضية طابا، غداة عرضها على التحكيم الدولى أن اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩م ليست التى دشنت الحدود بين مصر والسودان.. فقبيل ذلك بنحو نصف قرن وعلى وجه التحديد فى ١٣ فبراير ١٨٤١م بزغت على الخرائط أول حدود بين البلدين وهى حدود اتفق عليها بين القاهرة واسطنبول، وتمت على مرحلتين مؤتمر لندن عام ١٨٤٠م، وفرمان الباب العالى الصادر فى ١٣ فبراير ١٨٤١م الذى جسد قرارات مؤتمر لندن.

وقد جاء فى هذا الفرمان فيما يخص السودان، والكتاب المرسل هذا كان من الباب العالى إلى والى مصر يقول له فيه..

«إن سدتنا قد ثبتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة. وقد قلدتكم - فضلاً عن - ولاية مصر، ولاية مقاطعات النوبة، والدارفور، وكردفان.

وعليكم أن ترسلوا لنا كل سنة قائمة إلى بابنا العالى حواية الإيرادات السنوية جميعها».

وعود على بدء!

فقد جاءت دعوى من يريد أن يقتلع حلايب وشلاتين من جسد مصر، وقد أركسها الله، وخابت دعواه، وابتلع بلواه.

والذى لامشاحة فيه أن مصر يجب أن تمنع نظرها، وتنعم تفكيرها فى مشكلة حلايب وشلاتين، فلا ينبغى (أن ننجح فى أن نفشل). كما عبر «جوزيف وكارولين» فى كتابهما «كلمات قاتلة لا تقولوها أبداً» وقد ترجم هذا الكتاب من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية «الفيزا نضور». إذا كنا نردد عبارة «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد». فإننا نقول «إن الذى تؤجله تفقده»

ومن ثم فإن ما سوف يكون قد لا يكون أبداً.

وهاهى ذى الفتنة فقد أطلت بوجهها العبوس الذى تلقى إشاعة كاذبة أثناء زيارة رئيس مصر إلى السودان زاعمة أنه قد تنازل عن حلايب وشلاتين للسودان؟!.

وما كان لرئيس مصر أو أى رئيس لها أن يقدم على ذلك.

والذى لا مشاحة فيه أن مصر يقع على كاهلها أن تكون «حلايب وشلاتين» لهما الأولوية فى وجوب أن تعمل الدولة على تعمير هذه البقعة الحيوية من بقاع الوادى، وأن تشد أنظار المصريين والسائحين لها على السواء.

فإننا نرى هذه الأرض المصرية الذى يضحكها لدى الإصباح شمس.. ويلثمها لدى الإمساء طل تمد يدها إلى مصر طالبة منها أن تراعيها وتحيطها بالحب والرعاية والأمان.

فالذى أمسى يطعم فيها دأب على أن يكون أكره بالإنصاف، وأسأل بالإنصاف.

وقد أصبحت مسألة حلايب وشلاتين أشبه بيننا وبين السودان الشقيق كقضية العلم بين الغزالي وابن رشد من خلال عدم قابلية هذا الأمر للحسم، ناهيك عن التكرار، والغياب، وخيم الظلام على هذه المشكلة الشائكة الذى أصبح التكرار لها والغياب عنها وعدم حسمها يمثل القلق والأرق للمصريين.

صدق الشاعر فى قوله وكأنه يعبر بلسان حلايب وشلاتين :

ياسارى الليل، هلا استصبح السارى
أم ضل مسراه فى بيدااء مقفار
يومى كأسمى ولا أصبو إلى أمثل
ضاق البريق، وإقلالى كاكثارى
سئمت ظل حياتى جاهداً لَغِباً
مترنحاً، بين أقبالٍ وإدبار

أصبحت حلايب وشلاتين وقد تشابه اللون فى مساريها، لمح من النور، أو نفع من النار! .

وقيمة (حلايب وشلاتين) بالنسبة إلى أمهما مصر، أغلى فى النهى ثمنًا، من أن تباع بدينار أو بقنطار! .

ألم يأن الأوان لمحو العزلة التى تعيش فيها هذه الأرض المصرية، وتحيا بين ظهرائها؟



ميانمار.. وإحراق المسلمين بالنار؟!.. بحسبانها مشكلة إسلامية

كان الفيلسوف اليوناني «أرسطو» - المعلم الأول - لا يقر بالمساواة بين الناس، إذ كان يرى أن الناس صنفان.. وأنهما فصيلتان مختلفتان: عنصر قوى، وصنف ضعيف، كما كان يرى الخلق خلقان: خلق قوى، خُلِقَ خُلُقٌ لَكَى يكون سيِّداً يسود، وخلق دنىء. ومن ثم يجب أن يكون هو المسود ولا يجب أن يحيا أو يعود!.

وإذا كان الإسلام وهو كذلك كما عبر الشيخ «محمد الغزالي» - رحمه الله - «هو يهودية موسى، ونصرانية عيسى معاً، وهدايات من قبلهما من رسل الله الأكرمين جميعاً: ﴿قُلْ ءَأَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾». [سورة آل عمران: الآية ٨٤]

وهاهونا الأسقف «رولان» يرى أن كثيراً من المسيحيين ارتأوا أن الإسلام تنمة طبيعة المسيحية وأن محمداً رسوله، قد صار على آثار من سبقه من الرسل والأنبياء، وأن القرآن قد جاء متمماً للتوراة والإنجيل، ولكن الغرب له في هذا الشأن رأى آخر ملؤه التعصب المقيت.

كان «الصليبى» يرى أنه وحده الجدير بالحياة مع أن رسالة المسيحية هى المحبة والتسامح والإيثار والوثام، فرسالة المسيحية هى السلام، ولكن ذلك القس المتعصب قد جمع الصليبيين تحت راية واحدة هى

محاربة المسلمين، وحشد حشدهم، وجيش جيوشهم لذلك، فحاربوا الإسلام والمسلمين واستلبوا ديارهم وخرّبوا بيوتهم ووأدوا أطفالهم وسبوا نساءهم وقتلوا رجالهم.

كما فعلت من قبل «إيزابيل» وزوجها اللذين شنّا حملة عسكرية للاستيلاء على مدينة غرناطة من حكامها بنى الأحمر وكانت غرناطة آخر معاقل المسلمين فى إسبانيا وبسقوط حكم أبو عبد الله عام ١٤٩٢م انتهى الحكم الإسلامى فى الأندلس، وقد أمرت الملكة إيزابيلا بإنشاء محاكم التفتيش بمعاونة الملك فيليب وبمراقبة توماس دى توركيمادا، المحاكم التى قامت بطرد ثلاثة ملايين من المسلمين، الذين لم يغادروا الأندلس بعد سقوطها، والتعذيب بجميع أنواع آلات التعذيب. أيضاً أبدى الراهب «بليدى» ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم، حينما كانت متجهة إلى إفريقيا تحت هاتيك المحاكم التى أنشأتها إيزابيلا، وهى محاكم التفتيش؟! وفى غضون القرن الثامن عشر نادى «دار جونسون» ذلك الوجه القبيح بتأليف حلف مقدس ينتظم فى صفوفه كافة الدول الأوروبية المسيحية لكى يستلبوا بلاد المسلمين بدعوة تحرير الأراضى المقدسة من أيديهم، وقد كان منهم الملوك والأمراء والمغامرون والحمقى، ناهيك عن البغاة والظغاة الذين لعبت شهوة الحكم بعقولهم، وخامرت بنت الحان رؤوسهم فما دروا من أمرهم شيئاً إلا التعطش لسفك الدماء وقتل الأبرياء من خلال كراهية بثت فى قلوبهم وتغلغلت فى أفكارهم.. بلا جدال على توالى الأجيال.

وقد كان منهم ذات يوم بعيد «لويس الرابع عشر» الذى كان يردد دائماً ويقول «je déclare» أى «أنا الدولة».

وها هي ذى ميانمار التي تقع في الجزء الشمالى الغربى من شبه جزيرة الهند الصينية ، وتطل على خليج البنغال ، ويشكل البوذيون فيها نسبة ٨٩٪ من سكانها ، وقد ارتحل سكانها إليها من هضبة التبت فى غضون نهاية القرن الثامن حتى أصبحت اليوم مملكة بوذية واعتنق أهلها الديانة البوذية .

وها هي ذى ما يسمى ميانمار ترى إما تجميع المسلمين الذين يمثلون هم وإخوتهم المسيحيون نسبة ضئيلة فى هذه الجزيرة وترحيلهم خارج الديار بعد أن عانت الأقلية المسلمة فيها ما عانت من قتل وعنف وإحراق لبيوتهم وقتل وتشريد لأهلهم وذويهم ، هؤلاء المسلمون الذين أطلق عليهم أبناء أقلية الرهونجية وفدوا إلى البلاد منذ زمن طويل مرتحلون إليها من بنجلاديش المجاورة لهم والتي رفضت هى الأخرى استقبالهم فى أرضها بسبب الكثافة السكانية والأزمات الاقتصادية التى ضربت ولما تزل تضرب بلادهم يوم بعد يوم .

وقد قص علينا بعض الفارين من الولايات التى لاقوها أنهم بينما كانوا يلوذون بالفرار من الأراضى البنجلاديشية حلقت عليهم الطائرات البوذية ، وأطلقت عليهم من مدافعها النيران فأردت الكثير منهم قتلى مخرجين فى دمائهم .. أما الآخرون الذين لاذوا عبر القوارب بمياه الأنهار فقد مات البعض منهم جوعاً وابتلع النهر الباقين .

هؤلاء البؤساء الذين أطلق عليهم لفظ «الروهينجا rohm» وهى كلمة تعنى الرحمة .. وهى الكلمة العربية التى أطلقها سكان البلاد الأصليين على ركاب سفينة كانت تحمل عرباً وتحطمت قبالة سواحل بورما

بالقرن الثانى الميلادى ، فنطقها الأهلون هناك الرهونة ثم من بعدها اسم «الروهنجة».

ويسجل التاريخ تلك المذبحة التى راح ضحيتها من المسلمين حوالى مائة ألف شهيد، إذ أن بورما هذه ترفض الاعتراف بمجتمع الروهنجة المسلم ولا تعتبرهم مواطنين فى البلاد.

وقد اعترفت منظمة العفو الدولية بهذه الجريمة الشنعاء.. دون أن تحرك ساكناً أكثر من هذا؟! ومازال العالم يتملى بالنظر بقتل هؤلاء المسلمين الضعفاء على يد فئة ضالة لا تمثل بأى شكل من الأشكال تعاليم «بودا Bddha» الذى يحكى التاريخ أنه كان حكيمًا يمثل مع الحكيمين الآخرين كونفشيوس، وزردشت، حكماء العالم غير المتدين بأديان الله الكتابية الثلاثة، والذى هجر زوجته وابنه الرضيع بعد أن شعر أنه لا يستطيع فكاكًا منهما فما كان منه إلا أن غادر قصره فى غلس الليل، وفى ظلمته البهيمية، ميممًا وجهه شطر المشرق جالسًا تحت شجرة، وهو يردد ويقول:

«فليجف جلدى، وتضمر عضلاتى، ويهن العظم منى، ويموت لحمى، ويجمد الدم فى عروقى، ولن أبرح مجلسى هذا قبل أن أسبر غور أسرار الحياة.

وقد أوصى تلاميذه قبل وفاته بأن يكون هو العدل والرحمة والإحسان والتسامح مع الناس من جميع الأجناس.

لم يكن «بودا» منشئ دين، ولكنه كان صاحب أسلوب فى الحياة يؤدى إلى خلاص النفس من آلامها، ويزيل مكابداتها، والبوذية لا تنكر وجود الله والروح، وإن كانت تسبغ عليهما معانيها الخاصة، ولا تتدخل بأى شكل من الأشكال بين الحقيقة والمرء «والتسامح المطلق» يجب أن

يكون موجهاً إلى جميع الأديان والفلسفات. لأنه ليس لأى إنسان أن يتدخل فى رحلة جاره فى دروب الحياة.

يقول «بوذا» (اعمل على خلاص نفسك بجد وإقبال، فى الحال وفى المآل).

«فالكارمة Karma» ومعناها الفعل ورد الفعل هى التى تتحكم فى الوجود بأثره، ويرى الفلاسفة أنه وإن كان التعليم وليد البيئة التى نما فيها وترعرع على ثراها، بيد أن ما أداه الفكر الإنسانى أمر لا يمكن حصره أو إنكاره، ويكفى أنه علم الناس كيف ينشرون السلام، ويسعون إلى الوثنام عن طريق كبح شهواتهم ومحاربة أطماعهم.

ذلك الحكيم الفيلسوف الذى سُمى «بوذا» بمعنى «المستنير» ولا يعلم الكاتبون عن ترجمته، شيئاً بخصوص ما كان عليه فى صبوته، ولكنهم ينهون إلينا إنه لما بلغ مبلغ الشباب ودع عشيرته دون إياب، ولجأ إلى التجوال والتطواف بين ربوع «بينال»، ثم ترك العمل دون استيعابه وشخص إلى مملكة «ماغادا» حتى أتى إلى مدينة «أوروبلا» فارتضى لنفسه أن تكون مقره وسكنه إحدى الغابات الموحشة ظل بين وهودها وكهوفها بل وحيواناتها عدة سنوات قضاها فى الصوم وقهر النفس منتظراً هبوط الوحي عليه، فلما هبط وكان بصحبه آنذاك خمسة من النساك ودعوا الغابة تاركين بوذا بمفرده، وقد أعتورته غيبوبات متتالية، الغيبوبة تلو الأخرى، فقيل أنه قد تلقى من السماء أربعة أسرار مقدسة هي:

أن الشقاء عام فى الأرض. وأن سبب ذلك الميول والشهوات أنه لا ينقضى إلا فى نيروانا. لكن ما هو الطريق إلى نيروانا، ليست ثمة إجابة، فسمى من ذلك الحين «بوذا» أى «المستيقظ أو المستنير».

والكتب عن البوذية جد كثيرة، ولقد تقلبت Karen Armstrong «كارين أرمسترونج» بين هاتيك الكتب المقدسة البوذية القديمة، وانتهت في كتابها عنه إلى أن رسالة بوذا كانت بداية لتحول ديني عظيم في تاريخ البشرية، سبعة قرون كاملة استمرت من القرن التاسع إلى القرن الثاني قبل الميلاد ومحاولة لإنهاء الحروب، وقد ظهرت أربعة اتجاهات مختلفة حول العالم، فكانت اليهودية في الشرق الأوسط، والهندوسية، والبوذية في الهند، والكونفوشيوسية في الصين، والمذاهب الفلسفية باليونان، وتردف الكاتبة - التي أطلقوا عليها اسم «الراهبة الهاربة» إذ تركت حياة الدير لا لتفقد اهتمامها بالشأن الديني وإنما لتدلف إليه مرة أخرى عبر بوابة البحث في مقارنة الأديان، وتصبح واحدة من أهم مقدمى سيرة رسول الله محمد لمجتمعها الغربي، واكتسبت بذلك عداوة العديد من البريطانيين الكاثوليك رغم تصدر كتابها عن «محمد» - عليه الصلاة والسلام - قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في بريطانيا.

تردف هذه الكاتبة قائلة:

«إن بوذا ظل ما نيف عن الأربعين عاماً يدعو إلى التسامح وتعليم الناس للوصول إلى الروحانية، ونبذ العنف وإلى الحب والإنسانية».

فهل هؤلاء المجرمون الآثمون يمتون بصلة إلى الحكيم بوذا؟! وهل عملوا بما أوصاهم به؟

ولنا كلمة أخيرة بخصوص العالم الإسلامي الذي أسدل جفونه، وأطبق عينه عن هذه الجريمة البشعة النكراء في حق المسلمين المغلوبين على أمرهم. هل هذا ما أوصاهم به دينهم الحنيف؟ وإلى متى يقفون

من هذا الجهل الذى ران على عقولهم فأمسوا وقد انبتت صلتهم
بتحركات عدوهم؟!

وإننا نسوق لهم هذه القصة القصيرة التى تتحصل فى الآتى :
« كانت السفينة الحربية الأسبانية كاللاو callao » تبحر فى هدوء إلى
داخل ميناء مانيلا Manila ، وفجأة وبلا مقدمات انهالت عليها قذائف
عديدة أودت بالبعض منهم .
ما الذى حدث؟ تساءل بحارتها فى ذعر بالغ «إننا فى ميناء خاضع
لسلطات بلادنا» .

كانوا غائبين لسته عشر شهراً كاملاً فى مياه الجزر الجنوبية ،
ولم تبلغهم الأخبار بأن الأميرال الأمريكى «ديوى» قد أغرق أسطولهم
الأسباني الذى كان راسياً فى هذا الميناء .
بسرعة فائقة ، أنزلوا علم إسبانيا ، ورفعوا الراية البيضاء معلنين
الاستسلام ، وما هى إلا دقائق معدودات حتى أتى البحارة الأمريكيون
على متن قارب صغير حاملين بفخر علمهم الأمريكى لكى يرفعوه ..
تأملوا معنا: إن السبب فى اصطياذ هذه السفينة بهذه السهولة
والسرعة لم يكن لنقص عدد جنودها أو لقله عددهم الحربى بل لجهلهم
بتحركات عدوهم» .

أرأيتم كيف يكون الجهل بتحركات العدو المتعصب وبالأعلى
المسلمين وعلى من كان منهم من المستضعفين الآمنين .

ودعنى أيها القارئ العزيز أنقل إليك ما جاء فى كتاب «أوجاع
مصرية» للكاتب الكبير «الدكتور سعيد اللاوندى» إذ قال :

(إن العالم الإسلامى قد اعتاد عدم المبالاة فيما يذكر عن الإسلام
والمسلمين ، أو يعتدى عليه .. وأن عشية وقوع أحداث سبتمبر ٢٠١١م

حرص الغرب على خوض حرب صليبية ضد المنطقة العربية والإسلامية بدعوة أنها أصبحت معملاً لتفريخ الإرهابيين.

ولم يسقط من الذاكرة بعد أن «بيرلسكوني» رئيس وزراء إيطاليا السابق قد خص الإسلام «ببإقّة» من الاتهامات التي تنزع عنه صفتي الحداثة والمدنية معتبراً أنه دين (عدواني) جاهل يؤمن به البرابرة والمتخلفون؟! وعلى جدران المساجد فى بروكسل عاصمة الاتحاد الأوروبي يكتب البعض مطالباً بطرد المسلمين من كل أنحاء أوروبا لأنهم ينتمون إلى شعوب حقيرة! ويطالبون بتطهير أوروبا من الجنس العربى! وهكذا أصبحت أوروبا بين عشية وضحاها تعاني من لوثة ترى فى كل عربى أو مسلم مشروغاً لشخص إرهابى مدمر.. وانتشرت فى الأجواء «وفى جميع الأرجاء» أعراض ظاهرة «الإسلاموفوبيا» وهى الخوف المرضى من الإسلام والمسلمين، وراجت أفكار تحرض على التحرش بالمسلمين فى أوروبا، وتحذر من خطر «أسلمة أوروبا».

ويذكر الكاتب الأديب أن يهود أوروبا فى العصور الغابرة كانوا يعيشون موقفاً متشابهاً وكادوا يغرقون فى بحار من الاحتقار والشعور بالدونية كما كانت تتعرض مقابرهم للنبيش وبيوتهم للهدم، وأولادهم للمطاردة والتشويه.

وعلى عكس موقفنا السلبى، ناضل يهود أوروبا بشتى الوسائل لتغيير الصورة من النقيض إلى النقيض، وحققوا - فى سبيل الله ذلك - نجاحات غير مسبوقة، والأخطر أنهم استصدروا قرارات من هيئات ومجالس وبرلمانات أوروبية تحظر - حظراً تاماً - الاقتراب باللمز أو الغمز من كل ماهو يهودى.. وتنزل العقاب.. أشكلاً وألواناً - بكل من تسول له نفسه عدم الالتزام.. وتشكلت جماعات يهودية تحمل أسماء مختلفة، مرة باسم أبناء «ذاكرة

البيطار».. وكلها تمارس أبشع الوسائل قمعاً وإرهاباً لكي تمنع أى باحث أو مؤرخ من محاولة البحث فى ماضى اليهود، والاتهامات، معدة سلفاً، بالحث والتحريرض على الحقد العنصرى أو المس بذاكرة الأموات.. ونجح يهود أوروبا فى استصدار قانون أقرته الجمعية الوطنية الفرنسية، والمجلس الفيدرالى السويسرى، والنمساوى يحكم بمقتضاها بالسجن والغرامة على كل من يشكك فى «الهولوكست» أو قضية أفران الغاز التى يؤكد تاريخ اليهود أنها كانت حقيقة لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

فألا ندعو نحن الآخرين إلى استصدار قرار من الهيئات الدولية بتجريم معاداة الإسلام على غرار تجريم معاداة السامية.

أذكر أننى قرأت مقالا منذ سنوات طويلة خلت للدكتور «حسين مؤنس» معنوناً باسم: «هل أنت تصلح الكون؟».. وأجاب هو «نعم إنك تستطيع أن تصلح الكون».

وقد قرأت أن «سولون» أحد حكماء اليونان السبعة قد حتم فى الشرائع التى استنها لقومه أن يجاهد كل وطنى ينتمى إلى اليونان على أن يجاهد فى نصره بلاده.

ألا نقفوا خطى هذا الحكيم فنستن قانونا يدعو كل مسلم إلى المجاهدة فى سبيل نصره دينه؟

إن هذا الجهل الذى ران على عقول المسلمين النائمين فى كل حذب وصب فى شتى البقاع والأصقاع.. ألا من سبيل لنزع هذا الجهل عنه؟.. ناهيك عن اللامبالاة التى استمرؤها فأغمضوا أعينهم عما ينتظرهم ويحقيق بهم من خلال هذا الغرب المتعصب؟

فى كتاب «الفلاح» (قصة حياة الحياة والموت فى روسيا السوفيتية) حكى الكاتبان «فالننتين جونزاليز، وجولييان جركن» والذى ترجمه إلى

العربية الدكتور «أحمد فؤاد الأهواني» أن «الكامبسينو» وهو فلاح أمى آمن بعقيدته التي بعثت فى نفسه قوة على الكفاح والصبر والمجازفة حتى أصبحت حياته موقوفة على الدفاع عما آمن به لا تساوى شيئاً فى سبيل تحقيق هذه العقيدة، وكانت مدرسة الحياة التى نشأ فيها شديدة القسوة عليه شغلت باله آناء الليل وأطراف النهار. وفى اليقظة والمنام ومحاربة من استلب حقه حتى نجح فى مسعاه وقد عاش فى أحضان دولة لا تعرف لمن يختلف معها إلا الموت الزؤام.. ألا يستطيع العالم الإسلامى والعربى أن يفعل ما فعله هذا الفلاح السوفيتى الأمى. وهذا العالم الإسلامى وعلى رأسهم مصر يموج بالعلماء والأدباء والمفكرين الذين بمكنتهم إن أرادوا أن يرفعوا من شأن أوطانهم، وأن يتصدوا لإبعاد كل من يتعصب ضدهم عن بلادهم؟
ولقد قال الشاعر:

جهل الفتى عار عليه نفسه وخموله عار على الأيام
وإلا فهل يعتنق المسلمون قول المتنبى - فلا يحميدون عنه - الذى
قال فيه، مامعناه:

إنى لا أبالى بالرزايا لأنى إذا ما انتفعت فلن أبالى؟! .
و صدق الله العظيم: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا
أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُوا لَنْ نَكْفُرَنَّ عَنْ
الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَاءَ﴾ . [سورة سبأ: الآية ٣١ - ٣٢]



مشكلة النفاق، والأنفاق..؟

إذا كان النفاق هو سر البلاء.. فالأنفاق هي سبب الابتلاء.
قلنا في كتابنا «خواطر قاص»:

«إن الذى لا مشاحة فيه أن المؤمن يحسن الحسن ويقويه.. أما المنافق فيقبح الحسن ويؤميه.

والمنافق يدخل فى كل حُب حِب (أى مكر)، وفى كل رغبة طمع وفى كل خير شر لا ينتهى من نفاقه إلا ليبدأ ولا يبدأ حتى ينتهى، - وهكذا دواليك - عود على بدء يغفو على نفاقه فهذا هو مبتغاه لا يعرف الصدق فقد شاقق الله ومن ثم عاداه، ولم يرتض عن فسقه بديلاً بمنهجه الذى تغياه يمسى ويصبح فى فرح فارح بنفاقه يظن أنه بالمداهنة أصبح فى عداد الفائزين السعداء لا يغلب عليه الملال، وهو فى حقيقته من التعساء توعدهم الله بالعذاب الأليم مع غيره من الأشقياء الذين اتخذوا النفاق ديدنا لهم لا يبعثون عنه عوجاً أو سبيلاً.

هو يخلع رداء النفاق تارة ثم يرتدى مسوحه طوراً آخر متسربلاً بالغش والخداع يقتل نفسه بنفاقه ويزرى عقله بكذبه وريائه فالمنافق - دائماً وأبداً - يحترف الكذب، لا يخاف ربه؛ فقد ران الظلام عليه وسعى الفساد سعياً إليه هو كالأرض الناشئة (وهى السبخة التى يمتزج فيها الملح بالماء فيقتل الملح أرضها ويميتها ثم لا يحييها) فهى غريزة النفاق التى تأصلت فيه وبها تحويه تدور معه ويدور بها لا ينفك يتحول عنها فهو مقيد بأموائه ونزعاته وكلمتا الفضيلة والاعتداد بالنفس معدومة

فى لغة الأهواء والنزعات وطالما رضى عنه المنافقون ممن على شاكلته فيظل ركيناً هادئاً مشدوداً بأعضاده فى طبقات الأرض، ولا جرم أن يكون خسفاً فى أديم الأرض، والمنافق يظهر غير ما يبطن ويبطن غير ما يظهر تحقيقاً لمصلحته الذاتية؛ فهو يعتنق الأباطيل ويطمح فى البراطيل عن طريق الزلفى والوشاية والغواية، والنفاق ظاهرة مَرَضِيَّة وهو إن كان دليل ضعف للمنافق فهو دليل قوة للذى ينافقه. فأحياناً يكون على ذات دربه من النفاق، والكذب هو من خصال المنافق، يقول الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه: أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خلة منهم كانت فيه خلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر إذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر، كما يقول: «اتقوا الله من الشرك الأصغر» قالوا: «وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: النفاق فإنه يدب على القلب دبيب النمل». وقد حرمت الأديان جميعها النفاق، ففي الديانتين المسيحية واليهودية ذكر العهد القديم كلمات لا تسرق ولا تكذب ولا تغدر بصاحبك.. وهاتيك هى علامات المنافق.

ظهر النفاق فى ضحى الدولة الإسلامية بعد أن أصبح الإسلام دولة وقوة وجاء الإسلام ليقسم النفاق إلى نوعين (اعتقادي) وهو الذى يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر، و(عملى) وهو الذى يأتى أعمالاً من أعمال المنافقين مع بقاء الإيمان فى القلب.

والنفاق فى اللغة العربية هو من النفق الذى تحفره بعض الحيوانات فى جحورها بغريزتها دفاعاً عن نفسها فتجعل فيه فتحتين أو أكثر، فإذا هاجمها عدو من واحدة خرجت من الأخرى، وقد سُمى المنافق منافقاً لأنه يجعل لنفسه وجهين يظهر أحدهما ويخفى الآخر حسب الموقف الذى يجابهه.

هذا عن النفاق الذى تحدثنا عنه ، فى كتابنا الذى أشرنا إليه .
أما الأنفاق التى ولدت من رحم النفاق ، فقد كان عددها لا يزيد عن
عدد أصابع اليد . أضحى الآن تعد بالمئات يتسرب منها المتسربون
ويتسلل منها المجرمون داخل أرض سيناء .. أرض الرسل والأنبياء .
فلقد تركت الدولة هاتيك الأنفاق سداً مداً ، فأمست تمثل بؤرة
هى فى حقيقتها شبكة الدماء التى حالت بيننا وبين حماية الزمار
أوصون الديار ، روعت مصر من خلالها بقتل الأبرياء وخطف جنود
مصر وضباطها الشرفاء - ناهيك - عن عرب سيناء الذى أصبحوا كأهل
موسى فى الليلة الليلية !

والذى - لا مرأى فيه - أن القول أن عرب سيناء يلوذ بهم الخاطفون
ويحتمى بهم الآثمون فهو قول عار من الصحة ، ولا سند له من الواقع
أو القانون .

ففى مؤتمر «السكة» الذى عُقد بين شيوخ سيناء فى عام ١٩٦٨م عُقد
هؤلاء الشيوخ العزم على الدفاع عن وطنهم سيناء الذى هو جزء لا يتجزأ
من وطنها مصر لا يبغيون عنه حولاً ولا عوجاً .

هذه الأنفاق هى الطامة الكبرى لمصر فهى تسمح بولوج الخطيرين
على الأمن القومى ذهاباً وإياباً منها وإليها حاملين كل ما هو محظور من
أسلحة أو مخدرات للإتجار فيها ، وبثها بين الآحاد والجماعات .

وليس من شك أن مصر منذ عام ١٩٦٧م . بل وقبلها قد أهملت سيناء
إهمالاً مزيئاً بغياب العدالة الاجتماعية عن شخوصها وساكنيها حتى
اعتورتهم وصمة عدم الانتماء إلى مصر ، إن لم يكن جميعهم فالكثير
منهم .. وقد كانت إسرائيل وراء ذلك تريد طمس هوية سيناء وزلزلة

أمنها القومي.. وابتلاع سيناء فى جوفها ذات يوم مرتقب، كما ابتلعت من قبل أرض فلسطين.

يقول الأستاذ «السيد يس» فى كتابه (تشریح العقل الإسرائيلي) استطاعت إسرائيل فى غضون عام ١٩٤٨م انتزاع مساحة قدرها ٧٦ ٪ من أرض فلسطين العربية، ليس بالسلاح فقط إنما بالترويع والتخويف. إذ أنهم رأوا أن الحياة فى ظل المجتمعات الأوربية الحديثة من شأنها أن تجعلهم يتمزقون بين السحق الروحى والحضارى.

فى رحلة تحفها الأخطار شددت الرحال مع أبنائى إلى جنوب سيناء وشاهدنا بعيوننا هذا الكم والكيف من الإهمال الذى ألم بسيناء داخل أراضيها ودروبها الشاسعة حتى أصبحت تشكو من الفقر الذى ألم بها، والعوز الذى سكن قلبها.

وقد التقينا مع مجموعة من مشايخ سيناء بثونا شكاياتهم، وأنهم لا يجدون عملاً سوى زراعة أراضيهم - ومن أسف وعجب - بالمخدرات، وأشار واحد منهم إلى هذه الزراعة التى ينهضون عليها والتى تمد أهل سيناء فضلاً عن أهالى مصر بهذه السموم القاتلة.

وإذ علت الدهشة وجهى قال: إن هذه الزراعة تتم تحت بصر وبصيرة المسئولين وهم يعلمون ذلك.

وفئة أخرى من أعراب سيناء أشاروا إلى بيوتهم المتواضعة وبأن المجالس المحلية ترفض الاعتراف بها لأنها بنيت بدون ترخيص من المسئولين. وعندما ألفت فى أيديهم أسلحة يقبضون عليها قالوا إنهم إنما حصلوا عليها من خلال ما تنعم به عليهم الأنفاق.

ويممنا وجوهنا تجاه العريش عند معبر رفح العسكرى بعد مقتل الجنود الأبرياء الشهداء الذين قتلوا على يد هذه الطغمة الفاجرة التى

ارتكبت جريمتهم فى ليلة من ليالى رمضان والجنود صائمون ولم يقبض عليهم حتى الآن لغيبة الأمن وغياب الأمان واضمحلال دور الشرطة أو الجيش على السواء.

وعندما والينا السير تجاه معبر رفح البرى وعرجنا منه إلى معبر رفح الحربى تعرضنا للضرب بالرصاص، ونجانا الله - أنا وابنى - من الموت المؤكد.

ولم يحفظنا إلا الله وأنجانا من هذا الموت الزؤام فقد أحاطنا جنود الجيش المصرى الصناديد بكريم رعاياتهم سائلين إيانا ما الذى أتى بكم إلى هذا المكان؟!

عرب سيناء هم أناس طيبون مسالمون ارتضوا أن يعيشوا بين جنبات سيناء عقوداً طويلة بل حقباً مديدة من الزمان، ومصر تغض الطرف عنهم.

والذين يتفخفخن عن العرب إنما يأتون أمراً إذا. والذين يتهمون عرب سيناء بأنهم غير منتمين إلى أمهم مصر، وأنهم هم المسئولون عن صحراء سيناء أو غيرها من الصحارى، هم كما عبر أستاذنا العقاد فى كتاب له: مثل هؤلاء الذين يوصمون قبائل الإسكيمو بأنهم هم الذين خلقوا مناطق الجليد ومن ثم لا يستحقون الوفاء؟! . وهذا أعجب من قولهم أن العرب هم الذين خلقوا الصحراء وأنهم من هذا لا يستحقون الرثاء؟!

ظلموا عرب سيناء، وهم من تهمتهم براء. عبر البغدادى المشهور بـ «السويدى» فى كتابه (سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب) أنه: «ما من طامة إلا ومن فوقها طامة»!

والطامة الكبرى هي ترك سيناء عرضة للمطامع والأهواء.
يحدثنا التاريخ أنه منذ ٢ نوفمبر ١٩١٧ وهو تاريخ صدور وعد بلفور
المشئوم واحتلال بريطانيا لفلسطين العربية في ديسمبر من ذات العام،
وتهجير اليهود من شتى البقاع والأصقاع قائم على قدم وساق لتهجير
اليهود إلى فلسطين.

ونظرية الألعاب Game theory تعتنقها إسرائيل، وهي تلك
النظرية التي تلعب دورها في المصالح بين الدول أوضحت النظرية المفضلة
لإسرائيل تدق بها على مصالحها وعلى ما تتغياها، وما تزعم أنه من
خلاله لها الحياه.

وعندما زار كاتب هذه السطور إحدى المواقع الحصينة التي استولى
عليها الجيش المصرى غداة حرب أكتوبر، وتوغل داخل أنفاق هذا
الموقع رأى كتاباً باللغة العبرية مسجلاً عليه:

«من النيل إلى الفرات»!

وفى كتاب عن الإرهاب البيولوجى قرأنا لمؤلفه «الدكتور محمد على»
أن وسائل الإعلام قد طالعنا بأخبار مرعبة عن أسلحة الدمار الشامل
البيولوجية Biological Weapons of Mass Destruction التي
تعد إسرائيل لها العدة منذ عام ١٩٩٨.

وتقول إحدى الصحف الإنجليزية:

«إن القوات المسلحة الإسرائيلية قد زودت بأحدث أسلحة الدمار
الشامل الكيميائية والبيولوجية. وإن طائرات سلاح الجو الإسرائيلى من
طراز F - ١٦ قد تم تعديلها بحيث تحمل أسلحة كيميائية وبيولوجية.
وإن طاقم سلاح الجو يتدرب الآن على استخدام تلك الأسلحة. استعداداً
للمواجهات المسلحة المحتملة ضد جيرانها العرب!».

وبداية فإن جيران إسرائيل العرب هم مصر وسورية فضلاً عن غيرها من الدول العربية.

وهذا السلاح استخدمه الإنسان البدائي الذى كان يستخلص من بعض النباتات والحيوانات المواد السامة يطعم بها رؤس رماحه وسهامه المسمومة لقتل حيوانات الصيد، وأعدائه من البشر. ومازالت هذه الطريقة مستخدمة فى بعض قبائل الهنود الحمر بأمريكا الجنوبية، حيث يغمسون سهامهم المسمومة فى مستخلص بعض الضفادع السامة، وذلك فى بعض القبائل الأفريقية.

ومصر بسينائها هي العدو المرتقب لإسرائيل وقد تعودنا منها الخداع والتضليل ناهيك عن الكذب الصراح، فهاهى ذى طائرة إسرائيلية تابعة لشركة العال تتحطم بالقرب من عاصمة هولندا (أمستردام) فى يوم ٤ أكتوبر ١٩٩٢ اكتشف أنها كانت تحمل ١٩٠ لتراً من مادة كيميائية سامة تستخدم لتصنيع غاز الأعصاب سارين Sarin فى مصنع مقام فى ضاحية نيززونا بالقرب من تل أبيب على الحدود المتاخمة لسينا؟!!

يتحدث علماء الحشرات عن العناكب فيقولون إن العنكبوت عندما تفرغ من بناء بيتها تضع به خطأ «هاتقياً» فهي تغزل خطأ يصل ما بين وسط البيت إلى مخبئه القريب، وتقبع العنكبوت فى مخبئها تتربص بفريستها الدوائر وعندما يهتز الخط الهاتفى تسرع العنكبوت وتحوطها بخيوطها الحريرية. ومن بعدها تبدأ عملية الافتراس.

كما يتحدثون عن (العنكبوت الذئب الكبير «تارنتيولا») الذى ينقض على فريسته ويبث فيها سمه بواسطة أنيابه!

وهكذا تود إسرائيل أن تفعل بسينا التى هى فى القلب بالنسبة إلى مصر.. وهى أرض الرسالات حيث اتصلت الأرض بالسماء وتردد

فى جنبات الوادى المقدس «طوى» كلمات الله لسيدنا «موسى» - عليه السلام - : «يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى» وهى التى رعى فيها نبي الله «شعيب» - عليه السلام - غنمه . ومشى على دروبها نبي الله «إدريس» - عليه السلام - . وأبو الأنبياء إبراهيم الذى قطع سينا جئنة وذهابًا باحثًا عن زوجته سارة التى كان فرعون مصر قد أسرها . وكذلك أنبياء الله «يوسف و يعقوب والأسباط» - عليهم جميعًا السلام .

وكذلك من قبلها طرد «أحمس الأول» الهكسوس من فيا فيها وقفارها . وجاس خلالها رمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى . وعلى أرضها استعان بطليموس الرابع «فليوبتر» حاكم مصر لقتال «أنطيوخس» . ومن منا لا يعرف أن أرض سينا قد فتحت ذراعيها لسيدنا «المسيح» - عليه السلام - وأمه البتول وبصحبتهما «يوسف النجار» خوفًا من جيروت «هيرودس» الذى أمر بواد الطفل الوليد «عيسى» - عليه السلام . ويذكر الدكتور «دعبس» فى كتابه (دراسته فى أنثروبولوجيا - شمال سينا) : إن الجيش الإسلامى فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - توجه عمرو بن العاص على رأس أربعة آلاف مقاتل لفتح مصر مارًا برفح متوغلاً بسينا . وعندما هل مساء يوم ١٢ ديسمبر ليلة عيد الأضحى المبارك عام ٦٣٩م (١٨ هـ) سأل قوات جيشه :

«أين نحن الآن يا قوم؟»

قالوا نحن غرب العريش .

قال : نحن اليوم فى عيد!

ويتقدم عمرو بن العاص بجيشه عبر سينا ليحقق الفتح الإسلامى لمصر برمتها .

كما كانت سيناء هى المعبر التى عبرت عليه قوات صلاح الدين الأيوبي لمجابهة جيوش الصليبيين فى موقعة حطين والانتصار عليهم عام ١١٨٧ ميلاديا.

وفى عام ١٢٦٠م نجحت القوات المصرية بقيادة الملك «قطز» بعد أن عبرت بوابة سيناء وألحقت الهزيمة النكراء بجيوش المغول والتتار التى كانت تهدد العالم برمته ووسدت تلك الجيوش الثرى.

وهل ينسى التاريخ معارك السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م التى أذاقت القوات المصرية جيش إسرائيل الويل والهوان حتى تحدث بانتصارها الركبان!

يقول صاحب كتاب «السياسة والحيلة عند العرب»:

إن العقل هو الذى يفرق بين الحق والباطل والحسن والقبيح والعدل والجور وبه توضع الأشياء فى مواضعها من صواب الرأى والتدبير تكسب الأشياء المحمودة وتجتنب الرذائل المذمومة.

وقال «فيثا غورس»:

العقل هو الوقوف عند مقادير الأشياء قولاً وفعلًا.

وقال أفلاطون:

العقل هو النظر فى العواقب.

وقال سقراط:

لو صور العقل لأضاء معه الليل، ولو صور الجهل لأظلم معه النهار.

وعن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال:

«إذا بلغكم عن أحد حسن حاله فانظروا إلى حسن عقله، فإنما يجزى

بعقله»

فلا أغضنا الطرف عن مجاملة زيد ويزيد، ومن نريد. أن نزجى له المساعدة من خلال ترك - هاتيك - الأنفاق تفتح على مصر بوابات الجحيم بهذا الفعل الذميم؟، ونعمل جاهدين وصادقين على غلقها، فقد أمست تنشر وتنتشر بين أرجاء سيناء، فى العريش، والريسة ومدينة الشيخ زويد، وفى رفح، وبالقرب من مطار الجورة الذى يتمركز فيه عصابات عديدة مكونة من أرباب السوابق، والهاربين من السجون، والفارين من تنفيذ أحكام المؤبد، والإعدام، ونشاطهم الرئيسى قطع الطرق، ومهاجمة رجال الشرطة، ومنها أخطر البؤر الإجرامية فى شبه هذه الجزيرة جزيرة سيناء، مختبئة فى «جبل الحلال» الذى يخترق سيناء بطول ١٦٠ كم وتكثر به الكهوف والمغارات العميقة التى لا يعرف مداخلها ومخارجها - ناهيك - عن مسارها إلا نفر قليل من البدو، ومن يقترب منها فالموت العاجل فى إنتظاره؟!.

إن هذه الحرب الضروس التى شبت نيرانها واشتعل أوراها بين مصر وبين هذه الفئة المارقة التى ضربت جنبات مصر وأقضت مضاجعها، يصبح فيها المقتول والمجروح، من الرعية. يقول الشاعر:

فالحرب تنكح والنفوس مهورها ما بين أبار تزف وعون
وترى الدماء على الجراح طوافيا وكأنها رمد بنجل عيون؟

يذكر «عبد الرحمن الكواكبي» فى كتابه «طبائع الاستبداد، ومصارع

الاستعباد»:

إن الاستبداد يحول المجتمع إلى جثة هامدة يستطيع النيل منها كل من أراد من الأعداء المتربصين، ومن هنا يستلزم الأمر الوعى الدقيق لمشكلات المجتمع وتلمس الحلول لها لبدأ حركة الإنقاذ، والوعى

عادة لا يتوفر إلا بنشر الثقافة، وتحديد الملامح الأساسية لأطر الفكر الإصلاحى.. وإن من أقيح أنواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم، واستبداد النفس على العقل.. فالاستبداد يد الله القوية الخفية يصفع بها رقاب الآبقين، والاستبداد السياسى يتولد من الاستبداد الدينى الذى جعل بعض المستبدين يدعون أنهم هم ظل الله فى أرضه.

وقد جاء الإسلام مؤسسًا على الحكمة والعزم ومُحكماً لقواعد الحرية السياسية بين الديمقراطية والثيوقراطية فأسس التوحيد ونزع كل سلطة دينية ووضع شريعة صالحة لكل زمان وقوم ومكان.

ويقول «الكواكبى» فى كتابه هذا:

«يا قوم عافاكم الله. إلى متى هذا النوم إلى متى هذا التقلب إلى فراش البأس ووسادة اليأس؟ أنتم مفتحة عيونكم ولكنكم نيام، لكم أبصار ولكنكم لا تنظرون، وهكذا لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور.. شفاكم الله... قد ينفع اليوم الإنذار واللوم، وأما غدًا فإذا حل القضاء فلا يبقى لكم غير الندب والبكاء».

إن المستقرئ للتاريخ يعلم أن أختاتون كان أول من دعا إلى التوحيد، بيد أنه تفرغ للعبادة وترك العباد والبلاد حتى خربت مصر، فأطلق عليه المؤرخون the heretic pharo أى «الفرعون المارق».

فهل نترك مصر بأنفاقها المزروعة فى سيناء.. ونهمل صحراواتها التى تمثل بعدًا استراتيجيًا لمصر، دون تنمية أو نماء، بهذا الإهمال وذاك الجفاء؟!!



مشكلة الأخلاق..

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبَت أخلاقهم ذهبوا
قالها أمير الشعراء فأصبحت آبدة من الأوابد.
غياب الأخلاق يعنى الفقر والإملاق.. الفقر فى العقل والإملاق فى
الفكر والوجدان لكل من ينتمى إلى بنى الإنسان.
ضياح الأخلاق كان سبباً فى إجبار «سقراط» على تجرع السم الزعاف
حتى مات.

وغيابها هو الذى دفع بالغوغاء إلى قتل فيلسوفة الإسكندرية
«هيبتييا».. واضمحلالها كان وراء قتل أمير المؤمنين «عثمان بن عفان»،
ومن بعده «على بن أبى طالب» كرم الله وجهه.
فعدما يغيب الدين، يضيع اليقين، لأن الدين هو الذى يزكى فضيلة
الأخلاق لدى جميع خلق الله.

ولقد حضت الأديان الكتابية جميعها ناهيك عن غير الكتابية على
فضيلة اعتناق الأخلاق.

فالأخلاق المسيحية ترتكز على تعاليم يسوع خاصةً عظة الجبل.
وشكلت تعاليم الكتاب المقدس وآباء الكنيسة والمجامع المسكونية،
المرجع الأخلاقى الرئيسى للمسيحية. وفى القرون الوسطى تبنى
القديس توما الإكوينى الفضائل الأربعة الرئيسية لأفلاطون وهى: العدالة
والشجاعة والاعتدال والحكمة، وأضاف إليها الفضائل المسيحية مثل

الأمل والإيمان والإحسان، والتي ذكرها القديس بولس. وشملت أيضاً السبع خطايا المميتة والفضائل السبع وهي العفة، والاعتدال، والإحسان والاجتهاد والصبر والल्प والتواضع، لتصبح ركائز الأخلاق المسيحية. وفي الدين الإسلامي الحنيف يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله - عليه الصلاة والسلام - فيقول له في [سورة القلم: الآية ٤]:

﴿وَأَنَّكَ لَ عَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾

والأخلاق تعنى أن يكون مراد العبد بجميع أقواله وأفعاله مآظهر منها وما بطن ابتغاء وجه الله الكريم.

وقد جاء أمر الله للعباد يقول:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا

الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾. [سورة البينة: الآية ٥]

والحنيفية هي ملة أبى الأنبياء إبراهيم، وعكس الإيمان بالله الذى يكتمل به خلق الإنسان هو الإيمان بالطاغوت، الذى مرجعه إلى الشيطان الذى يخرج الإنسان من حظيرة الأخلاق الحميدة ويدفعه دفعا إلى الرذيلة، ويطغيه ويغويه:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَيُوَدِّعُكُمْ

فَأَخْلَفَكُمْ ۗ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا

تَلُومَ لِي وَلَا تَلُومًا لِنَفْسِكُمْ ۗ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ

إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ﴾. [سورة إبراهيم: الآية ٢٢].

فها هو ذا الشاعر الذى نسى خُلُقَه وأنكر بعثه يقول:

إبليس أكرم من أبيكم آدم فتبينوا يامعشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار؟!

وذلك هو الشاعر «بشار بن برد».

ونسى هذا الشاعر «الرجيم»، كما وصف الشاعر «بودلير» نقول:
نسى خالقه.. وأنكر بعثه.. فكل امرئ يصبح فى أهله، والموت أدنى
من شراك نعله.

كتب أستاذنا العقاد فى كتابه الرائع «إبليس» يقول:

«أصحاب الأخلاق يستمسكون بالعروة الوثقى.. يعملون لديناهم كأنهم
يعيشون أبدا، ويعلمون لآخرتهم كأنهم يموتون غدا، كما قال رسول الله». .
فهم لا يطعمون ولا يغتروا ولا يأخذهم بالله الغرور لا يفرح بما هو
آت، ولا يبكى على ما فات، لا تشخص أبصارهم إلى مال أو جاه،
فيحرصون على الحق فى مبتغاه يتمثلون بقول الشاعر:

إنك تحصى لكى تنال الغنى وليس تعصى الله كى تفتقر

«وذوو الخلق يفرقون دائماً بين الخير والشر».

«وبعد التمييز بين الخير والشر ثمة خطوة أخرى ألزم - كما قال

العقاد - من تلك الخطوة الأولى فى تاريخ الأخلاق الحية».

«وتلك هى معرفة الخير فى الصميم»

«فعلى الإنسان أن يعرف حقيقة الخير ليعمله على بصيرة،

«فليس الخير خلواً من الشر وكفى.

«وليس الخير ابتعاداً عن الشر وكفى».

«وليس الخير عجزاً عن الشر وكفى.

«وليس الخير من مخالفة للشر وكفى.

«بل الخير شئى قائم بذاته، وليس قصاره، أنه امتناع عن شىء سواد.

«الخير هو القدرة على الحسن مع القدرة على القبيح وهو الاختبار

المطلوب بعد التمييز بين القدرتين.

«فوظيفة الشيطان أن يثبت عجز الإنسان (فيبعده عن حظيرة الأخلاق)

أمام الغواية، والفتنة وهو يتردد بين الخير والشر المباح والحرام.

«فأرباب الأخلاق يصنعون الخير، وللشر عنهم غواية، ولهم فى

نفسهم فتنة ولولا ذلك لما كان لهم فضل على الملائكة ولا على الجان.

«فليست الملائكة ولا الجان فى صورتها الحية مخلوقات نامية فى

معرفتها، عالمة ما تعلمه بعد جهله، متقدمة من الطفولة إلى الرشد إلى

غاية المدى المقدر لكل مخلوق».

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ

كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ

يَتَّكِدُمْ أَنْبِئْتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ

أَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

[سورة البقرة: الآية ٣٠ - ٣٤].

فليست القداسة أن تكون نورًا وأنت نور. وليس الفخار أن تكون نارًا وأنت نار.

«وإنما القداسة والفخار أن تكون نورًا ونارًا وأنت تراب، وأن تسبح وتقدس وأنت قادر على الفساد والعدوان».

والذى لا مرء فيه أنه عند ظهور الإسلام فى شبه الجزيرة العربية إبان القرن السابع ذكا عود الإسلام حتى أصبح بشرًا سويًا أفاء على العالم كله بنوره وضيائه بدعوته واعتناقه لمبدأ الأخلاق الذى دعت إليه الحضارات الإنسانية الأولى منذ عهد عهد عهيد وزمان قديم ضرب فى أغوار الماضى البعيد الذى كان فى بعض الأحايين مكفوفًا للترهات والأساطير والظلمات، فثمة تيارات خلقية كان لها قيمتها فى تاريخ الأخلاق وردت فى الديانة المصرية القديمة ووصايا التوراة وتعاليم البوذية وفلسفة الكونفشيوسية (Confucianism) التى أتت على يد حكيم الصين كونفشيوس، والذى حياه أمير الشعراء «أحمد شوقى» عندما مر «المهامتا غاندى» عبر قناة السويس لمفاوضة الإنجليز لكى يجلو عن الهند التى كانوا يستعمرونها فقال:

«نبى مثل كونفشيوس أو من ذلك العهد».

وقد كان فلاسفة اليونان هم أول من فلسفوا معنى الأخلاق، ويرى البعض (الدكتور أحمد أمين) أن كتاب «أرسطو» فى الأخلاق التيقوماخية أعظم ما كتب فى الأخلاق حتى عصرنا الحاضر!

بيد أن أرسطو قد امتدح الكبرياء، فجاءت المسيحية لتدعو إلى الاتضاع الذى كتب عنها «البابا شنودة الثالث» مقالات رائعة.

وإن كان الدكتور «أمين» يرى أن كتاب «مسكويه» «تهذيب الأخلاق» أكمل دراسة علمية في مجال الأخلاق.
وعود على بدء!.

فالذى لا لاجاة فيه أن مفكرى الإسلام قد رأوا أن المبادئ الخلقية يجب أن تقوم على أساس الإيمان بالله . والأخذ بما جاء عنها فى كتابه الكريم.

وإن العلم الذى بزغ نوره على يد الفلاسفة المسلمين وهم يبحثون على الأخلاق بز الأولين والآخرين فيما دعوا إليه ، وحثوا عليه.
يقول الشاعر:

إذا كان علم الناس ليس بِنافع ولا دافع ، فالخُسْر للعلماء
قضى الله فينا بالذى هو كائن فتمَّ ، وضاعت حكمة الحكماء!

يقول صاحب الكشكول:

- دافع الأيام بالتفكير فى يوم المات
- وارض عن عيشك بالكسرة والماء الفرات
- فهى تكفيك وتغنى عن جميع الشهوات
والذى لا مشاحة فيه أن الدولة المصرية قد اعتورتها الرخاوة، وانخفض المستوى الثقافى، وضاع من الكثير من الناس مبدأ «الأخلاق»، لم يأبهون لها أو يعتنقون إياها، وكان بعضهم لا يطمعون إلا فى اعتلاء منصب رفيع . ولا يطمحون إلا فى التمتع بالسلطة، والتهافت على الثراء.. ولا يستقيم هذا كما عبر الدكتور «جلال أمين» فى كتابه «مصر والمصريون فى عهد مبارك».

وإذا كان الغضب الذى اجتاح الشعب المصرى وانفجر فى وجه الغاصبين يوم الثلاثاء الموافق ٢٥ يناير ٢٠١١ إلا ثورة شعب غاضب، «فقد خرج الشعب الغاضب يطالب بإسقاط نظام اتسم بالظلم والفساد والدكتاتورية» حياىل رجال هذا النظام الذين اتصفوا بالتعالى والغطرسة والكبرياء.

وإذ مات خمسة من المصريين بالانتحار أو محاولة الانتحار أمام مجلس الشعب أو فى شوارع الإسكندرية، معلنين أنهم سئموا الحياة مع البطالة والفقر والظلم فلم يجد رجال النظام السابق - الذى ضاعت منه الأخلاق - فى هؤلاء المنتحرين إلا مجموعة من المرضى النفسيين؟! كما عبر الدكتور «جلال أمين» فى كتابه الذى ألمعنا إليه.

ضَاعَتْ ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م ومع الآمال المرتقبة منها، فقد هاج جيش جرار من الشعب وماج وأمسى المصريون بضياح الأخلاق يقتتلون فيما بينهم، وفى كل يوم نسمع عن قتلى هنا، وقتلى هناك، وانفلتت من الناس مشاعرهم بغيبة أخلاقهم حتى أمست مصر وكأنها.. بدون أخلاق!؟.

وقع بعض شعب مصر فى بئر لا قرار له من الحيرة، والبهتان فأصبح كما عبر الشاعر فى قوله:

أسمع الشعب ديون	كيف يوحون إليه
ملاً الجو هتافاً	بحياتة قاتليه
أثر البهتان فيه	وانطلى الزور عليه
ياله من بيغاء	عقله فى أذنيه

وثمة شاعر آخر يقول:

شعور الشعب يا جعفر حق لا هوى فيه
يحبس الكره والبغض فيجريه على فيه
يميز بوحى فطرتة عداه من محبيه
له من وعيه الساذج مصباح فيهديه

أصبح العنف السائد فى المجتمع المصرى هو الثقافة السائدة فيه، متمثلاً فيما يفعله الفرد ضد ذاته، وفى الآخرين بعد أن أصاب المجتمع التشرزم، وأصبحت قضاياها قضايا فتوية، وأدواته أدوات إجرامية. أصبحنا نشاهد الكثير من مشاهد القتل والمآسى الإنسانية وتفجر العنف فى العلاقات الحياتية يسير على وتيرة متصاعدة متنامية حتى وصلت إلى المحارم ذاتها. وتنوعت الجرائم فى مصر. هذا يقتل ابنه، وذاك يذبح أباه، وتلك تلقى بقلذات أكبادها فى أعماق النيل، وذاك أحد رجال القانون يفرغ طلاقات مدسه فى صديقه ثم يدعى الجنون حتى أسى هذا العنف على حد تعبير كاتب «يمثل قمة جبل الجليد».

وأصبحت مخالفة الآداب والأعراف وانتهاك القانون حتى أسماها الصديق الدكتور محمد نوح عرفات «بالجرائم القذرة».. فالجرائم - القتل - تسبقها جرائم أخرى: تعاطى المخدرات، أو مخالفة أصول وقواعد قيادة السيارات، أو حمل الأسلحة بدون ترخيص، ناهيك عن قتل رجال الشرطة الأبرياء والتصدى لسدنة العدالة الشرفاء من خلال الضغوط الحياتية التى ضربت جنبات ديار مصر برمتها.

كما شكلت البلطجة ثقافة وضیعة لطخت سمعة مصر فى العالمين، وأصبح القتل والذبح والسرقه بالإكراه جزء كل من يعترض سلوكيات

هؤلاء المارقين، فلم تعد الجريمة من قبل هؤلاء مقصورة على منطقة بعينها، بل امتدت كما ذكرنا لتشمل المجتمع جميعه ريفه وحضره حتى أصيب المجتمع بالبرود فلم يعد يستهجن بالتعود عليها مثل هاتيك الجرائم.

فأصبحنا نرى الشخصيات غير السوية والمدمرة فضلاً عن السيكوباتية تملأ العين ليل نهار.

ونرى أن الإحباط الذى عشنش فى عقول المصريين قد ولد لديهم العدوانية بعدم الأمن وغياب الأمان. فضلاً عن ضياع الآمال. بل وهذه هى ثلاثة الأساقي، أصبحت عمليات السطو العلنى - وعلى مرأى ومسمع الجميع - سائدة دون واعظ أو رقيب فى أروقة مصر جميعها. ولقد خلق إذعان الشعب المصرى المدموعة من حاكمه علاقة سلبية بينه وبين السلطة التى ينظر إليها المصرى على أنها أداة قهر واستغلال. ولقد أدى غياب مساهمة المصرى فى حكم بلاده إلى شعوره بالاغتراب السياسى تجاه وطنه.

ومن العجب العجاب أنه فى بعض المحاكمات نرى صورة شاهدة على مدى انتشار العيبك بالقانون فى مصر، فكم من سيارات وقفت ملاصقة لبعض المحاكم التى يحاكم فيها المجرمون لاختطافهم بعد انتهاء جلسات محاكمتهم.

انفلتت القيم وضاعت الأخلاق وأصبحت ثقافة مطواة قرن الغزال هى المنتشرة فى الحال وفى المآل.

وفى تقرير للأمن العام أثبت أن القاهرة تحتل المرتبة الأولى فى جرائم اغتصاب الأطفال، وكذلك الإسكندرية وغيرها من المدن.

وأرجع الباحثون ذلك نتيجة للظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ناهيك عن الأمراض النفسية التي أصابت مصر فى مقتل. وهاهوذا العالم الجليل الدكتور «أحمد عكاشة» يثبت فى بحث له أن العديد من المصريين قد أصابتهم الأمراض النفسية التى أصبح لا فكاك لهم منها؟!..

فهل من سبيل لعلاج هذه المشكلة الأخلاقية التى طفت أخيراً على سطح الحياة المصرية، وناءت على كاهل مصر بكلكلها، ووصمتها بوصمة لم تكن مصر تعرفها من قبل.. ونؤمل ألا تعرفها من بعد؟!..



محور قناة السويس.. نعمة أم نقمة؟!

تاريخنا مع القناة.. يتحرك؟! -
كان حفر هذه القناة أشد فتكًا بأرواح الفقراء من المصريين، وبالغزل الأبرياء.

فإذا كان «جوستاف فلوبيير» قد قال:

«حقًا، إن الشرق يبدأ من القاهرة»

فنحن نقول: حقًا إن موت آلاف المصريين وإزهاق أرواحهم قد بدأ مع بداية حفر هذه القناة.

وإذا كان الثابت في سجلات التاريخ أن وباء «الكوليرا» الذى تفشى فى أجواء مصر، وفى أرجائها سنوات طوال هى حصرًا أعوام ١٨٣١ - ١٨٤٨، ١٨٥٠، ١٨٥٥، ١٨٦٥.

وبدأ ظهوره فى قرية القرين بالشرقية وانتشر منها إلى قرى كثيرة وانتقلت عدواه إلى الوجه البحرى فالوجه القبلى وبلغ عدد القرى التى اجتاحتها مائتان وسبع وعشرون الف قرية ومدينة وجاءت نهايته فى أوائل ديسمبر من عام ١٩٤٧ كما ذكر الرافعى فى كتابه مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

ثم عاود الهبوط على مصر فى عامى ١٩٤٦، ١٩٤٧ وحصد أرواح آلاف المصريين حصداً فى مدنها وقرائها ونجوعها وكفورها مما أسفر عن وأد ما يقرب من مائة وخمسين ألف من أهل مصر المحروسة

حتى كانت النعوش وبداخلها أحداث الموتى تترى بأرتالها فى جميع
الطرقات يشاهدها الرائى والدموع تتحجر فى مقلتيه بينما انسابت من
أهل الضحايا وانسالت من مآقيهم حزناً على فراق ذويهم.

إذا كان هذا هو الذى دونه التاريخ بخصوص هذا الداء الوبيل وما فعله
بالمصريين. وجاء هذا الداء لايقاس بما اعتورالمصريين وأصابهم فى مقتل
جراة حفر قناة السويس.

فهاهوذا التاريخ يذكر كيف تم حفر قناة السويس بدماء المصريين
الذى سخروا لشق الطريق بينها وبين البحر الأحمر، حيث لم يكن
لديهم كساء أو غذاء أو حتى شربة ماء، حيث كان الماء ينقل إليهم
من بعض المحافظات على فترات طويلة متباعدة مما فت فى عضدهم
واستلب منهم أرواحهم، بعد أن حفروها، وحفروا معها قبورهم التى
وارت أرماسهم بعد أن واصلوا فى عملهم الشاق كلال الليل بكلال النهار.
لقد دون البيانات الرسمية عن سير العمل فى القناة إلى أن تم
افتتاحها صاحب كتاب «تقويم النيل» «أمين سامى باشا» المؤرخ المشهور.
وقد كانت السيمفونية الأخيرة «لتشايكوفسكى» (١٨٤٠-١٨٩٣)
والذى أصيب «بالكوليرا» و بعد عرضها الأول بأيام قلائل أسلم
تشايكوفسكى الروح بعد أن نعى بها نفسه وكأنه كان كذلك ينعى
المصريين الذين لاقوا حتفهم فى ثرى هذه القناة.

وافتتحت قناة السويس فى ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٩ فى حفل أسطورى
رتب له الخديوى إسماعيل بنفسه وأشرف على كل صغيرة وكبيرة حتى
إنه كما ذكر «نوبار باشا» فى مذكراته - قام بكتابة الدعوات للحفل

بنفسه ولم يكتف بذلك فحسب بل قام برحلة حول العالم على متن
يخته (المحروسة) - وهو ذلك اليخت الذى حمل الملك فاروق منزوعاً
من دست الحكم عقب قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - ليسلم تلك الدعوات
للملوك والحكام بنفسه أيضاً.

وكان يخطط مواعيد الذهاب والإياب فى كل بلد بكل دقة ونظام،
وعلق «نوبار باشا» على ذلك قائلاً: «إنه حقاً يتقن هذا الشئ».

وتقول صاحبة الكتاب الموسوعى الجميل «القاهرة - المدينة..
الذكريات» الفنانة «رشا عدلى» كان ذلك الحفل الضخم كشهادة لتدعيم
مركزه كعامل يستحق الاستقلال بمصر وهذا الذى كان يسعى إليه وبعد
كثير من اللقاءات والاجتماعات ومناقشات مع سكرتيره نوبار باشا
والباب العالى حصل عليه أخيراً فى مقابل الكثير من الأموال التى
قدمت كهدايا ورشاوى ليوقع السلطان على ذلك فرمان وإن لم يكن
بشكل صريح، إلا أن المنح التى سنحت له أباحت له الحرية الكافية
فى حكم البلاد وبالأخص نظام التوريث الذى يتيح لأولاده فرصة الحكم
من بعده فكان يدفع ولا يرجو أمام مدفوعاته إلا سبيل الوصول إلى المجد
والارتقاء بذلك البلد الذى كان يشغل تفكيره ليل نهار والذى كان من
حق تاريخه وجغرافيته أن يصبح بلداً غير تابع لولاية أحد فلا يحق
لبلد يحمل ترابها آثار أبطال خطوا فوقها على مر الزمان أن يصبح ولاية
عثمانية، وعلى الرغم من أن دعوات ذلك الحفل التى كتبها الخديوى
وأرسلها بنفسه إلى ملوك أوروبا فإنه لم يحضر سوى الإمبراطورة أوجينيى
زوجة الإمبراطور نابليون، والإمبراطور فرانسو جوزيف إمبراطور النمسا،
 وأمير وأميرة هولندا، والأمير عبد القادر إلى جانب سفراء وممثلى الدول

وحضور حشد كبير من العلماء والفنانين وصل لقرابة الـ ٩٠٠ فرد، ومن بين وفود تلك الدول كان الوفد الفرنسى الأكثر عدداً وفاعلية.

وفى صبيحة يوم ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ مر أول أسطول كان فى مقدمته السفينة «إيجل» تحمل الإمبراطورة تتبعها سفينة إمبراطور النمسا، ويليهما أربعون سفينة أخرى، ويحتشد الجمهور على الجانبين، وأطلقت المدافع طلقات التحية وسط تصفيق وتهليل الجمهور، وتقف أوجينى الجميلة تلوح بيديها برفقة ديلسيبس، ثم كان مشهد لا ينساه التاريخ يوماً عندما عبرت «الإيجل» قناة السويس؛ فها هى القبعات تتطاير والعناق يتبادل وتذرف الدموع، وكانت هى: هل دموع الفرح أم دموع الشقاء؟ والألم لهؤلاء المساكين الذين نزعوا من بيوتهم لثق القناة بالسخره ووقع منهم الكثيرون من شدة التعب والمشقة؛ وقعوا موتى فى العمق الذى كانوا قد حفروه فإذا بهم لم يحفروه إلا ليدفنوا فيه، هل تذكرهم وقتها أحدهم؟! .

وفى ٢٠ نوفمبر، تغيرت خريطة العالم عندما عبرت الإيجل قناة السويس ومنها للبحر الأحمر، انتهى الحفل بعدما سجله التاريخ وكتبه أكبر أدبائه ورسم لوحاته أكبر فنانى العصر فى ذلك الوقت، ومن أحداث ذلك الاحتفال جنوح سفينة الإمبراطور «جوزيف» إمبراطور النمسا إثر عاصفة هوجاء لدى مغادرته «يافا» ويتأخر عن الوصول، جنوح فرقاطة عند الكيلو ٢٨ من القناة بين بورسعيد والقنطرة وكان يصعب إزاحتها وذهب الخديوى إسماعيل للموقع بمرافقة ألف بحار، ولكن فى هدوء استسلمت الفرقاطة بعدما أغرورقت عيون الخديوى بالدموع، وأعلن المسيو «ديلسيبس» زفاه بكنسية الإسماعيلية على «لويز هيلين» التى تصغره عن العمر بعمر، كما احتشد فى المقصورة الأمامية

كثير من علماء المسلمين وشيوخ الأزهر بجانب رجال الدين المسيحي ، وكانت كلمة مرشد قصر التويلرى بملابسه المبهرجة التي أثارَت سخرية الجميع - وصفاً دقيقاً لما يحدث وقتها؛ إذ قال :

«إن طرفى الكرة الأرضية يتقاربان وفى تقاربهما يتعارفان، وفى تعارفهما يهتز جميع البشر». وأردف قائلاً:

«يا أيها الغرب ويا أيها الشرق فلتتقاربا ولتتأملا ولتتعارفا ولتتصافحا». كان افتتاح قناة السويس سلاحاً ذا حدين بالنسبة لمصر. فقد دخلت القناة فى حسابات الأعياب السياسة الدولية والاتفاق المجحف بحق مصر مع شركة قناة السويس ، والتحكيم وسخاء إسماعيل الذى ورط مصر بالديون فدفعت مصر حريتها ثمناً لتلك الديون. يذكر «أحمد شفيق باشا» فى كتابه: «مذكراتى فى نصف قرن» فى الصفحة الخامسة والعشرون منه أن: «إسماعيل باشا كان لا يقدر للمال قيمة، ولا يدرك له وزناً، وإنه حيث كان يقترض بفائدة ما، لا يناقش فى مقدار هذه الفائدة، ولا يقدر نسبتها بالقياس إلى المبلغ المقترض، وإنه كان بالجملة لا يعرف حساب الأموال»

وضرب شفيق باشا مثلاً على هذا الإسراف بأنه يوم أن تحققت أمنية إسماعيل باشا بفتح قناة السويس فقد كانت وبقيت هذه الاحتفالات مضرب المثل فى الأبهة المقطوعة النظير مما دفع الأميرة «أوجيني» أن تبرق إلى زوجها الإمبراطور يوم حفلة الافتتاح تقول له: «وصلت بورسعيد بصحة جيدة. الاستقبال فخم. لم أر فى حياتى ما يعاثل ذلك».

وذكر المؤرخون أن إسماعيل باشا قد أنفق على هاتيك الاحتفالات مليوناً وأربعة ألاف جنيهه مصرى.

ويمراجع أجنبية وعربية، ودقة وبراعة، وأسلوب راق، كما عبرت الأستاذة الدكتورة «لطيفة سالم» فى التوطئة التى قدمت بها، صاحب كتاب «١١ يوليو وضرب الإسكندرية» كتب أستاذنا «العقاد»:

«إن بيع أسهم مصر - فى شركة قناة السويس - واتفاقية القسطنطينية عام ١٨٨٨م، وإحباط محاولة مد امتيازها عام ١٩١٠م» على يد الزعيم الخالد «سعد زغلول» ورفاقه الذى اتهمه المعرضون على غير الحقيقة إنه كان من الراغبين فى مد هذا الامتياز ودحضنا ذلك عنه فى كتابنا (خواطر قاض) تحت عنوان (فرية صبت فى الآذان ومجتها الأذهان). ولقد رفضت مصر برمتها مد هذا الامتياز كراهة منها لذكرى القناة، وعقابيل القناة!.

كانت قناة السويس - كما عبر العقاد - هى بيت القصيد فيما حدث للإسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢م عندما ضربتها بوارج الاستعمار الإنجليزية، فكانت قرون الاستشعار الإنجليزية تتحين الفرصة لتوثيق احتلالها لمصر.

وكانت ذرائعه من إبقاء جيوشهم فى الأراضى المصرية.. إنما كان لحماية القناة والتأهب لدرء الجيوش عنها.

وقد كانت قناة السويس سبباً لاحتلال كل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل لسيناء وبورسعيد وبعض الأراضى المصرية فى ٣١ أكتوبر ١٩٥٦م لتأديب مصر بعد أن أمم رئيسها الراحل «جمال عبد الناصر» لشركة قناة السويس.

فقد كانت ك... من (إنجلترا، وفرنسا، إسرائيل) يصطرون عليها ويتمنون: القبوع في أرياضها، يستروحون الهواء عند أحقاف القناة، وكدر رذيلهم، وشق على بصائرهم تأميم عبد الناصر لهذه الشركة التي هي كذا عبر هذا الزعيم الوطني في خطابه بالمنشئة بالإسكندرية في ٢٦ يوليو ١٩٥٦م، شركة مساهمة مصرية.

ولا جرم أن نذكر في هذا الخصوص نُتفاً متفرقات عن هذا الحدث التاريخي الذي كان نقطة تحول في تاريخ مصر والوطن العربي برمته بل والصراع العربي الإسرائيلي.

يقول "مردخاي بار أون" رداً على سؤال وجه إليه من أحد الصحفيين: إن إسرائيل قد كان في مكنتها ألا تزج بنفسها في داخل هذه الحرب لأنها كانت حرب (خيار حقيقية) وألا تنضم للجوقة الفرنسية والبريطانية في نضالها ضد تأميم قناة السويس. فتلك الحرب لم تكن بمثابة ضربة وقائية، أوردًا ضروريًا على الأخطار الفورية التي تهدد إسرائيل.

كان الإسرائيليون متفقين تمامًا في الرأي بأنه حتى لو كانت إسرائيل تمتلك الخيار الآن فإنها في المستقبل لن تجد أمامها مفرًا سوى أن تتصدى لمصر وتردعها. لذا فقد كان عليها اختيار الوقت المناسب لشن تلك الحرب بحيث تتمكن من تحقيق أهدافها والانتصار.

والواقع أن إسرائيل كانت في انتظار الفرصة المواتية للانقضاض على مصر، وقد التقت النوايا الإسرائيلية مع النوايا الغربية بشأن إيقاع الهزيمة بجيش مصر وإسقاط نظامها الثوري.

وتجمع كل الشهادات تقريبًا على أنه منذ إعلان جمال عبد الناصر عن صفقة الأسلحة التشيكية في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٥٥م. والتحفز

والتوتر يهز كامل العمود الفقري الإسرائيلي، وقد أصبح الخوف من الجولة الثانية يأخذ معايير زمنية وإمكانية حقيقية إلى حد اعتقاد بن جوريون في حديثه إلى موسى ديان "اعتقد أنهم سيهاجمونا في الصيف ويجب علينا الافتراض بأنهم سيقومون بذلك. فالمنطق يقول إنهم سيشنون هجومهم بمجرد تأكدهم من إمكانية النصر".

وتؤكد المصادر الإسرائيلية المعاصرة على أن كميات ونوعيات الأسلحة التي بدأ السوفييت في إرسالها إلى مصر قد أدت إلى تقويض التوازن التسليحي في الشرق الأوسط ويعلق موسى ديان على صفقة الأسلحة التشيكية قائلاً:

"هذه الصفقة في ضوء ما اعتادت دول الشرق الأوسط أن تعقده من صفقات تبدو أكثر مما هو عادي فضلاً عن إضافة هذه الصفقة إلى ما هو موجود فعلاً في حوزة مصر قد سبب زيادة اضطراب ميزان القوى المهتز أصلاً فيما بين الدول العربية والإسرائيلية".

وحديث "ديان" عن ميزان القوة يتفق مع تلك البدعة التي خلقتها الدول الاستعمارية وهي مهزلة توازن القوى وأساسها أن لا تعطى الدول العربية مجتمعة من السلاح أكثر مما تعطى إسرائيل بل تعطى إسرائيل أكثر مما تباع للدول العربية مجتمعة لكي يضمنوا توازن القوى بين العرب وإسرائيل، وبالتالي فإن الميزان طبقاً لمفاهيم الاستعمار يتعادل ويصح طالما امتلكت إسرائيل من الأسلحة والمعدات ما يفوق ما تملكه كافة الدول العربية مجتمعة، والميزان يضطرب ويختل إذا ما كسرت مصر هذا الاحتكار، وقامت بتسليح جيشها لا بغرض العدوان، ولا بغرض الحرب، ولكن بغرض الدفاع عن نفسها.

وفي كتابين أحدهما "يوميات معركة سيناء لموشي ديان" إبان شغله لمنصب رئيس هيئة الأركان العامة، وثانيها "لجولداه ماثير" وزيرة خارجية إسرائيل آنذاك يقران كلاهما بذلك أى بالاتفاق مع فرنسا وبريطانيا لشن حرب على مصر.

وتأتى من بعد هاتين الشهادتين ما ذكره "موشى كرمل" والذي كان يشغل منصب وزير المواصلات فى الحكومة الإسرائيلية، والذي كتب مقالاً معنوناً باسم "هكذا اتخذ القرار" أقر فيه أنه شد رحاله مع وفد إسرائيلى إلى فرنسا للتفاوض مع الفرنسيين لتزويد إسرائيل بالسلاح توطئة لإعداد عملية عسكرية ضد مصر.

وكذلك ما أثبتته "إسحق رابين" فى مذكراته مضمون ذات ما قرره السابق ذكره.

لعبت إسرائيل - بعد تأميم جمال عبد الناصر لشركة قناة السويس - دوراً انتهازياً شبهه "موشى ديان" فى مذكراته، براكب الدراجة الذى يسافر إلى أعلى الجبل مبستعيناً بعربة تسير أمامه، وعندما يصل إلى هدفه يتركها ويشق طريقه بنفسه!

الدكتور "نبيل الطوخي - حرب ١٩٥٦م - شهادة إسرائيلية" هز قرار التأميم أوروبا الغربية هزاً عنيفاً، وخاصة بعد الكلمة التى ألقاها جمال عبد الناصر، جاء فيها وهو بصدد إعلانه لتأميم شركة قناة السويس:

(أيها المواطنين، بعرقنا ودموعنا، وأرواح شهدائنا، وجماجم الذين ماتوا منذ مائة عام أثناء السخرة، نستطيع أن ننمى هذا البلد، وسنعمل، وننتج، ويزيد الإنتاج على الرغم من كل هذه المؤمرات.

سنبنى الصناعة فى مصر. وسننافسهم. فهم لا يريدون لنا أن نكون دولة صناعية حتى تروج منتجاتهم وتجد لها سوقاً عندنا. إننى لم أر أبداً معونة أمريكية تتجه إلى التصنيع.. لأن اتجاهها إلى التصنيع سيجرتب عليه منافستنا لهم. ولكن المعونة الأمريكية دائماً تتجه إلى الإستغلال.

اليوم ونحن نستقبل العام الخامس للثورة - كما طرد فاروق فى يوم ٢٦ يوليو تخرج شركة قناة السويس فى نفس اليوم. ونشعر أننا نحقق أمجاداً لنا، ونحقق عزة حقيقية فلن تكون سيادة فى مصر إلا لأبناء مصر. وشعب مصر.

إننا اليوم حين نسترد الحقوق المغتصبة المسلوبة إنما نتجه إلى القوة وكل عام سنزداد قوة على قوة.. والآن. وأنا أتكلم إليكم يقوم أخوة من أبناء مصر ليديروا القناة ويقوموا بأعمالها.. إنهم فى هذه الساعة يتسلمون شركة القناة ومرافقها.. القناة التى تقع فى بلادنا وتخرق أرضنا والتى هى جزء من مصر وملك لمصر. إننا نقوم بهذا العمل لنعوض ما فات ولنبنى صروحاً جديدة للعزة والكرامة..).

وإذ دقت الساعة العاشرة والرابع من مساء ذلك اليوم أذاع وزير التجارة هذا القرار ومعه قرار تكوين هيئة إدارة شركة قناة السويس. نقول - التاعت - واستبد بدول الغرب الفزع جراء هذا القرار الوطنى التاريخى، فأصدرت وزارة الخارجية الفرنسية بياناً رسمياً قالت فيه: (إن مصر اعتدت على الامتيازات التى تتمتع بها شركة قناة السويس).

أما أمريكا فقد عن لها أن تمسك العصا من طرفيها فلم تعترض على قرار التأميم وإنما انصب اعتراضها على الوقت الذي اختارته مصر لإعلانه. وأما بريطانيا فقد أصدرت قراراتين يقضى أولهما بتجميد الأرصدة والأموال المصرية في بريطانيا - وكانت تبلغ آنذاك أربعمئة مليون دولار استرليني - أما الثاني فقد قضى بتجميد ممتلكات شركة القناة في بريطانيا .

ولقد لقيت مصر تأييداً عالمياً غير مسبوق من الدول والشعوب العربية والآسيوية والأفريقية بل في أوروبا وأمريكا.

وعلى أثر ذلك ظهرت حركة قوية للمطالبة بعودة جبل طارق إلى أسبانيا لأنه أرض أسبانيا اختلستها واحتلتها بريطانيا عام ١٧٠٤. كما ظهرت قضية "بنما" إلى الوجود، وكان هذا بسبب قناة السويس!

وإذ عقد مؤتمر لندن الذي طار إليه دالاس في طائرة حربية لاتخاذ التدابير لإنشاء هيئة دولية لإدارة القناة، واعترضت عليه مصر، وشجبه العالم برمته.

وفي يوم الخميس السادس عشر من أغسطس ١٩٥٦ اليوم المحدد لإنعقاد المؤتمر كان يوماً حزيناً أضربت مصر عن العمل منذ الساعة الثانية عشر ظهراً وقت إنعقاد المؤتمر، وأغلقت فيه المتاجر والفنادق وتوقفت حركة المواصلات، والقطارات، والمطارات، والموانئ، وكان الإضراب إضراباً وطنياً شاملاً اشتركت فيه مصر بكامل شعبها في كل مدينة. وفي كل قرية، وشارك مصر إضرابها جميع البلاد العربية، واثارت المظاهرات في كل زمان ومكان حتى في فرنسا نفسها، وكذلك في إيطاليا، وأسبانيا، واليونان.

واكتملت خيوط المؤامرة بسحب المرشدين الأجانب من شركة القناة حتى يُقعسوا مصر عن إدارة قناتها، ونجحت مصر وانتصرت في معركة المرشدين.

وانتقدت صحيفة "التايمز" الموقف الأمريكي قائلة عنه : (أنه ملتو وسلحفائي)

واعترض الشعب الإنجليزي نفسه على سياسية إيدن تجاه مصر، وأمام تمثال "نيلسون" القائم في ميدان "ترافلجار" بلندن. اجتمع ثلاثون ألفاً من عمال لندن وجلاسجو، وجنوب ويلز، وسيدني، وليفربول. وخرجت ثلاث مظاهرات تجوب شوارع لندن وهي تحمل لافتات كتب عليها (نريد السلام).. (ولا حرب بسبب قناة السويس)!

ولكنها كانت الحرب!.

"ولم يعد كل شيء هادئ في الميدان الغربي

- كما عبر الروائي "إريك ماريا ريماك Eric Maria remak" في روايته الرائعة عن الحرب العالمية الثانية "All quiet on the Western front". إذ رعد رعداها، وبرق برقها، ودقت طبولها.. طبول الغدر والعدوان، واحتلت إسرائيل سيناء، وهبطت الطائرات المغيرة من الجو والبحر واستمر العدو يرمى بأفواج جديدة من البر الذي أنزل فيها قواته تصحبها المدرعات وبجيش عرمرم، وتحولت المعركة إلى قتال في الشوارع وتحصنت القوات المصرية ومعها المقاومة الشعبية في المنازل والطرقات، وإذ تنفس الفجر من اليوم الخامس من نوفمبر ١٩٥٦ كان احتلال المعتدون لبورسعيد توطئة لاحتلال الإسماعيلية والسويس، واستمر الضرب على بورسعيد

حتى صحوه النهار، ويمع الجيش المصرى وجهه ومعہ الشرطة والشعب
شطر القوات المغيرة، فأبادوا قوات المظلات التى هبطت على المدينة
فأبادوها عن آخرها، وإذ جن جنون العدو وفقد صوابه دأب على قصف
المدينة بالقنابل والصواريخ وبلغ عدد الغارات فى هذا اليوم ٤٧٣ غارة
أى بواقع غارة كل ثلاث دقائق؟!

وظلت المدينة الباسلة، بل مصر بأكملها صامدة وخاضت بشعبها
حرباً ضرورياً استمرت المقاومة فيها والتصدى للعدوان حتى الساعة
الثالثة من صباح يوم الأربعاء ١٩ ديسمبر ١٩٥٦ بعد أن ووجه المعتدون
بإستنكار عالمى كان على رأسه الولايات المتحدة الأمريكية ورئيسها
الجنرال "دوايت أيزنهاور Dwight Eisenhower".

وفى الساعة السادسة من صبيحة يوم الأربعاء ١٩ ديسمبر ١٩٥٦ قام
جنديان بريطانيان بإنزال العلم البريطانى من فوق شركة قناة السويس،
وكان الأمر كذلك مع القوات الفرنسية بعد أن نهبوا مدينة بورسعيد
نهباً، وسلبوا متاجرها ومحلاتها سلباً وجاسوا خلال أرضها بالبعثى
والعدوان.

وإذ تلكأت إسرائيل فى الإنسحاب، جمعت بعد ذلك أذيالها
وغادرت غزة - التى كانت قد احتلتها، ومعها دير البلح، وخان يونس،
فى جنح الظلام.

وخاضت مصر حرباً جديدة بتطهير القناة التى توقفت حركة الملاحة
فيها بسبب العدوان الآثم الغادر المقيت.

نعم تاريخنا مع القناة يتحرك؟

فقد أطل علينا صديقنا الدكتور "كمال محجوب" الاقتصادي الكبير، ورئيس مجلسى إدارة دار المعارف، ومجلة أكتوبر، ومركز آراك، من خلال شاشة التلفاز المصرى وهو يحدثنا حديثاً مَلِيًّا عن مشروع "محور قناة السويس"

ومن بين ما قال:

إنه حضر مؤتمراً بوجود رئيس وزراء مصر وبعض الوزراء ولفيف من رجال الأعمال المصريين الذين يعملون بالخارج للنظر فى هذا المشروع والبدء فى تنفيذه وأن هذا المشروع قد بدأ التفكير فيه منذ عام ١٩٥٠ مع محاولات كانت تترى عليه بين الحين والحين، وأنه يربط المحافظات الثلاثة (بورسعيد، والإسماعيلية، والسويس) بسيناء شمالها وجنوبها وأنه سوف يطرح على بيوت الخبرة العالمية بشريكين أحدهما مصرى والآخر أجنبى لتقديم الخدمات التكنولوجية للحاويات العملاقة التى تمخر عباب مياه قناة السويس، وليس ثمة أماكن لتفريغ حمولتها على جانبى القناة ومن ثمة فلا رسوم عليها. وأن الدولة سوف تطرح صكوكاً لمدة تتراوح بين العشر سنوات والرابع قرن لتنفيذ هذا المشروع الصناعى الزراعى التجارى، وقيمة الصك حوالى مائة مليون جنيه.

وأردف قائلاً:

إن من كان يريد إقامة مشروع على ضفتى القناة يحتاج للحصول على ٤٧ توقيع وأن المشروع المزمع عمله يمحو هذا التخلف الإدارى ويجمع التوقيعات جميعها فى توقيع واحد، وأن كلاً من مشروعى شرق التفريعة ووادى التكنولوجى ينتهى العمل فى الأخير من عام ٢٠١٧.. وأن هذا المشروع مشروعاً عالمياً يدر على مصر الكثير من الخيرات.

وهاك هو - أيها القارئ العزيز - المسودة لهذا المشروع المزمع عمله :
البدء بثلاث مشروعات تنموية رئيسية هي : شرق بورسعيد وتنمية
شمال غرب خليج السويس وميناء السخنة ووادي التكنولوجيا
إنشاء هيئة عامة لتنمية إقليم قناة السويس تتبع رئيس الجمهورية
إعفاء المشروعات من الضريبة على إيرادات النشاط التجاري والصناعي
لمدة ١٠ سنوات ومن ضريبة الدمغة
إعفاء الآلات والمعدات والأجهزة اللازمة لإنشاء الشركة أو المشروع
أو المستثمر من الضريبة الجمركية
شروط الإعفاء : تشغيل ٨٠٪ من العمالة المصرية وتصدير ٦٠٪ من
المنتجات للخارج ويثبت عليها «صنع في مصر»
تؤول حصيلة البيع الناتج عن التصدير بالعملة الأجنبية إلى الدولة
وتحويل قيمتها للمستثمر بالجنيه
حظر الحجز الإداري على الشركات بالإقليم وعدم جواز وضعها
تحت الحراسة إلا بحكم قضائي
يبحث مجلس الوزراء مسودة مشروع قانون تنمية إقليم قناة السويس
وسيناء في ضوء ما انتهت إليه اللجنة المشكلة برئاسة الدكتور طارق
وفيق ، وزير الإسكان والمرافق والتنمية العمرانية في هذا الخصوص ،
تمهيداً لاتخاذ إجراءات استصداره .

مسودة القانون والمذكرة الإيضاحية

وتنقسم مسودة مشروع القانون ومذكرته الإيضاحية إلى أربع مواد
للإصدار ، بالإضافة إلى مواد وأحكام تناولها القانون في أربعة أبواب ،
خص الأول منها للتعريف والأحكام العامة ، وعالج الباب الثاني أهداف

واختصاصات هيئة تنمية إقليم قناة السويس، أما الباب الثالث فقد نظم الحوافز التي قررها المشروع للمستثمر، واختتم بباب رابع أخير لكيفية فض المنازعات التي تنشأ بين الشركات المستثمرة والهيئة وغيرها من الأشخاص قبل رفع هذه المنازعات إلى المحاكم المختصة.

وأوضحت المذكرة الإيضاحية للمشروع الأهداف المطلوب تحقيقها لتنمية إقليم قناة السويس: منها زيادة مساهمة المشروعات القومية بالإقليم (شرق بورسعيد، والميناء المحورى وادى التكنولوجيا، والمناطق الصناعية، والمناطق الحرة)، فى جذب المزيد من الاستثمارات لتنميتها والتوسع فيها، بالإضافة إلى المساهمة فى إعادة توزيع السكان بالإقليم، والاستفادة من محور قناة السويس فى مجال التجارة والنقل واللوجيستيات، وتحقيق الميزة التنافسية للإقليم بالتركيز على مجالات السياحة والتجارة والنقل والصناعة وإنتاج الطاقة.

ويُضاف إلى ذلك مضاعفة القدرة التصديرية من المنتجات الزراعية والصناعية السياحية والاكتفاء الذاتى لمصادر الطاقة الحيوية والمتجددة وتصدير الفائض منها، وتطوير وتدعيم شبكة النقل و الاتصال

(الطرق والسكة الحديد وشبكة الموانئ والمطارات) بما يمكن الإقليم من أداء دوره اللوجيستى، وتعظيم استغلال الموارد الطبيعية والتعدينية بالإقليم لرفع المستوى الاقتصادى داخل الإقليم وتحقيق الاعتبارات الأمنية بتنفيذ الأنشطة المقترحة للتوطين.

ونوهت المذكرة الإيضاحية إلى دعوة الدولة إلى النظر بالبداية فى ٣ مشروعات تنموية رئيسية بطول محور قناة السويس كأولوية أولى وهى: «مشروع تنمية شرق بورسعيد، ومشروع تنمية شمال غرب خليج السويس

وميناء السخنة، ومشروع وادى التكنولوجيا بالإسماعيلية». وتعالج نصوص المشروع تعريفات عناصر المنظومة القانونية والإدارية والاقتصادية التي يحكمها، فنص فى فصله الثانى على إنشاء هيئة عامة لتنمية إقليم قناة السويس، على غرار القانون رقم ٥٩ لسنة ١٩٧٩ بشأن هيئة المجتمعات العمرانية الجديدة، وأيضاً على نحو مماثل لما قرره القانون ٣٠ لسنة ١٩٧٥ بشأن نظام هيئة قناة السويس.. وخول المشروع رئيس الجمهورية بقرار منه تحديد الأبعاد والحدود والمناطق الخاصة بالمشروعات الداخلة فى نطاق الهيئة وذلك خلال ستة أشهر تبدأ من تاريخ العمل بهذا القانون. وأعطى المشروع عائد الهيئة من الضرائب على أن تقوم بتحويله إلى الخزانة العامة، واعتبر أموال الهيئة أموالاً عامة فى تطبيق قانون العقوبات. وأعاد مشروع القانون العمل ببعض الإعفاءات المُلغاة من أجل إعطاء دفعة إلى الأمام بالنسبة للمشروعات التى ستقام فى قطاعات الإقليم، حيث أبقى من الضريبة على إيرادات النشاط التجارى والصناعى لمدة ١٠ سنوات، على أن يكون الإعفاء لمدة خمس سنوات على التوسعات التى يوافق عليها مجلس إدارة الهيئة، والإعفاء من ضريبة الدمغة ومن رسوم التوثيق وشهر عقود تأسيس الشركات والمنشآت وعقود القرض لمدة ثلاث سنوات من تاريخ القيد السجل التجارى.

كما امتد الإعفاء من تحصيل الضريبة الجمركية على جميع ما تستورده شركة المشروع أو الشركة المسجلة أو المستثمر من آلات ومعدات وأجهزة لازمة لإنشائها، على أن يبدأ التمتع بالإعفاء من تاريخ بدء الإنتاج أو مزاولة النشاط حتى نهاية السنة المالية التالية لذلك، وعلى الشركة أو المستثمر إخطار الهيئة بتاريخ بدء الإنتاج أو مزاولة النشاط.

وامتداداً لهذه المميزات وتطبيقاً للقواعد العامة المقررة للشركات الخاضعة لقوانين الاستثمار، فقد حظر مشروع القانون الحجز الإداري على الشركات التي تمارس نشاطها في قطاعات الإقليم، وفي نفس الوقت عدم جواز وضعها تحت الحراسة إلا بحكم قضائي.

واشترط المشروع لتمتع الشركة أو المستثمر بالإعفاءات المذكورة، أن يكون شركة مساهمة مصرية مؤسسة وفقاً لقانون ضمانات وحوافز الاستثمار، وألا تقل نسبة العمالة المصرية في المشروع عن ٨٠٪، وأن يصدر ٦٠٪ من منتجاته إلى الخارج على أن يثبت عليها «صنع في مصر»، وتؤول حصيلة البيع الناتج عن التصدير بالعملة الأجنبية إلى الدولة، ويتم تحويل قيمتها للمستثمر بالجنيه المصري بسعر الصرف المعلن من البنك المركزي في تاريخ التحويل وذلك للمشروعات الصناعية. كما أُلزم المشروع الشركة أو المستثمر البدء في مباشرة نشاطه طبقاً للبرنامج الزمني الوارد في العقد، وبجميع القوانين والقرارات المنظمة للإقليم والسارية في تاريخ بدء النشاط المرخص به، وبسداد مقابل الانتفاع لما خصص له وفقاً للأسلوب ونوع العملة الواردين في قرار التخصيص. وأُفرد المشروع باباً خاصاً بتسوية المنازعات التي تنشأ بين الشركات أو المستثمر والهيئة وغيرها من الأشخاص العاملين في القطاعات قبل رفع المنازعات إلى المحاكم المختصة.

وأعطى المشروع رئيس الهيئة العامة لتنمية إقليم قناة السويس جميع اختصاصات الوزراء ورؤساء الهيئات العامة في نطاق الإقليم، فيما عدا وزراء الدفاع والداخلية والعدل ورئيس هيئة قناة السويس، وحظر على رئيس الهيئة والأعضاء وأزواجهم وأقاربهم حتى الدرجة الرابعة أن

يكون لأي منه خلال مدة عضويته أى منفعة أو تعامل مع الهيئة أو فروعها بأى صورة من الصور.

ونص المشروع على أن تؤول إلى الهيئة ملكية جميع الأراضى المملوكة للدولة والواقعة داخل قطاعات الإقليم فيما عدا الأراضى التابعة للقوات المسلحة، ووزارة الداخلية، والأراضى اللازمة لإدارة هيئة قناة السويس، كما تؤول إلى الهيئة الحقوق والالتزامات المترتبة على العقود والتصرفات الواردة على هذه الأراضى والمنشآت الكائنة عليها، قبل العمل بأحكام هذا القانون.

ونص المشروع على أنه لا يجوز للهيئة التصرف فى الأراضى التى آلت إليها بغرض إقامة المشروعات طبقاً لأحكام هذا القانون إلا بطريق حق الانتفاع، على أن تستثنى من ذلك الأراضى السكنية داخل الأحوزة المعتمدة للمدن والتجمعات العمرانية المخططة، طبقاً للقوانين واللوائح.

إنه من المنتظر توقيع عقد هذا المشروع فى أول سبتمبر ٢٠١٣ ونحن نقول تعقيباً على ما سمعناه وما قرأناه سواء مما كتبناه أو مما سطره المعارضون له المتخوفون منه أن قاموس (Webster) عرف العلم بأنه المعرفة المنسقة التى تنشأ عن الملاحظة والدراسة والتجريب. وقد اتفق على تعريف العلم بأنه :

«طريقة منظمة للحصول على المعرفة، ودراسة التتابع بين السبب والمسبب (Cause and - effect)».

ويذكر أحد العلماء وهو الدكتور «محمد شهاب أحمد» أستاذ التكنولوجيا بجامعة بغداد أن :

«دراسة التتابع بين السبب والمسبب حل محلها العلاقة بين المتغيرات»

وتأسيسًا على ذلك وبالبناء عليه فإن البحث العلمى يستند إلى ثلاثة مرتكزات تتحصل فى وجود ظاهرة أو مجموعة ظواهر تكون أساسًا للدراسة واستخدام المنهج العلمى للبحث عن ماهية هاتيك الظواهر والوصول إلى مجموعة القوانين العلمية المنظمة لذلك.

وهذا هو ما ارتآه من قبل العالم الفرنسى «بونكاريه Bounkar» إذ أكد أن ماهية العلم ترصد ما بين الأشياء والظواهر من علاقات. وهذا هو جوهر المعرفة العلمية.

ثمة كتاب لعملاق الأدب الإنجليزى والعالمى «شكسبير Shakespeare»، أسماه مترجمه «العبرة بالخواتيم»

ومن قبلها قال هذه الآبدة رسول الله - عليه الصلاة والسلام. فهل يعيد مشروع محور قناة السويس مصر إلى عهد التأوهات والآهات؟.. أم أنه فى سبيله إلى أن يفتتح على مصر باب الرزق والخيرات؟! نعم.. العبرة بالخواتيم!



مشكلة التعليم فى مصر

يقول «تشارلز إسكندر روبنسون Charles Alexander Robinson» فى كتابه القيم «أثينا فى عهد باركليس» إن تَوَقُّ الإغريق إلى الاستقلال الذاتى مُيز بها تطورها الحضارى ودفعت بهم إلى مستوى العيش الكريم لم تبلغه من العصور الخوالى.

فقد كان الإغريق أول شعب فى التاريخ - طبقاً لما قال به المؤلف - يعرف قيمة الفرد وأهميته. كما اكتشف الشعب العبرانى القديم (الله الواحد).

وقد جاء فى كتاب أحد مفكرى الإغريق «بروتاجروس Protagoras» أن كل شىء فى الكون مقاس من حيث قيمته بالنسبة للإنسان. وكان مرجع ذلك يعود إلى العلم، والتعليم الذى ذاع وشاع فى أرجاء أثينا.

وفى القرن الثانى الميلادى وفى عهد الامبراطور «هدريان» استطاعت الامبراطورية الرومانية - بسبب العلم - أن ترتفع إلى سدة العالم المتحضر بأسره إلى ذرى لم تبلغها المدنية من قبل.

وقد تساءل «سوفوكليس Sophocles» فى روايته الموسومة بفيلوكتاس: «لماذا يشقى الصالحون والأبرار من الناس؟»، وأجاب: إن ذلك من أثر الحياة فى القيمة الأخلاقية.»

كان أرسطو يعلم الناس دون أن يتقاضى أجراً منهم على تعليمه إياهم.

وكان أفلاطون يحاول أن يفهم أسباب سقوط أثينا وتوصل أنه كان يجب على الناس أن يرجعوا إلى نور العقل.
ونحن فى مصر لم نكتشف بعد قيمة العقل.. ولم نعرف بعد قيمة العلم؟.

وتقاضى المعلمون الذين ينهضون على العملية التعليمية الأجر تلو الأجر على ما يلقنوه لطلاب العلم، وانكبوا على مد أيديهم إلى جيوب أولياء أمورهم.. حتى شقى الصالحون والأبرار، وجأر بالشكوى منهم الأتقياء والأشرار؟!.

وأضحت مشكلة التعليم فى مصر أشبه بمأساة أغريقية دفعت عبقرى مصر الدكتور «طه حسين» إلى أن تدبج يراعتة كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» الذى دفع به إلى وزارة المعارف المصرية عام ١٩٣٧م لعلهم يقيدون منه.. وما استفادوا.. وما أفادوا؟!

وكان «طه حسين» يرى أن نظام التعليم فى مصر «لا يكفل رقيًا ولا صلاحًا» وأصبح فن صناعة البشر فنًا غريبًا على مصر بغياب المعلم الذى هو البانى الأعظم لصرح التعليم فيها، إذ سقط النظام برمته فى مستنقع الدروس الخصوصية، والتى كانت نتيجة لعدم قيام المعلمين بواجبهم التعليمى الأمثل فى أروقة دور التعليم.

وأضحت العملية التعليمية بعبارة العقاد الذى ذكرها فى كتابه «على الأثير» «من الصعوبة والإعانات بحيث تتقاصر دونها الهمم، وتقف العقول» ذل عنان التعليم وأصبح التعليم سلعة تباع فى الأسواق.

أصبح نظامنا التعليمى قائمًا على الحفظ والتلقين، والتذكر والتكرار، الممل الذى لا يغذى العقل، ولا يمد القلب بدم جديد دون فهم أو إفهام،

وأصبحت المعارف تقتحم العقول دون فيض أو إلهام على عكس ما هو موجود فى بلاد الغرب وفى الدول الحديثة التى بلغت ما بلغت من العلو والمجد بسعيها الدؤوب إلى النهوض بالعملية التعليمية، وشحذ الهمم على التفكير السليم المستقيم الذى يجمع بين العمق والرحابة وبيتعد عن الحفظ والتلقين.

ولا مرأ أن شباب مصر جُلهم أضحوا يبحثون عن الشهادة التى رآوا فيها «صكًا» لخوض المستقبل دون أن تفيدهم بشعاع من الروح، أو قبرس من نور العقل؟.

وأصبح الشباب خاضعًا خانعًا لنظام التعليم المصرى الذى يصادر حرية الفكر ويقتل النقد والإبداع.

وأصبح المجتمع المصرى بفئاته يأكل بعضه بعضا.. وصدق من قال:

«وليس الذئب يأكل لحم ذئب

ويأكل بعضنا بعضًا عيانًا؟!»

عرفت مصر رجالاً نهضوا بها أو حاولوا مثل: «رفاعة رافع الطهطاوى، وعلى مبارك، والإمام محمد عبده، والشيخ حسن العطار الذى كان متفتح الذهن عصرى التفكير وطبقت شهرته الآفاق وخرجت النهضة المصرية الحديثة على رأس «عمامته» حيث كان شيخًا للجامع الأزهر.. يعلم تلاميذه كيف يدخلون إلى رحاب الحضارة الحديثة.. وكان إنشاء دار العلوم ١٨٩٢م وفتح بابها للمتعلمين، وإنشاء المدارس الصباحية والمسائية مع دب الحياة فى الجامعة المصرية فتحًا مبيّنًا أمام العملية التعليمية. بيد أن الاستعمار الإنجليزى وقف أمام هذه العملية بالمرصاد.

تقص علينا رائدة التعليم فى مصر «نبوية موسى» وقد عن لها أن
تخرج عن نطاق المنهج المقرر على الطالبات اللائى تقوم على تعليمهن،
هرع إليها أحد المفتشين الإنجليز كى يقوم باختيار الطالبات عما
درسهن، فأصابته الدهشة إذ رآهن يجيبون على أسئلتهم بسرعة فقال
لنبوية موسى:

لقد تحققت أن لكى طريقة (شاذة) فى التدريس لا تتبعها المدارس
الأخرى
فسألته:

أرجو أن تخبرنى عن رأيك فى طالباتى وطالبات المدارس الأخرى؟
فأجابها:

إنهن أقوى تفكيراً وأكثر استعداداً..وهن أقوى من طالبات المدارس
الأخرى بلا جدال.

فقالته له:

إذن أطلب من المدارس الأخرى أن تتبعنى.
فقال لها:

لقد استدرجتينى إلى ما أريده.

فقالته له:

إنما استدرجتك الحقيقة التى لا مرأء فيها؟!

وذلك لأنها كانت تقوم بالتدريس بطريقة حديثة لا حشو فيها
ولا تلقين وإنما تعتمد على العقل، والعقل وحده.

وإثر عودة تلميذ العقاد الوفى، والفيلسوف الألعى الدكتور «ذكى
نجيب محمود» من غربته عام ١٩٤٧م دأب على أن يدعو مصر إلى اعتناق

المذهب العلمى «فى التعليم»، وطرح طريقة وزارة التعليم من العملية التعليمية تلك الطريقة الصماء البكماء.

وألف كتابين من كتب التنوير أوله «شروق من الغرب»، والثانى «الكوميديا الأرضية»، ودعا إلى الأخذ بالنمط الثقافى الغربى لأن الغرب هو العصر وصانع حضارة عصرنا.
وقال:

لم تكن دعوتى إلى ثقافة الغرب «صيحة مجنوننة» معنونة بمظاهر كاذبة بل هى دعوة دفعنى إليها ما رأيته من مكانة رقيقة للإنسان، كل إنسان، وأى إنسان، من حيث إنه إنسان وكفى، بعدما قارنت - رغم أنفى بعد ما رأيته هناك ورأيته هنا. ولا سيما بعد أن ديست حقوق الإنسان «والأبرياء» تحت أقدام الأقوياء.

وكان جوهر دعوته كما دعا من قبل العقاد، وطه حسين، ولطفى السيد، وسلامة موسى، وغيرهم.. من حيث وجوب إعمال العقل فى أمورنا الذى يجب أن يكون هو القدح المعلى فى نهضة مصر الحضارية، بنظرة علمية فننظر إلى الواقع كما هو لنحوه إلى واقع جديد.

وفى خضم دعوته هذه للأخذ بالمنهج العلمى، فى العملية التعليمية ضرب مثلاً بتلك الحكمة الصينية التى تتحصل فى أن فقيراً كان يتضور جوعاً، مر صائد أسماك فمد يده إليه يستجديه أن يعطيه «سمكة» يسد بها رمقه، وإذ كان يجلس على حافة النهر حكيمًا صينيًا شاهد هذا الموقف فقال للمعطى: خير لك أن تعلمه صيد السمك من أن تتصدق عليه بسمكة.. وأردف قائلاً: السمكة المعطاة ماهى إلا وجبة واحدة تأتى بعد زوالها حاجة متكررة ودائمة إلى الوجبات، أما إذا علمته الصيد فسوف يجد دائماً ما يشبعه إذا ما استبد به الجوع.

هذا الفيلسوف، كان يرى فى كتابه: «الشرق الفنان»:

إننا نريد لأمتنا أن تسير مع العلم بقوة الإيمان، وضرب مثلاً لذلك إنه بعد أن توارت «أثينا» أصبحت الإسكندرية التى تمثل الشرق الفنان عاصمة الثقافة فى العالم القديم، ففيها بدأ اللاهوت المسيحى لأول مرة ينسق بين العقيدة من جهة والعقل من جهة أخرى وساق مثلاً من ذلك «بأورجين» اللاهوتى الإسكندرى الشهير الذى قال إن الفلسفة القائمة على العقل المنطقى الصرف، والإنجيل القائمة على الإفهام يتطابقان ولا يتعارضان.

قمين بنا إذن أن نخرج من حضارة اللفظ، إلى حضارة الأداء.

ولا جرم أن نلخص هنا ما أجمع عليه العلماء والأدباء من أقوالهم التى قامت على المنطق السليم إذ رأى البعض أن «التعليم أمة فى خطر، فقد جنى التعليم على الثقافة والأمن القومى». وأن جنائية التعليم على الثقافة جاءت من الفصل الحاد فى شجرة المعرفة ما بين تخصص العلمى، وتخصص الأدبى، وأن الرؤيا العلمية يجب أن تكون فى الأهداف الكبرى للتعليم، وعلينا أن نواجه كل ما يتعارض مع هذه الأهداف.

فوزارة التربية والتعليم «عملت كل شىء، وفشلت فى كل شىء»

وإننا إذا عدنا للماضى يوم أن كان العرب والمسلمين صناع للحضارة والتقدم انبرى لهم اليونان، وراحوا يترجمون كل ما وصلت إليه أيديهم من تراث وفقه العرب والمسلمين يوم أن كانوا يلعبون دور المبادئ أو المرسل على حين كان اليونانيون يقومون بدور المتلقى فتلقف الغرب ذلك التراث عن اليونان ونهض به.

وإن التعليم أصبح فى مصر أداة للقهر وليس إلى التحرر.

وهاهوذا «طه حسين» الذى لم تتحقق نبوءته التى جاءت فى كتابه الذى
المنعنا إليه «مستقبل الثقافة فى مصر» يرى أن حال التعليم عندنا منحط، ونظام
التعليم عندنا منحط بل أستطيع إن أقول أن نظام التعليم عندما غير موجود.
وقدم طه حسين الكثير من الحلول لنهضة التعليم.. فهل قرأها
المسئولون عندنا؟

فإذا كانوا قد قرأوها فتلك مصيبة.. وإذا كانوا لم يقرأوها فالمصيبة أعظم!.
حقاً لقد أصبحت مشكلة التعليم فى مصر ملهامة ومأساة كالتى حفل بها
الأدب اليونانى.. فهل آن الآوان لبعث الروح فيها وإعادة الوعى المفقود إليها..؟.
أمسى ما يقال على أن ثمة تعليمًا فى مصر هو الخرافة بعينها تفوق
خرافات لافونتتين «Jean de La Fontaine».

وأضحى طلبة العلم فى مصر يتلقون التعليم وهم أشبه «بالبغاوات»
يصدق عليهم قول أمير الشعراء:

كان لبعض الناسِ ببغاءٌ ما ملَّ يوماً نطقها الإصغاءُ
رفيعة القدرِ لدى مولاها وكلٌّ منْ فى بيته يهواها

نؤمل أن يغادر مصر فى معاهد علمها عصر الحفظ والتلقين، هذا العصر
غير المأسوف عليه من منهج التعليم فى مصر.. والذى سدر فى غيه وغبائه
فأمسى بقعة سوداء على وجه العقول، فأضحى الوطن بها هو الوطن الذلول!



وتبقى مشكلة منطقة أم الرشراش المصرية؟!!

كتبنا عن أم الرشراش المصرية والتي سلبتها إسرائيل من مصر عنوة واقتداراً في مقال لنا نشر بجريدة الوفد وضمنته ضمن مقالاتنا التي جمعت ونشرت في كتابنا «خواطر قاضٍ».

المقال المذكور كان بمناسبة ذكرى «مصطفى النحاس» موسوماً باسم «ذكرى مصطفى النحاس سيد الناس» قلنا فيه :

«إن التاريخ لن ينسى لمصطفى النحاس؛ إنه حال إنشاء دولة إسرائيل عقب حرب ١٩٤٨م قد حذر من احتمال إقدام إسرائيل على إنشاء دولة إسرائيل على حدود مصر الشرقية مصرًا على أن تكون قرية أم الرشراش جزءًا لا يتجزأ من الأراضي المصرية».

ووقفت الأقدار على أن تنقذ مصر هذه البقعة الغالية من أرضها من يد الأشرار الذين تربصوا بها الدوائر.

وقرية أم الرشراش التي هي ميناء (إيلات) حاليًا مدينة إسرائيلية على ساحل خليج العقبة وتقع في أقصى جنوب فلسطين بين مدينة العقبة الأردنية من الشرق وبلدة طابا المصرية من الغرب. تطل المدينة على ميناء يوصل إسرائيل بموانئ الشرق الأقصى وعلى منطقة سياحية كبيرة نسبيًا مكونة من بضعة فنادق ومنتجات.

تتميز مدينة إيلات (أم الرشراش المصرية) بمعبرين حدوديين مفتوحين بالقرب منها يسهلان حركة السياح منها وإليها ومن مطارين يخدمان السياح - مطار صغير داخل المدينة ومطار أكبر يبعد ٥٠ كم شمالا لها.

أما من ناحية المواصلة البرية إلى داخل إسرائيل فتعتبر إيلات منعزلة عن باقى المدن الإسرائيلية؛ إذ يصل إليها شارع رئيسى واحد فقط يمر فى وادى عربية. لم يتم رسم الحدود الإسرائيلية المصرية بين إيلات وطابا إلا فى ١٩٨٨م لعدم وضوح مكانها بدقة، ولكن منذ رسمه النهائى يوجد معبر حدودى مفتوح على مدار الساعة ويخدم السياح العابرين من شبه جزيرة سيناء إلى إيلات. فى ١٩٩٤م تم افتتاح معبر مماثل بين إسرائيل والأردن شمالى مدينتى إيلات والعقبة.

احتلت القرية أو المدينة فى ١٩٥٢م حيث افترستها قوة إسرائيلية بقيادة اسحق رايبين عملية «عوفيدا» فى ١٠ مارس ١٩٤٩م. وما زالت بعض المنظمات غير الحكومية فى مصر تطالب بها على أساس أنها «أرض مصرية». كما طالب الرئيس السابق محمد حسنى مبارك، الإسرائيليين عام ١٩٨٥م بالتفاوض حول أم الرشراش، التى أكدت وثائق جامعة الدول العربية أنها «أرضاً مصرية» بيد أن طلبه وضع بين الأضابير الإسرائيلية!؟

عقب حرب ١٩٦٧م واحتلال الجيش الإسرائيلى لشبه جزيرة سيناء أصبحت إيلات محطة للجنود وللسياح الإسرائيليين الذين سافروا إلى جنوب سيناء. بعد إتمام إعادة سيناء لمصر فى أبريل ١٩٨٢م فى إطار الاتفاقية السلمية بين البلدين وحلت (إيلات) محل المواقع السياحية فى جنوب سيناء من ناحية السياحة الإسرائيلية الداخلية فتوسعت المنطقة السياحية منها. منذ افتتاح المعبر الحدودى فى طابا فى ١٩٨٨م وإعفاء المواطنين الإسرائيليين من ضرورة طلب التأشيرة سلفاً لزيارتها

شرقى سيناء. ومن ثم وقد أصبحت إيلات من جديد محطة للعابرين من إسرائيل إلى جنوب سيناء.

ففى ٢٠٠٦م أنهى وزير الخارجية المصرى آنذاك أحمد أبو الغيط الجدل حول ملكية مدينة أم الرشراش بتأكيده على أنها أرض عربية تابعة لمصر وفقاً لاتفاقيتى ترسيم الحدود بين بريطانيا والدولة العثمانية فى ١٩٠٦م و ١٩٢٢م. تم اختيار اسم «إيلات» للمدينة الجديدة نسبة إلى اسم موقع قديم يذكر فى الكتاب المقدس وقع حسب التقديرات على شاطئ خليج العقبة: «فى ذلك الوقت أرجع رصين ملك آرام أيلة للآراميين وطرد اليهود من أيلة وجاء الآراميون إلى أيلة وأقاموا هناك إلى هذا اليوم». (سفر الملوك الثانى، إصحاح ١٦، ٦). وفى النص العبرى الأصيل يظهر اسم «أيلة» אילת ويلفظ فى العبرية الحديثة "إيلات".

كانت أم الرشراش تحت مظلة مصر. وعندما اغتصبها الصليبيون استردها منهم صلاح الدين الأيوبي، وإذ عادوا من جديد فقد تمكن السلطان الظاهر بيبرس من دحرهم منها عام ١٢٦٧م. ونهض السلطان «قنصوة الغورى» على بناء قلعة حصينة فيها لتحميها من غائلة المعتدين إذا ما عن لهم الإغارة عليها. والذى لا مشاحة فيه أن الملكية لا تسقط بالتقادم طبقاً للمبدأ القانونى السليم المستقيم.

ومن ثم فإن هذه البقعة الغالية من تراب مصر لما تزل تابعة لمصر تدور معها وجوداً وعدماً.

ومن ثم فإننا نرى أن تلجأ مصر إلى القانون الدولى الذى يحكم العلاقات بين الدول ويمنع أية دولة من الافتئات على حق دولة أخرى. كما فعلنا مع طابا من قبل وعادت بحكم دولى إلى أمها مصر.

ألم يأن الآون.. وقد آن، أن تطالب مصر بحقها في أم الرشراش
لحكم أنها تابعة لها وقد اغتصبتها إسرائيل بليل، وحان الوقت أن
تطالب مصر بها عبر المحافل الدولية بعد أن بزغ عليها ضوء النهار؟



المؤلف فى سطور

- تخرج المستشار محمد محمد مرشدى بركات فى كلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٦٧ وعمل فى سلك النيابة ثم فى سلك القضاء وتدرج فى المناصب القضائية حتى وصل لمنصب رئيس محكمة استئناف القاهرة.
- صادق الكثير من كتاب مصر وعلى رأسهم الأستاذ العقاد والأستاذ توفيق الحكيم ويوسف جوهر ومحمد التابعى ومحمد زكى عبد القادر وأحمد بهاء الدين وأحمد الصاوى محمد والشاعر صالح جودت.
- حصل على ٧ جوائز فى أعياد العلم كانت أولاها عام ١٩٥٩ وتسلمها من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.
- حصل على جائزة الدولة فى التفوق الإجتماعى فى المرحلة الثانوية على مستوى الجمهورية مع زميليه المرحوم الدكتور محمود أدهم نائب رئيس تحرير مجلة آخر ساعة والأستاذ محمود عارف نائب رئيس تحرير جريدة الأخبار
- وكانت هذه الجائزة تسمح لحاملها بالالتحاق بجميع كليات الجامعات بدون التقيد بمجموع الدرجات أو سداد المصروفات المقررة.
- شارك فى العديد من البرامج التلفزيونية.
- أسهم بقلمه ورأيه فى كثير من المجالات والجرائد كالأخبار والأهرام والثقافة التى كان يصدرها أحمد حسن الزيات ومجلة الحرس الوطنى والجمهورية ومجلة الشعر والقاهرة والتحرير و روز اليوسف ومجلة سندباد منذ عام ١٩٥٣ حين كان طالبا فى مدرسة الفيوم الإعدادية.



الفهرس

- إهداء..... ٣
- المقدمة..... ٤
- مشكلة الشباب..... ١١
- مشكلة أطفال الشوارع..... ٢٤
- مشكلة العشوائيات.. واقع الملايين المرء؟!..... ٤٤
- مشكلة العولة..... ٥٨
- المشكلة الثقافية..... ٧٠
- المشكلة الطائفية.. هكذا كانت مصر.. وهكذا ستكون؟!..... ٧٩
- مشكلة الأمية..... ٨٥
- مشكلة البطالة..... ٩٥
- مشكلة البيئة..... ٩٨
- مشكلة السكان في مصر..... ١١٧
- مشكلة المخدرات..... ١٣١
- مشكلة المياه..... ١٣٧
- مشكلة النوبة..... ١٤٥
- مشكلة بطة التقاضى..... ١٥٥

- ١٥٩.....مشكلة حلايب وشلاتين.
- ١٦٤.....مينا مار.. وإحراق المسلمين بالنار؟!
- ١٧٤.....مشكلة النفاق ، والأنفاق...؟
- ١٨٥.....مشكلة الأخلاق.....
- ١٩٥.....محور قناة السويس.. نعمة أم نقمة؟!
- ٢١٥.....مشكلة التعليم في مصر.....
- ٢٢٢.....وتبقى مشكلة منطقة أم الرشراش المصرية.....

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ١٦٨٧٣
الترقيم الدولي	ISBN 978-977-02-7865-9

١ / ٢٠١٣ / ٧٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)